



يوجين يونسكو

المؤلف : كلود ابيستادو
ترجمة : قيس خضور



دراسة



تأليف : كلود ابستادو

**ليونيون
ليونيسكو**

دراسة

هذا النص ترجمة لكتاب :

EUGENE IONESCO
PAR CLAUDE ABASTADO
- bordas -

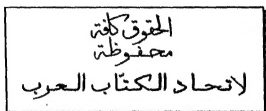
□□

تأليف : كلود ابستادو
ترجمة : قيس خضور
مراجعة : حسيب كاسوحه

يوانيس
يوانيس

من منشورات اتحاد الكتاب العرب

١٩٩٩



Email : aru@net.sy البريد الإلكتروني:

Internet : unecriv@net.sy : الإلكترونيات

تصميم الغلاف للفنان: اسماعيل نصرة



مقدمة:

هل بإمكاننا أن نحدّد "الحضور الأدبي" لأوجين
يونسكو ونحن في عام ١٩٧٠؟

ذلك أمر مشكوك فيه لأن أوجين يونسكو لم ينفذ أعماله الأدبية، ولا
يمكن التنبؤ بالتوجهات المستقبلية، ولا توقّع التحولات الخفية في "دروب
الإبداع الأدبي".

أكثر من ذلك، فإن نجاح كاتب في زمنه من شأنه أن يشكل درجة
لا أكثر؛ فالمواضيع التي يعالجها، والتقنيات التي يستخدمها والأسلوب
الجديد الذي يلجأ إليه قد توافق حساسية الجمهور، تمتدح ذوقه، وقد
تخدع أيضاً، وغالباً ما تكون الغرابة قانوناً جمالياً، ومعيّاراً ذا قيمة
عظيمة.

إن شروط ممارسة النقد مشبوهة في نهاية الأمر، فهل تعبّر
الشروحات المستفيضة للأعمال الأدبية المعاصرة عن شيء غير الموقف
الشخصي والالتزام لدى الناقد؟

ظهرت مسرحية المغنية الصلحاء منذ عشرين عاماً، ومنذ أكثر من
خمس عشرة عاماً لم تفارق مسرح لاهوشيت. الأمر إذن ليس نجاح
موضة عابرة، إنه عمل "كلاسيكي"، ومن الصعب تعداد عروض
مسرحيات "اميديا" "الكرامسي" "الكركدن" "الملك يموت". كل مساء وفي
كل مكان على الكرة الأرضية، وفي مختلف اللغات، يرتفع الستار عن
مسرحية ليونسكو.

تضم أعماله أكثر من ثلاثين مسرحية واسكتشاً؛ نكتشف فيها ثوابت
واتجاهات راسخة لا أقوالاً معادة وثرثرة. لا يعالج يونسكو الأفكار نفسها
ولا يلجأ إلى نفس الأسلوب. إنه لا يكرر أبداً، فمن مسرحية إلى أخرى

نراه يعمق فهمه للعالم وبحثه الجمالي. إنه يقدّم تصوّره للعالم في أشكال مسرحية متجددة.. إنه يسجل الوعي العميق لعصره. فمسرّحه، ذو المغزى، الذي يمثل عصره، عبارة عن بحثٍ دؤوب عن الواقع وتحديدٍ لنظام من القيم.

من المناسب إذن أن نتجاوز الموقف الشخصي الهجومى للنقد المعيارى الذي أدرك، مع مرور الزمن، قيمة الخلق الأدبى، وتكرار تقديم العمل المسرحى. إن دراسة أهداف الكاتب والمؤثرات التي كوّنَت أحاسيسه وخياله تمثّل مفتاحاً للتفسير والتوضيح. إن دراسة وتحليل المغامرة المسرحية التي عاشها يونسكو يسمحان بتحديد فن مسرحي أعاد الأشكال التقليدية إلى قصص الاتهام، كما يسمحان بفهم منهج عملي تطبيقي يريد البحث من جديد عن أصول المسرح، والكشف عن مغزى هذه الرسالة الغامضة.

لقد تفضّل السيد أوجين يونسكو مشكوراً بقراءة هذا العمل وهو في مرحلة الإعداد وقد أرشدني إلى فكرة للكاتب هنا، أو طرفة ثمينة هناك، تساعدان في فهم المسرح، وهنا أتوجه إليه بالشكر الجزيل.

ك. ١



حياة: "التجوال في الغابة"

١ - البحث عن الذات

هل الحياة شيء آخر سوى أن يشق المرء طريقه كالأعمى، بين الأغصان المتشابكة والنباتات المتسلقة؟ كتب يونسكو: "عندما أريد أن أروي حياتي فأنا أتحدث عن تجوال، أتحدث عن غابة لا محدودة، أو بالأحرى أتحدث عن تجوال في غابة لا محدودة"^(١) تجوال، هذا صحيح، لكنه بحث أيضاً، بحث يحول المستقبل إلى مصير. فهم عالم لا معقول، إحاطة بمغزى الكائنات والأشياء، استكشاف الماضي والحاضر، إمطة اللثام عن اللغز، "البحث باصرار عن الجذور"، تلك هي أهداف البحث الذي قام به يونسكو.

البحث عن الجذور، إدراك حياة تريد أن تكون ذات مغزى، والتي (يمكن) أن توجد في الإبداع الأدبي، هذا هو أيضاً معنى سيرته الذاتية.

"فتافيت"

ولد أوجين يونسكو في بلدة سلاتيما في رومانيا، في ٢٦ تشرين الثاني عام ١٩١٢^(١). ينتمي إلى أصول فلاحية إلا أن جدّه هجر الأرض وصار والده محامياً وشغل مناصب هامة في القضاء والشرطة في فترة ما بين الحربين؛ أما والدته - تيريزا إيكار - فكانت فرنسية، وعندما أكمل عامه الأول قدم للإقامة في باريس حيث كان والده يتابع دراسة القانون.

ترسم الذكريات المشوشة التي حفظها من طفولته الباكورة وأوردها في

١ حاضر ماض حاضر من: ٢٤٥ - ١٣ تشرين الثاني حسب التقويم الشرقي.

٢ حاضر ماض حاضر من: ١٤٠.

"يومياته" وفي كتابه عن "المسرح" صورة والده التي طمسها النسيان، ووجه أمه وصورتها، وأخته الصبية، وأخاه الصغير ميرشا الذي مات بالتهاب السحايا وهو في شهره الثامن عشر. يذكر يونسكو الأماكن التي سكنوا فيها على التوالي: ميزون - الفور، ثم باريس، شارع مدام، ثم شارع بلوميه وشارع تياتر، ثم ساحة فيوجيرار.. كنا نغيّر سكننا كثيراً". عام ١٩١٦ عاد والده إلى رومانيا فوجد نفسه مع أمه وأخته "كنت صغيراً جداً واضطرت والدتي للعمل في مصنع لتطعمني" (٢). إنها الحرب، المدفعية الألمانية تقصف باريس: ذكريات النزاعات الليلية، الخرائب، الأشباح التي تظهر بين شقوق الجدران (٣). خال، خالات، بعض أصدقاء أقاربه، بيت للأطفال قرب مودان حيث لقيت أخته العناية اللازمة، ثم نزل في لونج جيمو حيث أقام فترة من الزمن. ظلال منتزعة من الظلام.

كانت السنوات الأولى تمثّل للطفل الاكتشاف الخطير للعالم، تمثّل زمن الدهشة والألم الذي لا ينمحي. كانت والدته تأخذه كثيراً إلى مسرح العرائس في حديقة اللوكسمبورغ: العرائس المضحكة التي تتكلم، تتحرك، تتقاتل. كانت الدمى تعرض صورة كاريكاتورية لحركات البالغين. كان يونسكو يبقى هناك ساعات طويلة، رصيناً صامتاً: "كانت والدتي تقلق: هل مللت؟ - كلا - لقد كنت مدهولاً". (٤) لقد عرف الطفل الحزن أيضاً أمام وجه أمه الباكي لقد اكتشف حالة الموت: "سألت أمي ذات يوم: هل سنموت جميعاً؟ أخبرتني الحقيقة. قالت لي "نعم". كان عمري آنذاك أربع سنوات أو خمس. كنت جالسا على الأرض وكانت واقفة أمامي. إنني مازلت أراها. كانت تشبك يديها خلف ظهرها وهي مستندة على الجدار وعندما رأيتي أنتحب - لأنني رحت أبكي فجأة - نظرت إلي وهي عزلاء، عاجزة. لقد خفتُ خوفاً شديداً" (٥).

يبدو أن والدته كانت السبب العميق لحزنه، لقد ولّد الخوف في أحلامه الطفولية صوراً لكوابيس استولت عليه في ليال طويلة حتى عندما سكنوا في لاشايل - أنتونيز: "في أحلامي كانت الصور البشعة تشبه شخصيات بروغل أوبوش: أنوف ضخمة، أجسام مشوهة، ابتسامات مخيفة، وأقدام متشعبة". (٦).

^١ راجع ضحيا الراجب.

^٢ راجع ضحيا الراجب..

^٣ محاورات مع بول-لوي ميثيون، صدر المسرح، العدد ٣٧٣.

^٤ محاورات مع كلود بونغوا ص ١٢.

^٥ ربيع ١٩٢٩ ص: ٢١٧-١٧٢-٢٠٤.

الفردوس:

حوالي عام ١٩٢١ أقام مع أخته في لاشابيل - انتونيز، وهي قرية صغيرة في منطقة المابين. "كنت مريضاً، مصاباً بفقر الدم، فأرسلتني والدتي لأسكن في مزرعة في الريف وأستعيد صحتي ونضارتي"^(١). أما وقد اعتاد الباريسي الصغير على رؤية السماء الرمادية والبيوت العالية السوداء فقد دهش عند وصوله، من صفاء الألوان، وانتشى من الأريج، وبدت له محطة السكة الحديدية والقضبان وسط الحقول ذات "جمال خيالي"^(٢). "نزلنا من القطار، على عكس اتجاه الطريق المألوف. انتظرنا، مع حقائبنا، أن ينطلق القطار. كانت المحطة صغيرة، وردية تحت أشعة الشمس، في قلب الريف، وسط الخضرة: أسيجة وأشجار وحقول [...] لمحتُ في البعيد جرس الكنيسة فحسبته برجاً في قصر. اعتقدت أننا سنسكن هناك، في غرف فسيحة مظلمة، خلف الأسوار، كما كانت تظهر في صور كتاب التاريخ وحكايات الجن"^(٣).

كانت ذكريات تلك الفترة تؤلف صورة الفردوس.. كانت قرية مولان التي أقام فيها وسط واد صغير، عند تقاطع ثلاث طرق، تحيطها القمم العالية المكسوة بالأشجار والأدغال الخضراء: إنها عش حقيقي. في الشتاء، تصبح طريق القرية غير صالحة للاستعمال فتتطوي قرية مولان على نفسها، وفي الربيع تنفتح على منظر بديع يفيض بالأنشيد والألوان والعطور. إنه بعث لعالم حيث، عالم من طين: يتحول العش الصغير إلى مدى فسيح رحب.. "هناك حقاً اتحاد بين السماء والأرض"^(٤).

لا وجود للزمن في لاشابيل - انتونيز. دورة الفصول، تسلسل الأعمال، يعيشها المرء في اللحظة الراهنة، خارج مسار الزمن: "تبتعد الأشياء، وتعود، وأنا ثابت في مكاني: يمضي الربيع، بسمائه وأزهاره، نعم، كان ينقضي، ويحلّ الصيف محله، أما الشتاء فيحمل معه ألواناً أخرى، أو مناظر متنوعة، ثم يعود الربيع. إنه العالم يدور حولي، الزمن دولاب يدور حولي، وأنا أشعر أنني ثابت، خالد"^(٥).

^١ ربيع ١٩٢٩ ص: ٢١٧-١٧٢-٢٠٤.

^٢ ربيع ١٩٢٩ ص: ٢١٧-١٧٢-٢٠٤.

^٣ ربيع ١٩٢٩ ص: ٢١٧-١٧٢-٢٠٤.

^٤ محاورات مع كلود بونفوا ص ١٤.

^٥ محاورات مع كلود بونفوا ص ١٤.

الريف، ومولان، وإيقاع حياة الفلاحين، "الأعمال والأيام" تلك الصور الغنية
برمزية قديمة مواتية لإستلهاام الشعر. إنها موجودة في المسرح وهي تعني الفرح
والدهشة والجمال.

بينما كان يتشرد على الطرقات الوعرة، وفي الغابات الكثيفة، بينما كان يقرأ
كتباً مصورة وكراسات تحضُّ على التقى، ومطبوعات قديمة يجدها في
المستودع، أو عندما يشرد ذهنه عن دروس الأب "غنييه"، كان الطفل يحلم أن
يصبح قديساً أو ماريشالاً: "أريد أن أصبح قديساً، هذا هو المجد العظيم. لا أريد
أن يكون قدرتي تافهاً. قرأت الكتب الدينية (وقد سمعت منها)، يجب على المرء
أن لا يبحث عن المجد، والمرء لا يأتي إلى هذا العالم ليمجد نفسه.

لن أكون إذن قديساً، قرأت سيرة تورين وكونديه في كتب مكتبة المدرسة
فقررت أن أصبح ماريشالاً" (٢).

لقد اهتم بالمسرح أيضاً. في الصيف، كنا نتسلَّى بتمثيل المسرحيات. كانت
سيمون تحمل عصا بيدها وكنا نجتمع حولها؛ قرب أكداش من القش، وسط
الساحة، كانت نقرأ علينا الأشعار، وترقص، ثم علمتني كيف أقول: هناك نوعان
من الحساء، الحساء الدسم والحساء قليل الدسم، وأنا أتمنى لك رغد العيش" (٣).

المراهقة:

"كنت مركز العالم، واحسرتاه، قوة هائلة دفعتني إلى الزمن، إلى الحلبة" (٤).
عندما بلغ يونسكو الحادية عشرة عاد إلى باريس وكتب أولى قصائده وسيناريو
مسرحية كوميدية نجد بعض ملامح أسلوبها في مسرحه فيما بعد: "تنتهي
المسرحية على النحو التالي: يتم تحطيم كل شيء في البيت، يجتمع سبعة أطفال
أو ثمانية، يتناولون طعاماً خفيفاً، ثم يكسرون الفناجين والصحون، يحطمون
الأثاث، ويقذفون آباءهم من النافذة." (٥) كتب مسرحية وطنية أيضاً "مرحلة
الشباب تغفر كل شيء" (٦) "لقد علموني أن اللغة الفرنسية أجمل لغات العالم، وأن
الجنود الفرنسيين أشجع الجنود، لم ينهزموا إلا بسبب الخيانة وعلى مدى اثنتين

^٢ ربيع ١٩٣٩ ص ٢١٨، ٢١٤.

^٣ ربيع ١٩٣٩ ص ٢١٨، ٢١٤.

^٤ محاورات مع كلود بونفوا ص ١٤.

^٥ محاورات مع كلود بونفوا ص ٦٥.

^٦ تجربة المسرح.

وثلاثين صفحة كتبتُ مأساة جندي من ضحايا الحرب، يلقي مونولوجاً يمجّد الوطن فيه. كان عنوان المسرحية "من أجل الوطن". لم أجد ضرورة لترجمتها عندما وصلت إلى رومانيا إذ علموني هناك أن اللغة الرومانية أجمل لغات العالم، وأن الجنود الرومانيين أشجع الجنود ولم يعرفوا الهزيمة (إلا بسبب الخيانة)^(٢)

عام ١٩٢٥، وكان في الثالثة عشرة من عمره، اضطرّ يونسكو للعودة إلى رومانيا، وتعلّم لغة يجهلها، واضطرّ أن يغيّر عالمه، وإيقاع حياته. عندما تمّ الطلاق بين والديه وجد نفسه ممزقاً بين أم ارتبط بها خلال طفولته كلها وبين أب يكاد لا يعرفه^(٣) حكمت المحكمة بإلحاقه به. عن هذه الفترة تنقل لنا "يومياته" ذكرى علاقاته المرهقة القاسية مع أبيه. "كان والدي يأتي إلي غرفتي عندما كنت في الحلقة الثانوية، ليرى إن كنت أكتب وظائفي، أو ليوبخني عن أمر لا أدري كنهه. كنت أنهض وأراقبه وهو يعيّن بكل شيء، يفتش أدراجي، وكتبي؛ يفتح دفاتري، يقرأ مذكراتي الخاصة جداً، ويردد أبياتي الشعرية بصوت عال. كان يحمرّ غضباً، ثم يزداد غضبه تدريجياً فينهال عليّ بأقذع الشتائم"^(٤).

تمرد المراهق تمرّداً تاماً. كل ما فعلته كنت أفعله نكاية به.. نشرتُ مقالة هجائية ضد وطنه (لم تكن كلمة وطنه مقبولة ولا محتملة لأنها تعني وطن للأب، أما وطني أنا فهو فرنسا بكل بساطة لأنني عشت فيها مع أمي)^(٥) لم تكن هذه العدواة بين الأب والابن قائمة على أسس عادلة، ومن غير المعقول أن لا تسبب ألماً وعذاب ضمير. لقد اعترف في مسرحية "ضحايا الواجب" خلال حوار مؤثر عن حب الأب وحب الابن "لم نتفاهم أبداً يا والدي.. أترك قادر على فهمي؟".

بعد نهاية الدراسة الثانوية فكّر يونسكو أن يصبح ممثلاً، أما والده فكان له رأي آخر: "كان يريدني أن أصبح بورجوازيّاً أو قاضياً أو ضابطاً أو مهندساً كيميائياً"^(٦). التحق أخيراً بقسم اللغة الفرنسية في جامعة بوخارست ليصبح مدرّساً. لم تكن حياته الجامعية سهلة أبداً: اختلف مع والده وراح يعطي دروساً ليؤمن عيشه. لم تكن الحيلة والتوفير من همومه الأساسية^(٧) أذكر أننا بذلنا جهوداً

^٢ محاورات مع بول - لوي ميلينون، صدر المسرح، العدد ٣٧٣.

^٣ كلن أوجين يونسكو في الرابعة من عمره عندما عك والده إلى رومانيا.

^٤ يوميات في قفلة ص ٤٦.

^٥ حاضر ماض حاضر ص ٢٤، ٢٥.

^٦ حاضر ماض حاضر ص ٢٤، ٢٥.

للصلح، كنت في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، وكنت قد تركت منزل والدي لأعيش في غرفة مفروشة، ولكي أستطيع دفع الإيجار اضطررت لإعطاء دروس في اللغة الفرسية. لم يكفني هذا الدخل ولم أجد ما أكله حتى منتصف الشهر، أما خلال النصف الثاني فكنت أذهب إلى بيت طلاب في كلية الطب حيث تعرفت على زميل يتقاضى منحة [...] كان يقدم لي خلال خمسة عشر يوماً الخبز والشاي. رأيت والدي خلال تلك الفترة مرتين أو ثلاث، لقد كان غنياً وكنا نتصافى أحياناً فيعطيني نقوداً كنت أنفقها في الحال فأدعو رفاقي وأقيم لهم وليمة عامرة. كانت السهرة تنتهي عند الفجر فنعود إلى بيوتنا في عربة خيل بعد أن نقوم بجولة في أنحاء بوخارست لأوصل كل شخص إلى بيته. كنت أنفق آخر فلس أملكه، وفي اليوم التالي أنزوي في غرفتي ولا أريد على نداءات صاحبة الغرفة التي تطالبني بالإيجار...^(١)

مرحلة الرشاة:

بينما كان يونسكو يتابع دراسته، بدأ، والأصح أن نقول: تابع الكتابة مغيراً في أشكال التعبير. نشر عام ١٩٣١ قصيدة "مراثي موجهة لكائنات صغيرة" استلهم فيها الشعر الرمزي، كما ألف رواية، لكنه أدان بلا شفقة، فيما بعد، هذه المحاولات: "اشعاري رديئة تدعو للرشاة، فيها تجسيم بدائي متخلف: أزهار باكية نازفة تحلم بالبراري والربيع وبما لا أدري. كنت آنذاك في السابعة عشرة فقلت شفاعة ماترلنك وفرانيسيس جام [...] ثم حاولت كتابة رواية. حدث ذلك منذ زمن بعيد - ماذا كان موضوع روايتك؟ - أنا بالطبع"^(٢). نشر مقالاته في مجلات عديدة: زودياك، أزي، فلورادي فوك، فياتا ليتيرارا، رومانيا ليتيرارا، فاكلا، يونيفرسال ليتيرارا.. لقد واجه الادعاء العلمي لدى مدرّسي الجامعة بالتصور النقدي عند بندتروتش، إضافة إلى التأكيد على روح الأصالة وإطلاق العنان للتأمل في "الفكر الجمالي" المتميز كل التميز عن الفكر المنطقي.

عام ١٩٣٤ أشار موجة عارمة من ردود الفعل في الأوساط الأدبية الرومانية إذ نشر مجموعة من المقالات النقدية هاجم فيها كتاباً مشهورين - اغنيزي، باربو، بترشكو، واتهمهم بفقدان الأصالة وبالزعة الاقليمية الضيقة، وبعد عدة أسابيع نشر مجموعة مقالات أخرى رفعهم في مديحه إلى السماء. "بعد

^١ ٣، ٢١، ٢٤، ٢٥. حاضر حاضر حاضر من ٢٤، ٢٥.

^٢ محولات مع كلود بونفوا من ٦٣.

ذلك، لم ينظر أحد إليّ على أنني ناقد جاد..^(٦) لكي يبرر يونسكو مسلكه كتب دراسة بعنوان "لا" حول تطابق الأضداد وتجاوز الاختلافات ومن المفيد أن نكتشف في هذه "البواكير اليونسكية" الأفكار الأساسية للمسرح المقبل، ولكتابة "ملاحظات وملاحظات مضادة".

كان الوضع السياسي في رومانيا يدعو للقلق: بعد عام ١٩٣٣، شجعت ألمانيا حركة الحرس الحديدي الفاشية، وترسخت في الجامعة الايديولوجية النازية التي أعمدت العنف والعنصرية في الجامعة، متتكرة تحت شعارات مذهب نيتشه والتيارات المتفرعة عنه. رفض يونسكو ذلك الاغراء، وقاوم ذلك التيار. "قبل أن أتمكن من إيجاد الأجوبة، وقبل أن أعرف أسباب رفضي، كنت أعاند تلقائياً كل شيء، بلا برهان، ودون حجة إلا تلك الحجة الخرساء العميقة النابعة من القلب".^(٧) لكن الأساتذة والرفاق مارسوا ضغطاً معنوياً هائلاً، وكان لهم تأثير يصعب تجنبه: كنت أشعر أكثر فأكثر أنني وحيد. كنا مجموعة من الشباب لم نقبل تلك الشعارات والايديولوجيات التي تحاصرنا. كان من الصعب جداً أن نقاوم، ليس فقط في مجال العمل السياسي، بل في أبسط مجالات المقاومة الأخلاقية أو الفكرية، حتى لو كانت تلك المقاومة صامتة، لأنه عندما تكون في سن العشرين، وهناك أساتذة يقدمون لك نظريات ودراسات علمية أو شبه علمية، وهناك الجرائد، والجو العام، والمذاهب، أي هناك حركة كاملة ضدك، يكون من الصعب حقاً أن نقاوم، أي أن لا تميل إلى الاقتناع.^(٨) كان أي حوار يحدو مستحيلاً، وكل مقاومة خطيرة، فأنطوى يونسكو على نفسه وكبرس وقته لـ "يومياته" يكتب، كما يقول، عشرات الصفحات بل دفاتر كاملة، يحلل ويدرس خلافاته مع زملائه وأصدقائه القدامى الذين انتسبوا إلى منظمة الحرس الحديدي، ولكي يواجه دعاية طاغية بقناعاته الداخلية نجده يتبنى هذا الموقف في مسرحية الكركدن.

في هذا الليل الأوربي الدامس لمع بريق من نور. عام ١٩٣٦ تزوج روديك بورلينانو، طالبة الفلاسفة. "عندما أخبرت والدتي أنني سأتزوج ذهبت إلى خطيبتني، وعندما فتحت لها الباب نظرت إليها والدتي برهة، رغم أنها كانت تعرفها جيداً منذ زمن طويل، كما لو أن التي أمامها امرأة أخرى: كانت تنظر

^٦ أجوبة على أسئلة طرحها عليه مطلوب مجلة بريف في ١٥ شباط ١٩٥٦.

^٧ يوميات في قتلت ص ١٢٩.

^٨ محاورات مع كلود بونفوا ص ٢٥.

إليها بعينين مختلفتين [٠٠] إنها الأميرة التي ستكون وريثتها وستصبح عمًا قريب ملكة وتحتل مكانها. بما أن زوجتي المقبلة ردت على نظرات أمي. نقد اغرورقت عيناها بالدموع لكنها سيطرت على انفعالاتها وراحت شفتاها ترتجفان وتعتبران عن شيء لا يقال. لا أدري إلى أي مدى كانتا تدركان ما تقولانه دون كلام. كان حواراً صامتاً ونوعاً من الطقوس القصيرة تعيدان اكتشافها، بصورة عاقبة كما لو أنها انتقلت إليهما من قرون.. كان نوعاً من انتقال السلطة [٠٠] لم تدم تلك الشكليات سوى لحظات، لكن كان من الضروري أن تتم حسب الأصول؛ حسب قانون قديم جداً ولأنها كانت سرّاً غامضاً لقد وافقت زوجتي ولحبت تلك اللعبة المقدسة وأذعنت لإرادة، لقوة تفوقت عليهما، وربطت بيننا إلى الأبد [٠٠] توفيت والدتي بعد ثلاثة أشهر من زواجي، كنت أحبها حباً هائلاً^(١).

اشتغل يونسكو مدرساً للغة الفرنسية في ثانوية شعانتول سافا الوطنية في بوخارست، وفي عام ١٩٣٨ حصل على منحة الحكومة الرومانية للذهاب إلى باريس وإعداد دراسة حول "فكرة الخطيئة والموت في الشعر الفرنسي منذ بودلير". بقيت الدراسة في مرحلة التخطيط لكن يونسكو أدى التزاماته: لقد كتب مسرحاً كاملاً حول هذين الموضوعين.

امتزج الفرح برؤية فرنسا بعد ثلاث عشرة سنة بالقلق من "تصاعد الأخطار". أمّا وقد خرج من كابوس فقد رأى الناس حوله يناقشون الموقف برضى ويتبهون في أحاديث تافهة.

ربيع عام ١٩٣٩ قام يونسكو بزيارة لاشابيل - أنتونيز فوجد "بقايا الذكريات" على قيد الحياة. لكن فرحه لم يكتمل إذ امتزج فيه حنين "عميق جارح" ورغبة مجهولة للأشياء التي فقدتها إلى الأبد: الماضي يخرق في النسيان، وعلى الحاضر يهيم شبح الحرب "هل هو احتضار أوروبا؟ أخاف أن تكون هذه نهاية كل شيء. الموت هو النهاية، هو الحاضر المحدد. في السفينة التي تغرق كنت أعيش وخوفي يتزايد أضعافاً مضاعفة"^(٢).

عالم ينهار، بولونيا تسحق "يا للحرب السخيفة" هزيمة فاستسلام. حرب خاطفة على أوروبا، ليل وضباب Nacht und Nebel. سافر يونسكو وزوجته إلى رومانيا فوجداً بلداً ممزقاً بين هنغايا وبلغاريا وروسيا، بلداً تفتتسه النازية الكاسحة. ما العمل في هذه الفوضى، مع غياب العقل والقيم الحضارية، عندما

^١ يوميك في ثلث ص ١٨٠.

^٢ حاضر ماض حاضر ص ١٦٤.

يكون الوجود الشخصي مهدداً كل لحظة؟ العودة إلى فرنسا هي هدفي الوحيد، والهدف صعب المنال". لم يكن الانتقال والسفر على درجة من السهولة في أوربة التي تجتاحها الحرب، محاولة الحصول على جواز سفر، وإجازة مرور، وتأشيرة دخول، كانت تعني الدخول إلى عالم كافكا. مُنحت التأشيرات، ثم رُفضت، وألغيت، وتعاد المحاولة عشرين مرة. أخيراً تمكن يونسكو من "الهرب" لكنه ببساطة غيّر السجن لا أكثر. وفي فرنسا تحتم عليه البقاء. "كنّا نفتقد المال تماماً وبجانبني رزمة ضخمة من المغلفات كان عليّ أن أضع فيها نشرات توضيحية وعلى المغلفات أسجل عناوين. لقد بدأت أعيش من قلبي"^(١). بعد ذلك اشتغل يونسكو مصححاً في دار نشر كما أن زوجته وجدت عملاً. في عام ١٩٤٤، ولدت طفلتهما ماري - فرانس.

٢- الكاتب المسرحي

تجربة مسرحية مزدوجة:

إذا كانت علاقات يونسكو مع الأوساط الأدبية قد فترت عام ١٩٤٨ فإنه لم يفقد اتصاله بالأدب والفنون، بالشعر والنقد والرسم والموسيقى والسينما. استمر في الكتابة وقد "سيطر عليه شيطان الأدب"، وهذا ما تشهد به يومياته، لكنه لا يحب المسرح.

لم يكن لديه أي ميل للكتابة المسرحية - كما يدّعي. - قرّر ذات يوم أن يتعلم اللغة الانكليزية ليكمل ثقافته، وكانت النتيجة غير متوقعة: "لكي أتعلّم اللغة الانكليزية، اشتريت إذن، منذ تسع أو عشر سنوات، كتاباً يحوي حوارات في اللغتين الانكليزية والفرنسية للمبتدئين. بدأت الدراسة، ولكي أحفظ مجموعة جمل عن ظهر قلب رحلت أنسخها بوعي عن كتابي، عندما أعدت قراءتها بانتباه، لم أتعلّم اللغة الانكليزية، بل اكتشفت حقائق مذهشة: اكتشفت أن الأسبوع سبعة أيام وهذا ما كنت أعرفه من قبل: واكتشفت أن السقف في الأعلى والأرضية في الأسفل وهذا أمر كنت أعرفه أيضاً لكنني لم أفكر فيه جدياً من قبل، أو أنني كنت قد نسيت، لكنه بدا لي، فجأة، لا يقل إثارة عن أية حقيقة غير قابلة للنقاش [..] ولدهشتي الكبيرة فإن مدام سميث أعلمت زوجها: أن لهم عدة أولاد وأنهم

^١ يوميات في ثلاث ص ٦٣.

يسكنون في ضواحي لندن وأن اسمهم هو سميث، وأن السيد سميث كان موظفاً في مكتب، وأن لديهم خادمة اسمها ماري، وهي إنكليزية أيضاً، وأن لهم أصدقاء منذ عشرين سنة هم آل مارتين، وأن بيتهم عبارة عن قصر "لأن بيت الرجل الإنكليزي هو قصره الحقيقي"، كنت أقول في نفسي إن السيد سميث مطّلع إلى حد ما على ذلك كله، لكن هل ذلك مؤكد؟ هناك أناس غافلون تماماً^(١).

قرر يونسكو أن ينقل إلى معاصريه تلك الحقائق الأساسية التي اكتشفها من جديد. راح يرتّب الجمل الموجودة في كتابه جملة بعد أخرى، وينقل بتواضع المعرفة التي اكتسبها: أحاديث تربوية بشكل خاص! يروي يونسكو قائلاً: "مع ذلك، حصلت ظاهرة غريبة ولا أدري كيف: كان النص يتحول تحت نظري، بشكل غير محسوس، ضد إرادتي، كانت الجمل البسيطة الواضحة التي نسختها على دفترتي بجذّ وحماس، تتصفى بعد مدة من الزمن، وتتحرك من تلقاء نفسها، وتتعبث، وتغيّر طبيعتها [...] ولحسرتها، فالحقائق الأولية الصحيحة التي يتبادلها الأفراد، المرتبطة بعضها ببعض، غدت جنوناً، وفقدت اللغة انسجامها، والشخصيات خسرت وحدتها..."^(٢) أطلق يونسكو على المسرحية التي كتبها بتلك الطريقة "المغنية الصلعاء" لأن المسرحية لا تحوي أية مغنية صلعاء أو غزيرة الشعر^(٣).

تلك هي الأسطورة - وهي ثمرة خيال مسرحي بحث- التي نسجت حول بدايات يونسكو المسرحية، أسطورة يلجأ إليها هو نفسه بأسلوب فكاهي، أما الحقيقة فإن مسرحية "المغنية الصلعاء" لم تكن "حادثة". لقد جرّب يونسكو، وهو المسرحي بالفطرة، المسرحي وهو صغير جداً. لقد وجد في الحوار الشكل التعبيري الذي يوافق صراعاته الداخلية ويسمح له بترجمة تناقضات حياته وتجاربه: المسرح موجود في داخله، في عقله، في طريقته لرؤية العالم: "إذا كنت قد كتبت للمسرح ولم أكتب رواية أو دراسة فذلك لأن الدراسة والرواية تفترضان وجود فكر منسجم متماسك، بينما يمكن للفوضى والتناقضات أن تجد طريقاً سالكاً في المسرحية"^(٤).

^١ تراجينيا اللغة.

^٢ تراجينيا اللغة.

^٣ تراجينيا اللغة.

^٤ محاورات مع كلود بونونا ص ٧١، فنذكر هذا التصريح الآخر الوارد في نفس الكتاب ص ٦٨: "كيف جئت إلى المسرح؟ حسناً، أنا نفسي لا أعرف - ألم تكتب في ملاحظات وملاحظات مضادة؟ فك جئت إلى المسرح لأني لم تكن تحبه؟ - بلى، لكن هذا الجواب كان طريقة للتبسيط."

من ناحية أخرى، إذا كان كتاب لتعلّم اللغة الانكليزية قد أحدث ذلك الالهام فذلك لأن يونسكو لا يستخدم ببساطة الكلمات كأدوات، بل يحجب الكلمات لذاتها، ليروّضها، ويفتن بها بعد ذلك. إنه كاتب، ظروف حياته أيضاً، تعلمه اللغة ثانية في وقت متأخر، ازدواجية اللغة المتأخرة، وتدريس اللغة الفرنسية - دفعته للتساؤل عن العلاقات الكامنة بين الكلمات والأشياء، وعن الروابط بين الفكر واللغة، ومسائل الترجمة: "وصلت إلى بوخارست وأنا في الثالثة عشرة من عمري، ولم أغامرها قبل السادسة والعشرين تعلّمت اللغة الرومانية هناك، في الرابعة عشرة والخامسة عشرة كانت علاماتي رديئة في مادة اللغة الرومانية وعندما بلغت السابعة عشرة أو الثامنة عشرة صارت علاماتي جيدة. تعلّمت الكتابة، وكتبت أشعاري الأولى باللغة الرومانية، لم أكن أكتب باللغة الفرنسية بنفس الجودة، كنت أرتكب بعض الأخطاء، وعندما رجعت إلى فرنسا، كنت أعرف اللغة الفرنسية لكنني لا أستطيع الكتابة بها، أقصد الكتابة الأدبية فاضطرت للتعوّد عليها من جديد، التعلّم، نسيان التعلّم، التعلّم من جديد اعتقدتها تمارين نافعة"^(١). التلاعب، بالألفاظ في "المغنية الصلعاء" هو إذن ثمرة تفكير لغوي خاص، إنها لعبة كان يمارسها منذ زمن بعيد، من أجل المتعة، في "يومياته".

تُدّمت "المغنية الصلعاء" أولاً إلى الكوميدي فرانسيز لكنها رُفضت، ثم إلى فرقة رينو - بارو فأخرجها نيكولا باتاي في أزياء وديكورات مستعارة على مسرح نوكتامبول، وقُدّمت لأول مرة في ١١ آذار ١٩٥٠. عُرِضت المسرحية آخر النهار، حوالي الساعة السادسة، بينما كانت تُعرض مسرحية بريخت "الاستثناء والقاعدة" لأول مرة في فرنسا، وكذلك مسرحية كافكا الوحيدة "حارس المقبرة" (لهذا اللقاء بعد عشرين عاماً قيمة رمزية). انتهت "المغنية الصلعاء" دون أن يلحظها أحد اللهم إلا بعض النقاد - جاك لومارشان، روني سوريل، جوستاف جولي، جان بولان رمان سالاكرو - الذين أدركوا مغزى هجوم يونسكو، ثم أعيد عرض المسرحية على مسرح لاهوشيت أعوام ١٩٥١، ١٩٥٢، ١٩٥٦، ومنذ انضمت إلى ذلك التاريخ اتحدت مع مسرحية "الدرس" واحتلت لوحة الإعلانات فقُدّمت أكثر من ٤٥٠٠ مرة وهذا رقم قياسي لم يبلغه أحد.

كانت البروفات والعروض المسرحية بالنسبة ليونسكو نوعاً من الكشف

^١ محاورات مع كلود بونفوا ص ٢٣.

والتجلى لقد بهرته رؤية تصوراته تتحقق، والشخصيات التي حلم بها تمتلئ بالحياة. لقد بدا له الأمر "شيطانياً". لقد اكتشف ما لديه مما يقال وكيف يقال.

في الفترة نفسها، وبمساعدة نيكولا باتاي، أغنى يونسكو خبرته المسرحية إذ جرب التمثيل. على مسرح الأوفر، وفي مسرحية اقتبسها "كاكيا فيالا عن كتاب "الممسوسون" لدستوفسكي، قدّم يونسكو شخصية ستيفان تروفيموفتش. تجربة التمثيل هي امتلاك لشخصيته الذاتية وفقدانها أيضاً معاً بكل وضوح. كانت تأدية الدور، بالنسبة ليونسكو، إثباتاً بأنه يأخذ شخصية أخرى على عاتقه، بينما يعاني المرء كثيراً لكي يحتمل شخصيته الذاتية، وعليه أن يفهم هذه الحالة بمساعدة المخرج بينما لا يفهم المرء نفسه"^(١).

لكن هذا التدريب، وهذا الخلق المستمر سمحا للكاتب المسرحي أن يدرك بشكل ملموس أن المسرحية ليست النص المكتوب فقط، بل هي لعبة جماعية كاملة.

من مسارح الأقيية إلى الصالات الذهبية والصالات الأرجوانية:

من الآن فصاعداً، تتحد سيرة يونسكو الذاتية - تقريباً - مع سيرة مسرحه. لقد صدمت مسرحياته الأولى عادات وذوق الجمهور. استفزاز مقصود تؤكد الملاحظات على هامش المسرحية.. هذه الفضيحة، وهذا التعدي على رفاة المشاهدين الفكرية تؤكدان الرغبة في تدمير "المسرح الاستهلاكي" وليس الرغبة في الإساءة لجمهوره.

لم يلتبس الأمر على الجمهور أبداً. هناك نقاد أعلنوا عداؤهم لذلك المسرح مثل جان غوتيه وروبير كمب، أما جاك لومارشان فإنه يروي بطريقة ساخرة العروض الأولى لمسرحية "المغنية للصلعاء": "سأذكر دائماً بمتعة، الطريقة التي قوبلت فيها "المغنية للصلعاء" عندما عرضت في أيار ١٩٥٠ على مسرح نوكتامبول. همسات الضيق، النغمة العفوية، والاستهزاء. لقد أمضيت أمسية مسلية فريدة لم يزددها تدمر قسم من وجهاء الحاضرين، وضحكاتهم الساخرة إلا متعة وظرافة"^(١).

^١ مقدمة (الممسوسون) لدستوفسكي، اقتباس كاكيا فيالا، ونيكو لاباتاي، منشورات أميل - بول ١٩٥٩.
^٢ مسرح، جزء ١، المقدمة.

بعد مسرحية "المغنية الصلعاء" كانت مسرحيات: الدرس، الكراسي، ضحايا الواجب، عدواناً مشابهاً على الجمهور، لم تلق من النجاح أكثر مما لقيت "المغنية الصلعاء". "هناك أناس يربكهم ذكاؤهم، يشعرون به في داخلهم مثل ثعلب صغير [...] دُعي الوجهاء لحضور مسرحية الدرس. جاؤوا حاملين ثعلباً في جيوبهم، لقد بين لهم ثعلبهم - لقد أدرك أخيراً - أنه منذ اللحظة التي تسمى فيها مسرحية لأوجين يونسكو باسم الدرس فذلك يعني أن موضوعها يمكن أن يدور عن أي شيء [إلا للتعليم ...] حول أي شيء تدور أحداث المسرحية؟ كان الثعلب يتساءل عند الخروج من المسرح - حسناً، إنها تدور حول الدرس، كما اضطر الوجهاء للاعتراف: وهذا لم يخف شيئاً من ضيقهم [...] الكراسي، ثم ضحايا الواجب، طرحنا كل شيء للنقاش من جديد. هناك كراسي حقيقية في مسرحية الكراسي، لكن ليس هناك رجال إطفاء احترقوا أحياء في مسرحية ضحايا الواجب"^(١).

هذا العداء بين الكاتب والجمهور لم يكن سمة خاصة بيونسكو، ففي تلك الفترة، في مسارح الأكاديمية في الحي اللاتيني، وفي المسارح التجريبية في المقاطعات، كانت فرق من الشباب تقدم مسرحيات لكاتب جدد أو غير مشهورين مثل: أوديبرتي، جيني، آدموف، شحادة، فوتيه، بيكت، بريخت... لقد جذد هؤلاء الكتاب الشباب أشكال التعبير المسرحي، وهاجموا مسارح التسلية، وخلقوا ذوقاً جديداً. لقد تعرضوا للقطيعة والسخرية عام ١٩٥٠ كما أن مسرحياتهم عرضت تحت صيحات الاستنكار والاستهزاء، لكنهم فرضوا وجودهم في أقل من عشر سنين، وأصبحوا الآن كلاسيكيين بلا جدال، ولهم جمهورهم الوديع المسالم المحترم، المرتبك قليلاً أمام لوحات وأقوال ومشاهد تنتزع من نفسه بواسطة الضحك والحلم.

هذا التطور، الذي رأيناه لدى الجمهور والنقاد، انتقل من اللامبالاة إلى العداوة ومن صغير الاستنكار إلى تضعيف الاستحسان هذا التطور، يتحدث عنه يونسكو بسخرية في إحدى رسائله عام ١٩٥٧: "منذ سبع سنوات عرضت أولى مسرحياتي في باريس، لقد كانت فشلاً بسيطاً أو فضيحة محدودة. تضائل الفشل في مسرحيتي الثانية وخفت الفضيحة وفي عام ١٩٥٢، مع مسرحية الكراسي، بدأ النجاح يزداد. كان ثمانية أشخاص غاضبين يحضرون المسرحية كل ليلة، لكن الضجة التي أحدثتها هذه المسرحية وصلت إلى أسماع عدد كبير في باريس، وفرنسا، وعبرت الحدود الألمانية. وفي مسرحياتي الثالثة والرابعة

^١ جاك لوملشان، مقدمة لمسرح يونسكو، الجزء الأول، ص ١٠.

والخامسة.. والثامنة كان الفشل يتضخم، وينتقل بخطى عملاقة فعبرت الاحتجاجات بحر المانش واجتازت جبال البرينه، وسُمت في ألمانيا، ووصلت إلى إسبانيا وإيطاليا وركبت السفينة إلى انكلترا. هل تتحول الكمية إلى نوعية؟ أعتقد ذلك إذ أن عشر حالات من الفشل أصبحت الآن نجاحاً، وإذا ما استمر الفشل فذلك يعني النجاح حقاً^(١).

كانت الفضيحة تكبر وتنتشر، إذ بعد الصالات الصغيرة مثل نوكتامبول، تياتر دو بوش - مونبارناس (الدرس ١٩٥١) نوفولانكري (الكراسي ١٩٥٢) تياتر دو كارتيه لاتان (ضحايا الواجب ١٩٥٣) تياتر دو بابلون (اميديه ١٩٥٤) لاموشيت (جاك ١٩٥٥)، صارت مسرحيات يونسكو تعرض على ستيديو شانزلزيه (مسرحية الما ١٩٥٦) تياتر الاليناس فرانسيز (المستأجر الجديد ١٩٥٧ على تياتر ريكاميه (قاتل بلا أجر ١٩٥٩). لقد أعيد عرض هذه المسرحيات وترجمت، وقُدمت في انكلترا وإيطاليا وفنلندا، وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا ورومانيا.. كما أن بعضها - المستأجر الجديد، مشهد رباعي، الكركدن - عُرض في الخارج قبل أن يُعرض في فرنسا. أصبح يونسكو كاتباً مسرحياً ذا شهرة عالمية.

مسرحيات قصيرة، استكشاث، مسرحيات متعددة الفصول، راحت تتوالى. كان يونسكو يطرح كل مرة مسائل مختلفة ويكتشف مواضيع جديدة، وينوع أساليبه، وفي الوقت نفسه كان يكتب قصصاً قصيرة يستلهمها من أحلامه: ضحية الواجب (١٩٥٢) الراية (دون تاريخ) صورة الكولونيل (١٩٥٥) الطين (١٩٥٦) الكركدن (١٩٥٧) الماشي في الهواء (١٩٦١)^(١).

لقد استخدمت تلك القصص، عدا الطين، أرضية لمسرحيات. والمقارنة بين هذه القصص القصيرة وما يقابلها على المسرح تسمح لنا بتحليل ومتابعة آلية الابداع لدى يونسكو، كما تسمح بدراسة تحولات التجربة الحياتية، ومسرحة الصور التي يراها في الحلم وتشكل النزعة الرمزية لديه.

^١ ملاحظات وملاحظات مضادة فكرة من رسالة.

^٢ جُمعت هذه القصص القصيرة مع فترات من يومياته (ربيع ١٩٣٩) في مجلد واحد تحت عنوان "صورة الكولونيل" (١٩٦٢).

المؤلف ومشاكله

لا يتم نجاح الكاتب سريعاً بلا مخاطر. النجاح، الدافع إلى الاطراء دائماً، يقضي على القلق، ويسمح بفتح الشكوك؛ لكن المجد يرسم الشخصية ويجعلها الجمهور يريد الاستجابة إلى توقعاته، بينما يفتش النقاد عن استمرارية النجاح ودوامه. أما بالنسبة للمؤلف، فقد تكون المحاولة عظيمة لكي يتقن رسم خطوط قناعه ولا يبذل فيها شيئاً.

تدور حول يونسكو حرب كلامية عنيفة فاندريه بروتون وبنجامان بيرييه يكتشفان لديه المسرح السريالي الذي حلما به: "هذا ما أردنا تحقيقه منذ عشرين عاماً" أما جاك لومارشان فيعبر عن إعجابه: "يضم مسرح لاهوشيت بين حناياه ما يمكن أن يتجاوز مسارح باريس كلها" (١) أما جان - جاك غوتييه فيدنيه: "لا أعتقد أن السيد يونسكو نابغة أو شاعر؟ لا أعتقد أن السيد يونسكو مؤلف ذو شأن، ولا أعتقد أن السيد يونسكو كاتب مسرحي، ولا أعتقد أن السيد يونسكو مفكر أومعته، ولا أعتقد أن لدى السيد يونسكو ما يقوله، أعتقد أن السيد يونسكو مهرج (لا أريد أن أعتقد عكس ذلك لأن الأمر يندو محزناً جداً) لأنه مخادع وهو بالتالي هازيء" (٢).

بين الحماس ليونسكو والنفمة عليه، حاول النقد الصحفي أن يحدد أصالة يونسكو، يشرح، يبين، يحصر، يعنون بتعابير موجزة قاطعة. شعر يونسكو أنه محاصر، وأنه وقع في الفخ، فثار وتمرد. يقول معترضاً في مقدمة كتابه ملاحظات وملاحظات مضادة: "لقد ناضلت لإنقاذ حريتي الفكرية وحريتي ككاتب". يمكن الاعتقاد أيضاً أنه شعر أحياناً بضرورة النظر إلى أعماله عن بعد، وضرورة الرؤية الواضحة في بحثه الذي لم يبل رضاه دائماً. لدى الكاتب الحقيقي يتلوه التفكير والابداع، وتتحد الرؤية النقدية الواضحة مع الحماس (٣). لقد سمحت المقالات والمحاضرات والمقابلات الحقيقية والوهمية (وهذا

^١ النيجارو الأبي تشرين الأول ١٩٥٢.

^٢ النيجارو ١٦ تشرين الأول ١٩٥٥.

^٣ يقول بودلير في دراسة عن ريتشار واغز (في كتابه عن الفن الرومانسي: "كل الشعراء العظماء يصبحون بشكل طبيعي وحاسم نقاداً، إنني أرثي للشعراء الذين تسيروهم السليقة وحدها، أعتقد أنهم غير مكتملين، ينقصهم شيء ما، ففي الحياة الفكرية لدى النوع الأول تحدث أزمة حتمية عندما يحاولون تقييم أنفسهم، واكتشاف القوانين الداخلية التي أبدعوا بمقتضاها" وقد قال الرأي نفسه جميع العظماء من كتاب وشعراء وروائيين ومسرحيين.

مجال آخر من نشاط نقدي بدأه في رومانيا منذ عشرين سنة) ليونسكو أن يردّ على الهجمات وأن ينكر بعض التفسيرات وأن يطعن في إخراج بعض مسرحياته المعبرة عنه.

لقد ساعده ذلك على تعميق معرفته، وفهم نفسه، ورد في كتابه "تجربة المسرح": "لا تشكل الآراء التي سبق وأعلنتها نظرية في الفن المسرحي، لم تسبق تلك الأفكار تجربتي الشخصية في المسرح بل جاءت بعدها وقد ولدت تلك الأفكار من إمعان النظر في أعمالي، سواء كانت تلك الأعمال جيدة أم رديئة.. لقد ولدت تلك الأفكار بعد فوات الأوان. ليس لدي أفكار قبل كتابة المسرحية لكنها تأتي بمجرد البدء في الكتابة أو خلال توقفي عنها".

هذا نقد يهاجم ويبعث. يدافع يونسكو عن نفسه فيقول: "أحياناً وفي لحظة غير متوقعة أبداً، تبدأ إحدى الشخصيات في طرح نظرية"^(١) مع ذلك فإن الهجوم المعاكس (كما في الحرب الحقيقية) اقتضى أن يوضع النقد في مواقع متقابلة، يناقض بعضهم بعضاً، أو أن يتناقض الناقد مع نفسه وذلك بتجميع الأحكام والآراء من فترات زمنية مختلفة"^(٢).

تشكل هذه التناقضات حواراً إلى حدّ ما، فلم يرفض يونسكو هذا الحوار فعرض نقاده على المسرح كما عرض نفسه معهم. بعد موليير وجيروودو، كتب يونسكو "مسرحية صغيرة" وعرض فيها حجج وآراء منتقديه، إنها "الما" عام ١٩٥٥.

ذلك الانفعال الذي كتب به تلك المجادلات أقلق يونسكو أحياناً. هل كان يأخذ نفسه على محمل الجد؟ أم عليه أن يكتشف باستمرار أنه كان كذلك؟ "لقد سخرت من نفسي باستمرار فيما أكتب. يجب الاعتراف أنني تخليت عن ذلك بالتدريج وأنني بدأت أكتب بجديّة أكثر فأكثر عندما أتحدث عن أفعالي.. لقد انتهى بي المطاف إلى الوقوع في نوع من المصيدة"^(٣).

لم يكن الأمر فحاً أبداً إنه نوع من الوعي لدى يونسكو كلام يريد أن يقوله: لقد تصدّى للجمهور دون شفقة ودون تنازل؛ لكي يرسم أشكالاً مسرحية جديدة.. لقد حول مسرحه إلى عملية بحث دائم، كل قلق يُدرس يكشف قلقاً آخر، وكل شكل يطرح الأشكال الأخرى للمناقشة من جديد. من مسرحية إلى أخرى، تابع

^١ كما في مسرحية ضحايا الواجب، هي مسرحية صغير من الشعر.

^٢ نقدي وأنا مجلة آر، ٢٢ شباط ١٩٥٦.

^٣ ملاحظات وملاحظات مضادة.

يونسكو تجواله في الغابة اللامحدودة وقد سيطرت عليه تلك الصورة الناقصة. المسافة طويلة بين الهزء بالمرسح باعتباره أنعاباً نارية في مسرحية المغنية الصلحاء، والقضايا المعقّدة التي طرحها في مسرحية ضحايا الواجب، كما أن شبكة الموضوعات التي تؤلف نسيج المسرح لم تتوقف عن الاتساع والتفرّع. مشاكل الرجل، الزوجين، الجماعة، تحدّد التساؤل الكبير حول الوضع الإنساني: اميديه، قاتل بلا أجر، الكركدن، تسلك طريق هذا البحث الدائم. الحوار مع النقد، والتأمل الذاتي، دفعاه إلى استكشافات جديدة.

تكریس :

لاقي العرض الأول لمسرحية الكركدن على مسرح أوديون - تياتر بتاربخ ٢٣ كانون الثاني من عام ١٩٦٦ نجاحاً عظيماً. لقد رأى يونسكو حلماً من أحلام طفولته يتحقّق: بعد عرض مسرحية البؤساء على الأوديون: كان المشاهد ينتهي بدهشة جان فالجان: أنا رجل بائس، ومنذ ذلك اليوم بدا لي الأوديون المسرح الحقيقي الوحيد، المسرح الذي أودّ أن أقدم مسرحياتي عليه^(١).

خلال عشر سنوات قطع يونسكو طريق النجاح دون أن يحصر نفسه في قالب معين بحجة الوفاء للنفس أو للجمهور، ومن مسرحية إلى أخرى كان يغيّر نظرتة ويحدّل طرائقه.

ابتهج أصدقاؤه لنجاحه لكنهم قلقوا عليه: ألم ينكر نفسه أثناء انتقاله من المسارح التجريبية إلى المسارح الرسمية؟ ألم يفرق تمرّده العنيف أخيراً في توافه نزعة "أنسية"^(٢) مبتذلة مهترئة؟ كان البعض يعتقد ذلك وكانت مدائحهم تأخذ طابع التعازي: "إن أمتسلم أبداً، صرخ بطل مسرحية الكركدن في وجه مجادلات النزعة التوفيقية. فيما يتعلّق بالمؤلف فالاستسلام حقيقة واقعة للأسف... [..] لننطق إذن. لقد كان موقفاً صحيحاً ومطلوباً أن تكرّس باريس ومعها أوروبا كلها الشاعر الحقيقي الذي كتب المغنية الصلحاء، لكن إنساناً ورعاً مندفعاً من عصر الدياميس له الحق في أن يحزن لأن يونسكو بعد أن اكتشف تفاهة الابتذال سقط وهو يتابع طريقه في ابتذال التفاهة، وفي الرمزية الوعظية التي كان يلعبها"^(٣) "كيف حدث أن أوائل المخلصين راحوا يتكبرون له ويتهمون

^١ حوار مع بول - لوي ميثيون، صدر المسرح عدد ٣٧٢.

^٢ أنسية: humanisme: مذهب يتخذ من الإنسان في حياته الواقعية موضوعاً له.

^٣ برتران بورلو - ولبش، لوموند، كانون الثاني ١٩٦٠.

الرجل العظيم بالانتهازية؟^(٢).

كان يونسكو يحاسب نفسه، فسيطرت على مؤلفاته أزمة عنيفة. لقد عاد إلى الاستكشافات والمسرحيات القصيرة ذات الفصل الواحد التي تعالج فكرة واحدة، وتستخدم أسلوباً واحداً وتتناول المسائل التي تتعلق بالوجود: مشهد رباعي (١٩٥٩) تعلّم المشي (١٩٦٠) هذيان ثنائي (١٩٦٢) الثغرة (١٩٦٢)، البيضة المسلوقة، فيما بعد.

في الوقت نفسه كان يعمّق أفكاره النظرية، ويوضّح تصوّره لماهية المسرح، ويحدّد أسلوبه المسرحي من خلال محاضرات ومقالات شاملة متنوعة: تجربة المسرح (١٩٥٨) مقال عن الطليعة (١٩٥٩) المؤلف ومشاكله (١٩٦٠)، جمعها مع شهادات أخرى، ومقدمات، ورسائل، ومقابلات، في كتاب "ملاحظات وملاحظات مضادة".

هذه الدراسات والتحليلات قادت يونسكو إلى الاعتراف بأن "المسرح موجود في أعماقه" وبأنه يكتب "لكي يفهم الحياة والموت" وبأن سبره لحالات القلق أوصله إلى الخوف والبحث عن مكان آخر. استمر إبداعه مع مسرحيات "الماشى في الهواء" (١٩٦٢)، "الملك يموت" (١٩٦٢) "العطش والجوع" (١٩٦٤).

أما وقد غدا كلاسيكياً، يصفق له الجمهور الذي أوجده بنفسه، فقد غزا الكوميدي فرانسيز بمسرحيته الأخيرة، التي توجّتها جائزة موناكو (١٩٦٩)، وربما لم يعد هناك فاصل كبير بين مسرحية الكركدن المعروضة على مسرح الأوديون والأسود المعروضة على مسرح الانستيتو^(١).

في محاوراته مع كلود بونغوا (١٩٦٦) يحلل يونسكو من جديد أفكار مسرحه وآفاق هذا المسرح في مواجهة الأدب. لختصر يونسكو مذكراته في مجلدين، - يوميات في فئات (١٩٦٧)، حاضر ماض حاضر (١٩٦٩) يحددان لقرائه ملامح صورة، وذكريات هواجس وأوهام؛ أما كتابه "اكتشافات" (١٩٦٩) فإنه يرسم مرة أخرى "دروب الإبداع" كما كتب جزءاً ثالثاً من يومياته. أية وجهة ستتخذها كتاباته؟ تشير مسرحياته الأخيرة إلى اهتمام ملتحّ بمسائل

^١ أندريه ميغون، أبريل، نيسان ١٩٦٠.

^٢ أولاً، ففي ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٠، وبعد عشر سنوات، يوماً بعد يوم من المعرض الأول لمسرحية الكركدن، انتخب يونسكو عضواً في الأكاديمية الفرنسية ليشغل مقعد جان بولان... "هذا يساعد، إنه مهدى، خفيف وليس له مضاعفات" كما صرح لكلود سارون.

انطولوجية، ويوحى كتابه "يوميات في فتات" بشكل لا معقول باحتمالات الانقراض عن الكتابة: "قلت لنفسى منذ مدة ليست قصيرة إن علي أن أبدأ بكتابة كتابي الحقيقي. في الواقع، ليس المسرح مجال إبداعى الحقيقى".^(١) كتب حكايات للأطفال، وفي كتابه حاضر ماض حاضر^(٢) اعترف بحزن يعود إلى أيام المراهقة كأنه نصل سكين في العنق: "إن أنسى أبداً، لا شر هناك ولا خير، لم يكونوا (والده وعائلة والده) أخياراً ولا أشراراً، كانوا أغبياء. لقد أخطأوا كثيراً حتى أفسدوا حياتي كلها رغم ما يحكى عن النجاح. لقد وصلت أنا أيضاً، إلى نهاية النجاح. على كل حال، بالنجاح أو دونه، كل أشكال الحياة فاسدة"^(٣).

رغم ذلك، عندما سئل عن مسرحية جديدة كان ينبغي أن تحمل اسم "الطاعون" ردّ يونسكو موضحاً: "منذ زمن وأنا أكتب "الطاعون" التي لن يكون اسمها الطاعون بل "انتصار الموت". لن يكون أبطال المسرحية الأشخاص أنفسهم، وسيكون الحدث مختلفاً، ولن تجري الأحداث في الزمان والمكان إياهما، أما ما تبقى فلن يطرا عليه أي تعديل"^(٤).

الطبيعة هي الخطر، البراكين الثائرة

العواصف، الأعاصير، الهاويات،

الموت، إنها شرط الوجود الذي

لا يمكن قبوله، إنها الجحيم تقريباً.

(يوميات في فتات)

٣- ضمير ممزق

ثياب تنكّرية

"كنت جميلاً عندما كنت صغيراً في العاشرة أو الثانية عشرة من عمري، كنت أعرف ذلك وكان الناس يقولونه لي.. عندما كنت أرثدي ثيابي الجديدة لأذهب إلى صلاة الأحد، كنت أدرك أن الناس كلهم ينظرون إليّ وأنا أجتاز

^١ ص ٣٧.

^٢ الحكاية رقم (١) للأطفال الذين لم يبلغوا الثالثة.

^٣ لفرة من رسالة بتاريخ ١ نيسان ١٩٦٩، في الحقيقة كان العنوان النهائي لعبة القتل.

البلدة [...] في سن الثالثة عشرة بدأت أتغير فجأة. وفي الرابعة عشرة لم تعد بشرتي طرية صافية، وفقدت عينايا بريقهما؛ تضخم أنفي، وازدادت سماكة شفتي، لقد أصبحت بشعاً، كالآخرين^(٢).

إن ما يصدم محاور يونسكو، هذه الأيام، هي حيوية ذلك الوجه النير أو المكفهر حسب المشاعر المتناقضة، وتلك الثنية الساخرة على الشفتين، والحاجبات العاليان، والنظرة الصافية المندهشة من مشهد هذا العالم التافه.

يتحدث نيكولا باتاي عن لقائه الأول مع يونسكو فيقول: "تقتضي الأصول أن أنقل الانطباع الذي تركه لدي. حسناً، لكي أساير المألوف أقول إنه بدا لي مثل السيد بيكوك"^(٣).

لقد حمل عبر حياته نوعاً من البساطة المقصودة، وقد مثل بصدق شخصية يذكرها جان كوت في مهرجان سبوليت عام ١٩٥٩: "الثلاثي يونسكو": أوجين، وزوجته، وابنته ماري - فرانس التي بلغت الثامنة عشرة، هم مسرح يونسكو بشكل مطلق، رائع، عظيم. الزوجة عملية، منهمكة، مدبرة. ماري - فرانس مثقفة، حاملة، متفازيكية، حساسة، وكانت تنظر إلى أبيها بإعجاب. أما أوجين فكان يسلي الناس حوله ويسلي نفسه من خلال التغيير الدائم لمخططاته. يريد أن يسافر غداً إلى أورفيتو وبنشيو، لكنه يريد أن يسافر إلى سويسرا وإيرلندا، يريد أن يكون خلال يومين في بولونيا والمكسيك وفلسطين. لا يريد أن يكون غداً في المكسيك، وبعد غد في أورفيتو. ما يكاد يطلب السباغيتي حتى يستدعي الخادم ليستبدلها بتورتنللي، لكن ماري - فرانس طلبت جانبون فينادي أوجين الخادم ليحضر له شريحة أيضاً. إنه غير واع، يلعب بلا وعيه بوعي تام، مكثفياً بطريقة طفولية، ومقتنعاً أن مسرح يونسكو هو المسرح الوحيد في العالم.. وربما مسرح شكسبير أيضاً - هذا من قبيل التعاطف معي - إنه أكثر من يسخر من غطرسته الطفولية: أوجين، إنه الأكثر يونسكية من بين جميع الشخصيات التي خلقها يونسكو"^(٤).

هذه البراءة الزائفة وسيلة لحماية نفسه، وسيلة لكي لا يستهلكه دوره، تشهد على ذلك الحكاية الممتعة التي رواها رونييه دو أبالديا عن إقامة يونسكو في

^٢ ربيع ١٩٣٩، ص ١٧٢.

^٣ دلائل القبول عدد ١٥ تاريخ شباط ١٩٥٩.

^٤ براين ١٩٥٩، عرضت مسرحية "مشهد رباعي" في مهرجان سبوليتا. كتب جان كوت دراسة ملأى بالإحاديث "شكسبير، كهلنا المعاصر" لمجموعة (ماريو أوفنر سبيته).

سريزي^(٦). أراد يونسكو أن يشارك في إحدى المناقشات فأمضى ليلة بيضاء في إعداد مداخلته: "عندما وصلنا إلى المكتبة، المكان المخصص لأولئك "السادة"، جلسنا نتلاطف بانتظار مداخلته، التي لا يمكن إلا أن تكون رائعة، ظهر يونسكو مثل يتيم ضخم، كبير سريعاً، يبحث عن عقل وعن أبوة مشكوك فيها. لمحت قطرات من العرق، متجمدة، حائرة في أي اتجاه تسيل، وقد أسرتهما تجاعيد وجهه. أية حفاوة لم نحطه بها؟ لقد كنا من كل قلوبنا مع هذا المؤلف النكرة، الذي يكدس بعناد، كل مساء، الكراسي على مسرح لانكري، أمام مئات من المقاعد الخالية. أعطاه الرئيس الكلام في الحال فخيم على المكان صمت ثقيل لا يتخلله سوى احتكاك صنانير مدام هورغون التي تحيك الصوف وقد استسلمت لعادة بورغونية قديمة.

"تغيرت ملامح يونسكو شيئاً فشيئاً حتى صار من الصعب التعرف عليه. فتش جيوبه، أخرج محفظته، ومندبله، وربطة عنق، وقف، فحص مقعده، جلس، رفع بنطاله، ولم يجد بعد أوراقه [...]."

"خلال حوالي عشر دقائق، تملكه ومواس الأوراق، التي وجدها أخيراً، وحاول ترتيبها. استغرق ذلك عدة قرون. توصل أخيراً إلى نتيجة غامضة، ففتح فمه، وبصوت ضعيف لا يُسمع على بعد ثلاثة أمتار، صوت من درجة الصفر:

— ما أريد أن أقوله لكم هو أنه ليس لدي ما أقوله لكم على الإطلاق..

"طلبنا منه أن يُعيد عدة مرات.. توقفت مدام هورغون عن حياكتها وقالت بصوت كالرعد:

— هذا، هذا عجيب! عادة، كل من يأتي إلى هذا المكان لديه شيء ما يقوله، أو ليس لديه شيء يقوله، فإذا لم يكن لديه شيء يقوله فهو ليس هنا. هذا، هذا عجيب! هذا مبتكر!

"أما جاك مادول الذي لم يسمح له كرم نفسه بأن يتنازل عن أي شيء يتعلق بالثقافة، فقد هرع لنجدة ذلك المعذب:

— إن صديقنا يونسكو يطرح هنا مسألة هامة جداً، سأدعوها، لو سمحتم، مسألة ما يقال وما لا يقال [...].

"احتدمت المناقشات، واختلطت، وازدادت غنى [...]. وبينما كانت تزداد

^٦ سريزي لاسال، مركز ثقافي في قرب سان لو في منطقة الماشن، نظمت فيه "عشرة أيام" حول موضوعات متنوعة، أقيمت الأيام المخصصة للمسرح عام ١٩٥٣.

حرارة العقول، وتبلغ درجة السمو، كان يونسكو ينام في مقعده، وقد جمده ملاك النوم. لم يكن البحر يبعد عن ذلك المكان أكثر من ثلاثين كيلومتراً^(١).

غير أن ذلك الوجه المرهق، وذلك العرق البارد، وذلك القلق الكبير تكتسب معنى آخر عندما نقرأ تحت السطر الأخير من مسرحية "اميديه": "سريزي لاسال، ١٩٥٣". هناك إذن كتب يونسكو أول مسرحية من ثلاثة فصول.

لعبة الألفعة تسمح بعدم الذوبان في الدور الاجتماعي وتيسر للمرء البقاء دائماً "غريباً" إلى حد ما: "الممل في المجتمع هو أن الشخص يذوب في دوره، أو بشكل آخر، فإن الشخص مدعو للتطابق تماماً مع دوره [..] الأمر المزعج الذي يفقد المرء إنسانيته، أن ينام مساعد في الجيش في زيهِ العسكري"^(٢). لقد رفض يونسكو أن يرتدي زيّاً محدداً.. "كاتب طليعي"، لم يقبل أن تلصق عليه بطاقة من هذا النوع أو ذاك؛ لكنه يمكن أن يصبح، حسب الحاجة، هذا أو ذاك "أن يكون هنا وهناك". "لم تشغفني الكوميديا الإنسانية ما فيه الكفاية، فأنا لست بكياني كله من هذا العالم"^(٣).

ارتداء القناع طريقة أيضاً لاستعادة الثقة بالنفس، لتهئية المخاوف، لطرد الشياطين، لكتب بعض النداءات العنيفة النابعة من الأعماق: "أعماقي هي الجحيم، إنني أعرف الآن ما هو الجحيم"^(٤).

تعاقب

لهذا السبب فإن الوجه الحقيقي ليونسكو لا يوجد في تلك الصورة الزائفة، بل في ذلك البوح المقلع أو العنيف الذي نجده في يومياته، أو في تلك الذكريات التي نعثر عليها في مسرحياته وقصصه القصيرة. ولم أستطع قبول هذه الحياة، أو قبول نفسي^(٥). مؤلفاته كلها تعبّر عن هذا الغموض الذي يلفّ تجربته الوجودية، وتعاقب صعوبة الوجود وصعوبة الفرح.

مهما بعد يونسكو في العودة إلى ذكرياته، يجد الفوضى والاضطراب؛ يجد

^١ دلائل الفصول: ١٩٥٩، لكن النص المتعلق بمشاركة يونسكو الفعالة في ملتقى سريزي موجود في كتاب ملاحظات وملاحظات مضادة

^٢ محاورات مع كلود يونفوا ص ١٧.

^٣ يوميات في ثلث ص ٤٤، ٢١٢.

^٤ يوميات في ثلث ص ٤٤، ٢١٢.

^٥ المصدر السابق ص ٢٨.

الإحساس أنه يعيش في عالم معادٍ أو لا مبالٍ، "عالم من الطيور الجارحة": "عندما كنت في الخامسة، كما أظن، كنت في دار للأطفال غير بعيدة عن باريس [..] أمضيت في هذه المؤسسة عدة أشهر، وبما أنني كنت بعيداً عن أمي، فقد كنت حزيناً جداً. لم أعتد أبداً الانفصال عن أمي ولا النوم في مهجع مشترك، ولا قاعة الطعام، ولا جود الآخرين العدواني المرفوض [..] في سن العشرين، عند تأدية الخدمة الإلزامية، وجدت ذلك كله من جديد: المهاجع العارية المطروشة بالكلس، وساحة سجن فسيحة، ورائحة المطهرات المرعبة. كانت حالتي هنا أسوأ مما كانت عليه وأنا في الخامسة"^(١).

هذا القلق مرتبط بشعور بالخيبة: إخفاق الرغبة، خيبة الأمل والأحلام، فالنجاح، والارتياح العارض، وذويوع الصيت، لم تؤد إلا إلى نسيان سريع، دون أن تردم الهاوية الداخلية، دون أن "تحمل العزاء عن المفاجعة النابعة من إحساس بالضياح في هذا العالم المحكوم عليه بالموت"^(٢).

"حالات الرضى التي بحثت عنها - وقد وجدتتها - لملء حياة، وفراغ، وحينئذ، نجحت أحياناً في إخفاء ذلك القلق الوجودي. لقد سلّتي، لكنها غير قادرة على فعل ذلك مرة أخرى. لقد بدا لي دائماً أن الآلام والأحزان والفشل حقيقية أكثر من النجاحات والأفراح. حاولت دائماً أن أعيش لكنني مررت بجانب الحياة ولم ألتق بها، أعتقد أن هذا ما تشعر به غالبية الناس. لم أعرف كيف أنسى نفسي. لكي أنسى نفسي يجب أن أنسى ليس موتي فحسب، بل أن أنسى أن أحبابي يموتون وأن للعالم نهاية. فكرة نهاية العالم تثقلني وتغيظني. الحياة هي الشقاء"^(٣).

في قلب هذا القلق وجد يونسكو صورة واحدة، وجد وجه أمه الحزين، ووجد وحدته التعيسة أثناء الحرب، وخاصة مضاعفات تلك الجراح التي أصيب بها في طفولته الأولى. نراه في يومياته يتردد في الحديث عن تلك الذكريات: "لا أدري إن كان عليّ ذكر ذلك"، ورغم ذلك فإن تلك الطفولة حددت نفسيته منذ بداية تفتح الوعي لديه: "إذا كنت كما أنا ولست بشكل آخر، فهذا كله، أو جلّه، عائد إلى ذلك الحادث الأساسي. لا أدري لماذا، لكن ذلك الحادث حدّد موقعي من أهلي، كما أنه رسّخ الكراهية التي أكنّها للمجتمع". إنها ذكرى خلاف نشب بين

^١ المصدر السابق ص ٢٨، ١٧٢.

^٢ المصدر السابق ص ٢٨، ١٧٢.

^٣ حاضِر ماضٍ حاضِر ص ٢٢ وما بعدها.

والديه: "من الصعب أن نعرف من هو الألعوبة في يد الآخر، الرجل أم المرأة، غالباً ما تكون الضحية الظاهرية أقوى من الجالد الظاهري؛ لكن الصعب، أن يخلص المرء نفسه في مثل تلك المواقف الحساسة. لقد ضعت فيها". كان عمره آنذاك أربعة أعوام. لقد شهد شجاراً بين والديه حاولت والدته الانتحار بعده إذ شربت قارورة صغيرة من صبغة اليود. "اليوم، وبعد سنين، يبدو لي ذلك المشهد مضحكاً. من المحتمل أن والدتي لم تنو الانتحار حقاً. كانت تعرف أن والذي سيمنعها من تحقيق ذلك. انحفر المشهد في ذاكرتي ولم يستطع الوعي أن ينسيني الرعب الذي سببه لي آنذاك. لقد رسخ هذا الخلاف العائلي إحساسي بالشقاء، وأكد لي أننا لا نستطيع أن نكون سعداء".

هناك أيضاً السعادة التي عرفها في لاشابيل أنتونيز، لكن هذا الفردوس ضاع إلى الأبد "كم مرة، كم مرة منذ ذلك الحين" (١). هناك أيضاً لحظات السعادة العظيمة، هناك التجربة المطلقة للفرح: "كان يحصل لي سابقاً أن أشعر أنني امتلأت غبطة وحبوراً.. كان يخيل لي في البداية أن كل فكرة، وكل حقيقة قد فرغت من محتواها. بعد هذا الفراغ، بعد هذه الدوخة، كان يخيل لي أنني انتقلت إلى قلب الوجود الصافي، الوجود الذي لا يمكن التعبير عنه، كما لو أن الأشياء تحررت من كل تسمية تعسفية، تحررت من إطار لا يناسبها، إطار يحدها ويخفيها؛ كان يتلاشى كل قهر وتختفي كل ضرورة اجتماعية ومنطقية للتحديد والتنظيم [...] هذا كله، كيف أستطيع التعبير عنه، هذه الحالات من الوعي كانت تولد في محيط من نور [...] كان إدراك الوجود والاندهاش يتطابقان. كنت أستيقظ فجأة، ومن أي نوم! كنت أستيقظ على نور يشعّ الدلالات القديمة للأشياء وللزمن الذي كان وعيي يغفو فيه. لم تكن تلك الدهشة العظيمة التي تسيطر عليّ سوى عودة الوعي الذي كان لدي [...] هكذا إذن، فإذ، كانت المرحلة الأولى من هذه الحالة من الوعي تبدأ بتفريغ الأفكار من مضامينها فإن المرحلة الثانية، الأساسية كانت نوعاً من الامتلاء المتجمع فيما وراء التعاريف والتحديدات" (١).

لقد كشفت نشوة السعادة لدى يونسكو شذوذ الحياة الراهنة وأيقظت الإحساس بالروعة؛ لكن هذه الحالة نادرة. باختصار: "لقد استمر ذلك زمناً طويلاً جداً، لقد استمر عدة ثوانٍ" ثم بهتت الألوان ورجعت السماء عادية: القبح،

^١ ربيع ١٩٣٩ من ١٩٧٢.

^٢ حاضر ماض حاضر، ص ٢١٨.

والابتذال وستخا الحياة اليومية من جديد.

أخيراً، "لا شيء فظيع، وكل شيء فظيع، لا شيء هزلي، كل شيء مأساوي. لا شيء مأساوي، كل شيء هزلي. كل شيء حقيقي، غير حقيقي، مستحيل، معقول. لا معقول، كل شيء ثقيل، كل شيء خفيف" (١).

السقوط، الموت، المكان الآخر

يترجم هذا التعاقب الشعوري - للقلق والنشوة - الشعور بالسقوط، ففردوس الطفولة عالم دائم لا يتغير، تجري الحياة فيه في حاضر مطلق. كان يونسكو يشعر أنه المركز الثابت للأشياء، وذات يوم شعر أن قوة هائلة كذفته إلى المحيط، لقد فرّ العالم منه: "أركض وراء الأشياء، أركض مع الأشياء، أسيل" (٢). الزمن يمضي ومرور الزمن نوع من التقهقر: إنه السقوط، الأعياد تصبح كثيية، والأفراح تتلاشى عندما يستمتع بها المرء، وكل شيء موسوم بالإثم الخفي الذي لا سبب له. لم يعد العالم الكوكب الذي يتمتع بحضور شامل لا نهائي - بل أصبح متاهة. كل شيء فيها محدود قليل الاتساع: جدار يكشف عن جدار آخر ننطح برؤوسنا وندق عليه بقبضاتنا: "عالم جديد، عالم جديد دوماً، عالم دائم، عالم دائم الجدة، والشباب، هذا هو الفردوس. فالسرعة ليست جهنمية فحسب بل هي الجحيم ذاته، إنها التسارع في السقوط. كان الحاضر موجوداً، وكان هناك الزمن ولم يعد هناك لا حاضر ولا زمن، إنها متوالية هندسية في السقوط تكذفنا إلى العدم" (٣).

هراب الزمن، التقهقر، السقوط: تلك هي علامات الموت، موت العالم، موت الإنسان الذي ينقش على صفحة الوجود التساؤل العظيم: "ما جدوى ذلك؟ ما جدوى إذن أن نتألم، ما جدوى الكتابة؟ سيكون باستطاعتنا أن نحتمل أي شيء لو كنا خالدين" كما يقول بيرانجييه في مسرحية الماشي في الهواء. لكن الموت في كل مكان: الأمس يموت في اليوم، والذكريات تموت في النسيان، والإنسان يموت مع ذكرياته، يموت من ذكرياته، لا ينتهي المرء من الموت أبداً، إنه مرض لا شفاء منه.

لكن هل وسواس الموت دفع له أم رغبة فيه؟ الخوف من الموت عند

^١ من محاضرة ألقاها في مريزي، آب ١٩٥٢.

^٢ يوميات مفقطة، ص ٣٤.

^٣ يوميات في فترات ص ٣٤.

يونسكو يخفي رغبة غامضة. الموت قفزة في المجهول؛ ربما هدمت تلك الجدران التي ترتد عنها الصورة الملحاحة التي يذكرها في حكايات الأحلام في يومياته: الجدار الذي يفصله عن ذاته، الجدار الذي يقطع الإدراك الضيق للأفكار الشاملة، الجدار الذي يمثل حداً بين هنا وهناك^(٤). يتساءل يونسكو: ماذا يوجد خلف هذه الجدران؟ الفوضى، العدم، أم تسع القوة، الطاقة الكونية التي نشارك بها ونشارك فيها^(٥). هل الفردوس الذي وجدناه من جديد، واخترناه، دفعة واحدة؟ يمكن للغواية أن تكون قوية.

أين نجد الجواب؟ هل الدين رمز لشيء آخر؟ هل يخفي الدين أشياء أخرى؟ ليس هذا ما أريد قوله، لا أجرؤ على ذلك، لا أملك من الجرأة والإقدام ما يكفي لكي أؤمن^(٦). كان يونسكو يفكر كثيراً بشكوكه وتردده: "حاولت دائماً أن أؤمن بالله، لكنني لست ساذجاً بما يكفي، ولا ذكياً بما يكفي أيضاً، هناك بعض التصور الميتافيزيائي، لكنني لم أهدم الجسور تماماً بيني وبين الله"^(٧).

لكن الحقيقة لم توهب أبداً، والأرض الموعودة يجب أن تغزى.. لقد استلهم يوميات كافكا لوصف مسيرته الروحية في أمثال: "في اللحظة التي لم يكن عليّ فيها سوى القيام بخطوة واحدة لأعبر تلك النقطة التي لا عودة بعدها، كنت أتردد، ثم أصاب بدوار، ثم أشعر بحسرة ممزقة عظيمة، إنها نداء العالم أجمع الذي يمتصني: أصوات، أذرة طرية، الكون كله يغدو طرياً، ألوان لطيفة، ثم موسيقى، ثم هناء فرخاوة، فبوابر غبطة، وقوة طاغية لا توصف تشدني إلى الأسفل [٠٠] واليوم يُخيل لي أن المسيرة الضرورية هبوط وليست صعوداً كما من قبل. في هذه اللحظة كان يترأى لي أن عليّ أن أتخلص من ثياب رصاص لأستطيع الصعود، يُخيل لي اليوم أن عليّ أن أغوص في أعماق خائفة، وأن اجتازها"^(٨).

الزمن "في فتات"

اجتياز الأعماق للرد على نداءات القمم، ورفض الطريق المباشر الذي

^١ راجع مثلاً يوميات في فتات ص ١١٠-١١٧-١٩٧-٢١٢-٢٤٠...

^٢ حاضر. ماض حاضر، ص ٧٩.

^٣ يوميات في فتات ص ٩٩.

^٤ حاضر. ماض حاضر، ص ٥٩.

^٥ حاضر. ماض حاضر ص ٢٢٨.

يقضي بالتمسك بالحياة في لحظتها الراهنة. إرادة الحياة الفورية واقتناص
الملذات بلهفة، وامتلاك الخيرات، هذه كلها دروب مسدودة، لا يستطيع المرء أن
يشفي غليله من خلالها. "الحياة الحقيقية في مكان آخر".

الحياة الحقيقية تكمن في إدراك شامل للديمومة. "هناك في الأعماق، ينبوع
بارد، هو نور الطفولة"^(٢). هناك النشوة والألم متلازمان تلازم السمات والنظير،
هناك الذكريات كلها: بلدان، قارات، عوالم غرقت بصمت في الهاويات
اللانهاية"^(٣). يجب النزول إلى الهاوية، والبحث في العتمة، يجب "أن يكون
المرء مثل إنسان يدور في الظلام ومعه مصباح لا ينير سوى مساحة صغيرة
حوله تسمح له بالتقدم. تنتقل تلك الدائرة الصغيرة ويرجع كل ما عداها إلى أحلك
العتيمات من جديد. إدراك الحاضر وحده، إدراج لحظة الاستيقاظ هو وحده الذي
يضيء"^(٤).

الغوص في أعماق الذاكرة ممكن إذا اعتبرنا الماضي هو الحاضر،
ويكتسب هذا الغوص في أعماق الذاكرة خاصية الكشف إذا ما تجاوز البحث عن
الذكريات النوادر والحكايات الصغيرة وتوقف عند المغزى، عند علامات الوعي
واللاوعي، وإذا ما اكتشف المنطق السري للحياة. آنذاك يعطي الماضي معناه
للحاضر.

لتوضيح معنى الحياة، يُعتبر الحلم أحد المفاتيح التي يملكها يونسكو. يبعث
الحلم الماضي ويكشف دروب المستقبل. إنه عنصر كشف مزدوج: "إنني أعطي
للحلم أهمية عظيمة لأنه يعطيني رؤية أكثر دقة وأكثر نفاذاً للنفسي. أن أحلم،
يعني أن أفكر، وأن أفكر بطريقة أعمق وأصدق وأصح لأنني أكون كما لو
انطويت على نفسي.

الحلم نوع من التأمل والخشوع والاعتزال.. إنه فكرة في صورة.. أحياناً
يمتاز الحلم بطاقة قصوى على الكشف؛ يكون قاسياً عنيفاً؛ يمتاز بوضوح ساطع
مُبهر"^(١)

هنالك التفكير الواضح، المرتبط بالكائن الشامل، التفكير الصافي، الأكثر
صفاء من حالة اليقظة، غير أن الحلم هو "الطريق الملكي" لمعرفة الإنسان. إنه

^٢ ربيع ١٩٣٩ ص ٢٣٦.

^٣ المصدر السابق ص ٢٢٨.

^٤ حاضر ماض حاضر، ص ٤٠.

^١ محاورات مع كلود بونفوا ص ١٠.

يحسب حساب اللاوعي، أو بالأصح، يمثل ما يعتبره يونسكو الصورة الخفية للأشياء. "ليس هناك وعي ولا وعي بالمعنى الدقيق للكلمة. في الحلم، أكون واعياً، لكن المقصود نوع آخر من الوعي. في الحلم، إما أن أعرف أنني أحلم، وإما لا أعرف ذلك، فإذا كنت لا أعرف فهذا يعني على كل حال أن ما يبدو لي هو ما وراء الأشياء؛ أو غورها - أي أنسي أرى الأشياء من الداخل فيكون مجال الرؤية مختلفاً^(١)".

رغم ذلك، تهرب الحقيقة منا، ويبدو أنها تنتقل من الصحو إلى الحلم، ومن الحلم إلى "حلم الحلم": "الحلم أنه قيل لي: لن تستطيع الحصول على مفتاح الألغاز، ولن تستطيع إيجاد الجواب على تساؤلاتك كلها إلا بالحلم. يجب عليك إذن أن تحلم هذا الحلم. أنام إذن في الحلم وأحلم، في الحلم، أنني أحلم هذا الحلم الخالص الكاشف للأسرار، استيقظ في الحلم، أذكر، في الحلم، حلم الحلم؛ فأنا أعرف الآن، ويتمكنني فرح صافي عظيم. عند الاستيقاظ، الاستيقاظ الحقيقي، أتذكر جيداً أنني حلمت الحلم الكاشف للأسرار لكنني لا أذكر شيئاً عن مضمونه؛ وهكذا يهرب مني، من جديد، الحلم الذي يفسر كل شيء، حلم الحقيقة المطلقة"^(٢).

يقال هناك مستويان من الرقابة: رقابة في حياة اليقظة ترفض الرموز ورقابة في داخل الأحلام لا تسمح لها إلا بكشف جزء مما يمكنها كشفه؛ مما تريد كشفه، رقابة على الأحلام، هناك لا وعي في اللاوعي^(٣).

تركز الأهمية العظمى المعطاة للحلم على تصور أن الزمن لم يعد موجوداً. بالنسبة ليونسكو ليس هناك ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، تنفصل وتتحد في آن واحد؛ لكن هناك ديمومة تجري فيها كل الأزمنة معاً. الحاضر يحتويه الماضي، والماضي حاضر، والمستقبل مرسوم من قبل، إنها بنية مكانية للواقع تعيد التتابع الزمني المشتت: "لقد عرف علماء النفس منذ القدم الأحلام التي تنبئ بالمستقبل وتعرض الملامح بوضوح، أما في الغرب فلا أحد يؤمن بها لأن الأحداث، بالنسبة لنا، تجري في الزمن؛ أي أننا نتمتع بتفكير سببي. هناك قبل، وبعد، والثاني ناتج عن الأول. قبل، بعد، سببية، زمن. الغربيون لا يفهمون الشرقيين لأن الشرقيين يرون الأشياء في مجموعة من العلاقات المتبادلة،

^١ يوميت في ثنت، ص ٥٤.

^٢ يوميت في ثنت، ص ٢٣٩.

^٣ المصدر السابق ص ٢١١.

والمعاني! هذه طريقة أخرى في فهم العالم، وكل حقيقة ما هي سوى التفسير الذي يمكن أن نعطيهِ عن شيء ما، أو عن الأشياء. ولكي نقبل هذه الظواهر التي تبدو لنا شاذة، لا معقولة، يجب علينا إذن وبكل بساطة، أن نستبدل بالتفكير التاريخي، السببي تفكيراً مكانياً إنه تشكل مكاني، وليس زمنياً^(٢).

منذ ذلك الحين، وعلى هامش السيرة الذاتية، ظهرت أحداث مُعاشَّة يوماً بيوماً. إن عالماً بليقاع فكر مكاني تشكل في أعماق نفسه الحياة الحقَّة. من هنا، لم تعد التعاقبات متعارضة، والتعارضات أخذت تتكامل وتتسجم في حاضر مطلق. الذكريات ترتبط بالمستقبل، وأصبحت الأحلام ورموزها الجزء الواقعي الذي له معنى ومغزى، وتوهج الليل بالوضوح.

الوصول إلى حلم الأحلام، اكتشاف المعنى الأساسي، اجتياز الظلمات، الوصول إلى الكشف، لكن أين الطريق؟ وكيف نفهم؟

ظن يونسكو أن ذلك كله يتم عن طريق رفض المنهج المنطقي، فالمنطق آلية عقلية لا علاقة لها بالحياة. إنها تفتقد الواقع الذي لا تستطيع أن تحسب حسابه، ويمكن أن تصبح تلك الآلية، حسب الظروف، جنوناً وتصرف ضد الحياة. الحياة المفككة، الفوضوية ظاهرياً، يسيرها نظام آخر يجب معرفته؛ لذا يجب التخلي عن التفسير، والتمسك بعلاقات تعتمد على الأحلام باستخدام منهج وصفي غني بالتوريات: "معظم الناس، عندما يحاولون التحدث عن أحلامهم فإنهم يترجمونها، يفسرونها، يقولونها، يتدخلون فيها. الحلم حكاية أو موقف يجب أن تعرض بأكثر الأشكال وضوحاً أو أن توصف. علي العموم، يجب أن لا نروي الأحلام، يجب أن نحاول وصفها. الحلم ليس كلاماً، إنه صور" (١) إنه أسلوب قصصي، إنه طريق التحليل النفسي الذي "يطهر، وينقي، ويترد الأرواح الشريرة"^(٢) كما أنه طريق المسرح أيضاً حيث تصبح التجربة المعاشة خلقاً وإبداعاً.

"شيطان الأدب"

الكتابة بالتحديد، هي وصف الأشياء وذكر طموحات العالم الداخلي. إنها الابتعاد عن التفكير المنطقي وإمالة اللُحْم عن نظام جديد للقوضى. "هناك

^٢ المصدر السابق ص ١٨٨.

^١ يوميت في قنات، ص ٢٢٧.

^٢ المصدر السابق ص ٩٥.

لحظات يفكر المرء فيها بطريقة منسجمة، منفتحة، لحظات أمتلك فيها مجموعات من الصور الحرة الطليقة، لحظات أشعر فيها بمحرضات متنوعة للكتابة قد تتسجم وقد تتعارض. عندما أمر في مثل هذه الحالة القريبة من الفوضى، غالباً ما تكون هي تحرير اللحظة التي يجب أن أكتب فيها مسرحية: يجب أن تأخذ الفوضى شكلاً، وأن يخرج منها عالم واضح منسجم متماسك. على عكس ذلك، عندما أكتب دراسات، وأبحاثاً، ومقالات يسيطر عليّ انطباع أنني سيّد نفسي أكثر، وأكثر يقيناً مما أعتقد معرفته. أعرف، ولا حاجة للبحث عن مزيد من المعرفة. آنذاك أعجزُ عن كتابة مسرحية" (١).

الكتابة هي "تحرير للمكبوت في النفس" (٢) و "الأدب ظاهرة عُصاب" (٣)، لكن يونسكو يقصد، باستخدام هذه الصيغة، التعبير عن الوسواس والقلق الوجودي، والضيق الميتافيزيقي. العمل الأدبي يمثل ذلك كله، بحث عن المغزى؛ إنه يعطي معنى للوجود" (٤).

الكتابة أخيراً، هي محبة الكلمات. "يجب أن تحب كيفية رواية الحكاية أكثر من محبتك لما ترويه" (٥) وهي إعطاء الفوضى الداخلية نظام علم النحو؛ هي نقل التحليلات من خلال مدلول الكلمات والتغلب على مقاومة اللغة من أجل صياغة ما لا يقال "إنها معركة مع الملاك" الذي ندعوه الدعوة إلى الكتابة (موهبة).

يحب يونسكو أن يصوّر نفسه موزعاً بين إغراءات الكسل ونداءات الخيال. "من الواضح حقاً صعوبة كتابة مسرحية. ذلك يتطلب جهداً عقلياً هائلاً: يجب على الكاتب أن يقف، وهذا عمل مرهق.. يجب أن يجلس في اللحظة التي اعتاد فيها تماماً على البقاء واقفاً، يجب أن يتناول قلمه الثقيل جداً، ويجب أن يفتش أخيراً عن أوراق غير موجودة. ويجب أن يجلس أمام طاولة غالباً ما تتداعى تحت وطأة المرفقين... من السهل، نسبياً، أن تؤلف مسرحية دون أن تكتبها، من السهل تخيلها، أن تحلم بها، وأنت ممدد على ديوان بين النوم والصحو.." (٦).

النداء الباطني عند يونسكو، هو في الحقيقة، نداء قاهر ملحاح. "ها أنذا أبدأ

^١ محاورات مع كلود بونفوا ص ٧٧.

^٢ تصريح الطليقة: ظاهرة مؤداها انطلاق الطاقة الانفعالية المكبوتة.

^٣ محاورات مع كلود بونفوا ص ٤٢، ٨٠.

^٤ محاورات مع كلود بونفوا ص ٤٢، ٨٠.

^٥ المصدر السابق ص ٢٩.

^٦ من مقدمة "المسوسون" ص ٢٨.

الكتابة، الكتابة، الكتابة. طوال حياتي وأنا أكتب. لم أعرف أبداً شيئاً آخر^(١). الحاجة إلى الكتابة "مثل التنفس" تلبي أكثر الطموحات تعقيداً. "الدوافع المتناقضة تماماً، أو التي تكمل بعضها تدفعني للكتابة: كل شيء يحملني على الكتابة: الكبرياء، إرادة القوة، الكره، الرغبة في خلاص نفسي، الحب، القلق، الحنين، الفوضى، الثقة، فقدان الثقة، اليقين فيما أؤمن به، عدم اليقين، الرغبة العنيفة في أن أكون مثقفاً، والرغبة في التثقيف، في التسلية، الخشوع"^(٢).

لكن الكتابة تعني أن يسأل الكاتب الناس وأن يسأل نفسه، إنها صياغة هذه الأسئلة. رغم ذلك فإن مسرحية "العطش والجوع" هي مسرحية الأجوبة؛ ففي خاتمة البحث والتفتيش بقي هناك شعور كئيب حاد لا طائل تحته وحنين أشد إيلاماً "لماذا ارهقت نفسي إذن إذا كان أدبي الشخصي [..] لم يساعدني على التقدم خطوة واحدة على دروب المعرفة والإشراق والصفاء؟"^(٣).

من هنا يولد رعب الكاتب: "سابقاً، سابقاً، حدث شيء ما من هذا القبيل كنت أجلس بفرح أمام طاولتي لأكتب [..] أما اليوم فإن فكرة الكتاب تملؤني رعباً. اليوم، عندما أبدا الكتابة، يستيقظ في داخلي ذلك الشعور الذي صار أكثر حدة، شعور لا يطاق، شعور بالمأساة، والخطر، والقلق الشامل، فأحاول الهرب والتسلية والنسيان"^(٤).

كيف الانقطاع عن الكتابة؟ كيف الاستمرار؟ في قلق هذه "المهنة النارية" انطلق من يونسكو هذا النداء: "إنه الموت الذي أريده؟ لماذا؟ لأنه وحده يستطيع أن يخلق، وهو وحده من سيخلق فمي"^(٥).

^١ ربيع ١٩٣٩، ص ١٨١.

^٢ المؤلف ومشاكله.

^٣ يوميات في قتلت، ص ٢٠.

^٤ المصدر السابق ص ٤٣.

^٥ المصدر السابق ص ٤٣.

مغامرة مسرحية

١- دراسة تحليلية للمسرح

إذا ما صدقنا يونيسكو، فإنه كتب مسرحية "المغنية الصلحاء" بطريق المصادفة: لقد بدأ في المسرح "بطريقة متخلفة جاهلة"^(١). تعتبر هذه المسرحية نقداً لأدعاء المسرح الرائج في أيامه، كما أنها كشفت الرغبة لديه في أن يهب الحياة لبعض الأشخاص وأن يجسد بعض تصوراتيه. بدأ "يحب المسرح، ويكتشفه في داخله، ويفهمه ويشغف به"^(٢). خلال خمسة عشر عاماً، كتب أكثر من خمس وعشرين مسرحية، وصار مسرحه أربع مجلدات، وأكثر من ألف صفحة من مطبوعات دار غاليمار. مثلت مسرحياته، وترجمت في العالم أجمع، كما أن إنتاجه النقدي، الموازي لإنتاجه الأدبي، يكشف عن مجادل لاذع ومنظر واضح دقيق. تحولت اللعبة إلى جد. ذات يوم بينما كان يغادر السفينة ليطأ القارة الأمريكية، اعترضه صحفي وسأله عن تصوّره للحياة والموت. وضع حقيبته أرضاً، جفّ عرق جبهته ورجاه أن يمهله عشرين عاماً ليفكر في السؤال، قال: "هذا ما أسأله لنفسه بالعقل، وأنا أكتب لأسأل نفسي عن ذلك"^(٣).

هذه الصورة الساخرة التي يقدّمها لنا يونيسكو عن نفسه، يجب، مع ذلك، أن ندقق في تفاصيلها. كان كل شيء يدفع يونيسكو نحو مستقبله ككاتب مسرحي: ثقافته، حساسيته، رغبته في المطالعة التي اكتشفها منذ الطفولة وهو يقرأ روايات فلوبيير، رغبته في الكتابة التي ظهرت في فترة مراهقته من خلال قصائد ورواية وحوارات وبدايات مسرحية، وآراء نقدية حول الأدب، ويوماً بعد يوم، راح يكتب صفحات وصفحات من "يومياته" الخاصة التي كانت تدل على موهبة لا يمكن قهرها.

^١ ملاحظات وملاحظات مضادة.

^٢ تجربة المسرح.

^٣ المؤلف ومشاكله.

هكذا إذن، فإذا كانت كتابة مسرحية "المغنية" قد حدثت مصادفة تقريباً فإن يونسكو كان يشعر في أعماقه أنه كاتب منذ زمن بعيد، كاتب مسرحي بالتحديد. فالمسرح يوافق خياله المتميز بالصور البصرية المرتبطة بالأحلام، فالحلم صورة قبل أن يكون كلاماً (حكاية الحلم التي تعتمد على ترابط النحو ومنطقه هي نوع من التغيير في الحلم). إضافة إلى ذلك فإن تتابع الصور أو تبدلها هو نوع من الحركة. الحلم إذن تمثيل ودراما، ولهذا السبب لم تكن المغنية الصلحاء لقاءً عرضياً مع المسرح، إنها اللقاء.

خلال أربع سنوات كتب يونسكو حوالي عشر مسرحيات، وقد حدث أحياناً أن باشر كتابه مسرحيتين في وقت واحد، انتقل يونسكو، في المسارح الصغيرة التي قَدِّمَت مسرحياته، من فشل إلى كارثة، دون أن تضعف عزيمته.. ومن مسرحية إلى أخرى، كانت خطته تتغير، وتقنيته تتطور، وكان يربك المعجبين به على قلة عددهم. اندفع يونسكو، عام ١٩٤٩، في هجاء عنيف ضد المسرح، وفي عام ١٩٦٤، في مسرحية "العطش والجوع" يتساءل يونسكو عن مصير الإنسانية، واليوم، ومع عملية تفهقر استمرت عشرين عاماً، فإن تبدلاته كتكتسب شيئاً من التماسك والانسجام، كما أصبح في الإمكان تحديد الخط البياني لفكره.

السخرية من المسرح:

لقد دَمَرَت المسرحيات الأولى، عن طريق تحريف أشكال التعبير التي يمكن أن تبدو غير ملائمة للنص المسرحي، العقدة، والشخصيات، وأسلوب الحوار: وفي الوقت ذاته اكتشف يونسكو منابع المسرح، ففي استكشافات: صبية للزواج، المعلم، معرض السيارات، المستأجر الجديد، بُني كُلُّ منها على عنصر من عناصر التقنية المسرحية: الحركة، الإيقاع، المفاجأة، الأخطاء اللغوية، التسارع الحركي أو الكلامي؛ تراكم الأشياء وتكاثرها. لقد لجأ يونسكو إلى أساليب تقليدية في المسرح، كما استخدم طرائق توحى بها موسيقى القاعات الكبرى، والسيرك، ومسرح العرائس، والكابريه.

أعماق الوعي:

لكن سرعان ما غدا المسرح بالنسبة ليونسكو طريقة لاكتشاف أعماق الوعي. لقد كشفت كتابة الأحلام، على المسرح، أفضل مما فعلت في "اليوميات"

أو القصص القصيرة، الغرائز العميقة، والوساوس، والقلق. ففي مسرحيات: الدرس، جاك، الكراسي، ضحايا الواجب، اميديه، يتخذ البحث شكل التحليل النفسي، ويستند على نظرية فرويد - أو يونغ - في علم النفس، وبهذا الاعتبار يكتسب تحليل الذات قيمة دائمة.

بيرانجييه والناس

شعر يونسكو شعوراً متزايد الحدة، عاماً بعد عام، أنه يستطيع، من خلال المسرح، أن يسأل نفسه، يستطيع أن يتحدث عن نفسه وعن العالم. لقد اتسع مجال تفكيره: المسرحيات الثلاث الأولى من "مرحلة بيرانجييه" - قاتل بلا أجر، الكركدن، السائر في الهواء - تعرض بحثاً أكثر منهجية، كما أن يونسكو يعالج مواضيع جديدة ويواجه مشاكل الجماعات، ويتصدى لصراع الأيديولوجيات ويقدم الأحداث الرائنة الأكثر وضوحاً في عرضه للواقع من خلال الحلم.

أمّا وقد تحاشى "فخ الرصانة الجذبة" فقد عاد في أعوام ١٩٥٩ - ١٩٦٢ إلى المسرحيات القصيرة المبنية على حيلة لغوية أو على خبطة مسرحية. ففي مسرحيات: مشهد رباعي، تعلم المشي، الغضب، هذيان ثنائي الثغرة، البيضة المملوكة، عرض يونسكو "التصورات المسرحية" في حالته الصافية دون أن يعبر عن أي تساؤل حول العالم.

عند أسفل "السلم الفضي"

مع ذلك، فالرصانة، والوضوح ليسا مصيدة، إلهما نوع من التعميق والإغناء. تابع يونسكو بحثه عن معنى الوجود، تنتهي "مرحلة بيرانجييه" بمسرحية "الملك يموت" حيث يتعرض يونسكو للمسألة الانطولوجية، وبعد ذلك بعامين صور في مسرحية "العطش والجوع" الترحال والشعور بالمطلق الذي يقود الإنسان، في لحظات الشفق، إلى أسفل "السلم الفضي" الذي يشع في حديقة الفردوس.

"المغنية الصلحاء"

شراء كتاب لتعلم اللغة الانكليزية، والحقائق التي اكتشفها يونسكو فيه،

والإشراق الذي انبثق منه، واتخاذ القرار في نقل تلك الاكتشافات، ثم تقطيع أوأصر الكلام الذي صار ضرباً من الجنون.. هذه الحثثات كلها ارتبطت - منذ أمد قريب - بأسطورة المسرح الجديد.

عندما ارتفعت الستارة في ١١ أيار ١٩٥٠، في مسرح نوكتامبول، رأى المشاهدون القلائل بعض قطع الأثاث على المسرح الخالي تقريباً، مما يوحي بوجود صالة بورجوازية، وشاهدوا شخصين يرتديان بذلتين من طراز "اهتم أنت باميلي". لوحة تنقذ الهوية، لكن صوتاً نادى "ابداً" أكد أن كل ما على المسرح إنكليزي أصيل: المقعد المريح، الأخفاف، الغليون، الجريدة، شوارب السيد سميث، النار وساعة الحائط، السيدة سميث التي تطرز.. كلها إنكليزية.. هذه الأسمية الإنكليزية تبدأ "بلحظة صمت إنكليزية طويلة".

دقت الساعة سبع عشرة دقيقة - "إنكليزية" - فعرفت السيدة سميث أن الساعة هي التاسعة، وبينما كانت تغرز إبرتها راحت تذكر برضى أصناف وجبة العشاء، وتشرح الطريقة المثلى لتحضير البطاطا مع شحم الخنزير، وتقرآن بين زيت بقال الناصية وزيت البقال المقابل مع زيت البقال عند الشارع الجانبي؛ وتؤكد ضرورة إضافة كمية مناسبة من الملح مع الحساء، كمية لا كبيرة ولا قليلة، وتوضح طريقة إعداد كعكة السفرجل، وتعدّد بالتفصيل منافع السمك، واللبن البلغاري، كما أن هناك لبن ولبن..

راح طوفان ثرثرتها التافهة يلطم أسوار الجريدة المفتوحة إلى أقصاها التي يحتمي خلفها، فلا يرى، السيد سميث برباطة جأش تذكرنا بفيلس فوغ^(١). وفي شلال الكلمات يسيل هنا وهناك تعابير مبتذلة مقلقة:

"لأشك أن ولدنا الصغير كان يريد أن يشرب بيرة، ويود لو يملأ معدته، إنه يشبهك".

"اللبن الرائب نافع جداً للمعدة والكليتين والتهاب الزائدة، ولتألق العظام".

أخيراً، مدّ السيد سميث رأسه ليؤكد أن الطبيب الجيد يجب أن يموت مع مريضه مثلما يغرق قبطان السفينة مع سفينته؛ كما أنه أصيب بالذهول، من ناحية أخرى، لأنه قرأ في الجريدة أن دائرة السجل المدني تذكر دائماً عمر المتوفين بينما لا تذكر إطلاقاً أعمار حديثي الولادة.

^١ فيليس فوغ، بطل رواية حول العالم في ثمانين عاماً.

خيم صمت طويل دقت الساعة أثناء سبع دقائق، ثم خيم صمت آخر دقت خلاله ثلاث دقائق، وفي فترة الصمت الثالثة لم تنق الساعة أبداً.

راح السيد والسيدة سميث يتناقشان بتأثر وانفعال عن بوبي واطسن المسكين، لقد توفي منذ سنتين أو ثلاث، وقد تم دفنه منذ ثمانية عشر شهراً.

"إنها أجمل جثة في بريطانيا العظمى! لم تكن تكشف عن عمر صاحبها الحقيقي، مسكين بوبي، لقد توفي منذ أربع سنوات، وكان لا يزال دافئاً عند دفنه، إنها جثة حقيقية حية، كم كان ظريفاً!"

كانت زوجة بوبي واطسن تسمى بوبي واطسن مثله، ولذا كان الأمر يلتبس على من يراهما معاً. كان لهما ولد اسمه بوبي، وبنت اسمها بوبي بالطبع. في عائلتهم إذن كان الجميع يدعون بوبي واطسن: العم، العمّة العجوز، ابن العم، والجدّة، والعم الثاني، وابن العم الثاني، حتى الكلب كان اسمه بوبي واطسن. كانوا جميعاً وكلاء جوالين، عدا ثلاثة أيام في الأسبوع: "الثلاثاء، الخميس، الثلاثاء".

رغم حماس السيدة سميث فإن آل بوبي واطسن لم يكونوا موضوعاً لحوار لا ينتهي وسوف ينتهي هذا الحوار الانكليزي عندما تظهر ماري - امرأة ذات إغراء لا يقاوم لكنها فتاة حقا.

أعلنت ماري عن وصول السيد والسيدة مارتان: كانا ينتظران عند الباب ولم يدخلوا عند اختفائها داخل البيت. أدخلتهما ماري بينما راح السيد والسيدة سميث يرتديان ثيابهما.

جلس السيد والسيدة مارتان بخجل، كل منهما قبالة الآخر وراحا ينظران لبعضهما خلسة، ويحاولان الابتسام دون كلام؛ ثم يتبادلان النظرات من جديد. أخيراً قرر السيد مارتان أن يبدأ الكلام:

- أرجو قبول اعتذراتي يا سيدي، لكن يخيّل لي، إن لم أكن مخطئاً، أنني قابلتك من قبل في مكان ما.

- وأنا كذلك يا سيدي؛ يخيّل لي أنني قابلتك من قبل في مكان ما.

لقد اكتشفاً باندھاش أنهما من مانتشستر، وأنهما غادرا المدينة قبل خمسة أسابيع في قطار "الثامنة والنصف صباحاً" وقد وصل القطار إلى لندن "الخامسة إلا ربعا" وأنهما سافرا في الدرجة الثانية في المقصورة السادسة من العربة الثامنة. "ما أغرب ذلك، وكم هو مثير للفضول، يا للمصادفة!" ومنذ أن وصلا

إلى لندن سكنا في الشارع نفسه، والبناية نفسها، والطابق نفسه، "ما أغرب ذلك!"
لقد ناما في الغرفة ذاتها، عند نهاية الممر، بين الحمام والمكتبة، "ما أعجب ذلك!"
لقد ناما في السرير عينه. "يا للمصادفة العجيبة!" وبعد صمت طويل من التفكير
العميق دقت الساعة خلاله تسعاً وعشرين دقيقة، نهض السيد والسيدة مارتان
بطريقة احتفالية:

- إذن، يا سيدي العزيزة، أعتقد أن لا مجال للشك بأننا تقابلنا من قبل وأنت
زوجتي.. لقد وجدتك من جديد يا إليزابيث!
- دونالد، هذا.. أنت يا حبيبي!

ماري - وهي في الحقيقة شرلوك هولمز - تعلّق على المشهد: ثم عاد آل
سميث. لقد تعثر الحوار قليلاً في البداية: تفاهات، سعال مصطنع، فترات طويلة
من الصمت، ابتسامات عريضة، كلام عن الطقس.. ثم رنّ جرس الباب. قامت
السيدة سميث لتفتح الباب. لا أحد هناك.. ولمّا حدث ذلك ثلاث مرات سمح لها
المنطق التجريبي أن تستنتج ما يلي: "علمتنا التجربة أنه عندما نسمع جرس
الباب فذلك يعني أن لا أحد هناك"، وفي المرة الرابعة، قام السيد سميث ليفتح
الباب.. وعاد ومعه رئيس فرقة للإطفاء.

روى الرجل بعض النكات السخيفة، و"حكاية تجريبية" ليس لها أساس من
راس.. كان يضحك ملء شديقه، وحده، ثم انتهى بحكاية عن الزكام، وختم
حكايته بجملة طويلة، مؤلفة من عدة جُمْل وصلية، ومعتزضة، تتسلل وتنزلق
بين ردود وشروحات الشخصيات الأخرى:

- "كان لأخ زوجتي، من ناحية الأب، ابن عم ألماني، أحد أعمامه، من
ناحية الأم، كان له أخ زوجة كان جدّه لأبيه قد تزوج مرة ثانية صبيّة من
المنطقة كان أخوها قد التقى، أثناء إحدى أسفاره فتاة، فشغف بها، ومعها..".

راح رئيس فرقة الإطفاء يتكلم ويتكلم ويتكلم ثم توقّف فجأة عند أربع
فاصل، أربع انقطاعات في موجة تبخرت فجأة:

- .. وكان والده قد عاش في كندا عند سيدة عجوز، كانت ابنة أخ الخوري
الذي كانت جدّته تُصاب، غالباً، في فصل الشتاء، مثلها مثل جميع
الناس، بالزكام.

راحت ماري تنشد بدورها قصيدة حماسية على شرف رئيس فرقة الإطفاء،
لكن هذا الأخير ترك السهرة لأن حريقاً شَبَّ في طرف المدينة (كان موعد

الحريق مسجلاً في مفكرته منذ عدة أيام) حريق لا قيمة له: "نار في كومة قش وحرق بسيط في المعدة".

عاد الحوار من جديد بين آل مارتان وآل سميث والأصح أن يقال أن كل واحد منهم كان يتحدث لنفسه ويعلن حقائق أساسية:

- يمكنني أن أشتري سكنين جيب لأخي بينما لا يمكنك أن تشتري إيرلندا لجذك.

- يسير المرم على رجليه لكنه يستمد الدفع من الكهرباء أو من الفحم[...]

- عندما أكون في الريف أحب العزلة والهدوء.

هذه الحقائق تتشوه والكليشيهات تختلط، والردود لم تعد أكثر من مقاطع صوتية رنانة، والعلاقات المنطقية اختفت وحل محلها ترديد سخيف لما يقوله الآخرون:

- إنني أحب عصفوراً في حقل أكثر من جورب في نقالة.

- شبكة في شاليه خير من حليب في قصر.

ثم يتسارع الإيقاع وتغدو اللهجة عنيفة، ويبدو الأشخاص كأنهم يختصمون:

- لا تلمس بابو جي.

- لا تحرك البابو جي.

- المسن الذبابة، الذبابة لا تلمس.

- الذبابة تتحرك.

- امسح فمك.

- امسح مضرب الذباب، امسح مكشاة الذباب.

- مناوش مناوش.

- سكاراموش (المناوشة)

- سانت نيتوش (البراءة المزيفة)

- لديك سرير!

- أنت تلجمني

- سانت نيتوش تلمس خرطوشتي.

- لا تلمسوها، إنها محطمة(١)

تنتهي الجُمْل بالتفتت، والكلمات تنفجر صراخاً وضجيجاً، تتحول إلى مقاطع، إلى حروف رنانة وحروف صوتية يتقاذفها الأبطال في سورة من الغضب وهم يركضون على المسرح.

ليل، نور، السيد والسيدة مارتان يجلس كل منهما على مقعد مريح. السيد مارتان يقرأ جريدته والسيدة مارتان تطرز. تدق الساعة سبع عشرة دقة فتعلن السيدة مارتان أن الوقت هو الساعة التاسعة، ثم وهي تغرز أبرتها..

الكلمات والأشياء

لا يمكننا أن نحلل مسرحية المغنية الصلحاء كما نحلل مسرحية "حلاق اشبيلية" أو "روي بلاس".. لا وجود للعقدة، ولا يمكن رواية المسرحية، وكل ما يمكن فعله هو وصف المشاهد المتتابعة (لقد التزم يونسكو بالتقسيم التقليدي) التي يشكل كل مشهد منها لوحة حيّة.

يسمح تحليل الحوار بإيجاد جُمْل كتاب تَعَلَّم اللغة الانكليزية. دروس المفردات مترابطة، يمكن أن نستخرج منها العناوين التالية: الطعام، البيت، أواصر القرابة، الحوار حول بوبي واطسن والحديث عن الزكام - الوقت، الرحلات، كما يمكن ملاحظة تمارين القواعد حول حالتي النفي والإثبات وحول درجات المقارنة والتفضيل.

-... البطاطا جيدة جداً مع شحم الخنزير، وزيت السلطة لم يكن حاداً؛ زيت بقال الحي أجود من..

هكذا أعاد يونسكو نسخ جُمْل الكتاب، لكن (وهنا يكمن جوهر المسرحية) بدلاً من أن تكون وسيلة لتقوية الذاكرة من أجل حفظ المفردات والقواعد فإنها تقابل مواقف حيّة، إنها تحلل الواقع، تعبر عن حقائق. تأكيدات الشخصيات بديهية، واستنتاجاتها منطقية تماماً، في البداية على أقل تقدير.

هذا المنظور جعل الحوار جهنمياً، وقد كشف نسيج التفاهات ابتذال الواقع. فالحقائق الأساسية، التي لا نفع فيها تحرف بشكل ساخر نظاماً كاملاً من القيم.

في النصف الثاني من المسرحية تختلط الفصول، وتمتزج السجلات،

^١ هذا المقطع لا قيمة له من حيث المعنى، لكن كلماته كلها تحوي المقطع الصوتي (Ouche): couche, Nitouche, mouche, babouche, touche... وهذا برهان على ما ورد سابقاً.

وتنداعي البديهيّات ويصبح العنصر الكوميدي المقيم عند حدود اللامعقول تراجيديا، والواقع، الذي كان كلامه ضمانا له، يتهدم.

كوميدي؟ تراجيدي؟ لقد دهش يونسكو عند سماعه ضحكات الجمهور: أثناء كتابة المسرحية، اضطرر للتوقف، إذ أصابه دوار وغثيان. كانت المسرحية بالنسبة له "تراجيديا اللغة".

في الحقيقة، إن انهيار الواقع مأساوي، كما أن المسرحية تسبب بعض القلق والانزعاج، أما الضحك فإنه يتفجر في اللحظة التي تتعطل فيها آليات اللغة وتقدم صورا مشوهة: مازال في الإمكان تحديد الواقع لكنه تعرض من قبل لعملية تزوير وتشويه. وهكذا فإن الصيغة البديهيّة للجملة مازالت باقية أما محتواها فقد أصبح فظاً مبتذلاً.

- زيجتي هي النكاح بعينه، بل إنها أنكى مني، وعلى كل حال فهي أكثر أنوثة بكثير، كما يقولون [..].

- ساعة الحائط تعمل بشكل رديء، لديها روح المشاكسة، إنها تشير دائماً عكس التوقيت الصحيح.

- يمكن البرهان على أن التطور الاجتماعي يكون أفضل بكثير إذا أضيف السكر إليه [..].

- لا يلمع المرم نظارته أبداً بشمع الأضحية [..].

ينكمش الواقع أكثر عندما يعيد يونسكو للصور المستهلكة قيمتها أو عندما يعيد للكلمات معانيها الأولى، معانيها الواضحة، كما حدث في التعليقات التي رافقت قصيدة ماري أو أفكار السيدة سميث حول السأم من أحاديث الصالونات.

تصبح الورطة في النهاية بلا حدود، والسخرية تصبّ في البلاهة، وما عادت الكلمات تعبر عن شيء. إنها تتكاثر وتبدو كما لو أنها تغزو الفضاء المسرحي.

قوالب الحوار، وتمزّق التراكيب اللغوية يعيدان من جديد طرح مسألة الواقع أو بعض مظاهر هذا الواقع: الحركات تصبح إيماءات، والأشخاص يتحولون إلى دُمى، وباختصار يتحول الواقع إلى عالم "بورجوازي صغير". يجب أن نفهم من ذلك أن ليس المقصود هذا المجتمع أو ذلك النظام الاقتصادي (لم يقصد يونسكو ذلك أبداً) بل المقصود عقلية موجودة في جميع الأنظمة، عقلية امتثالية تتغذى على أفكار مسبقة جاهزة، المقصود ببغائية تكونت من قوالب لغوية، وترديد آلي

للغة، وللأشخاص الذين "يتحدثون ولا يقولون شيئاً" لأن ليس لديهم ما يقولونه، وليس لديهم ما يتبادلونه مع الآخرين ولأنهم محرومون من الحياة الداخلية فافتقروا بآلية الكلام اليومي: "لم يعد آل سميث وآل مارتان يعرفون الكلام، وما عادوا يعرفون كيف يفكرون لأنهم لا يعرفون كيف يفعلون، وليس لديهم مشاعر، ولا يعرفون كيف يكونون، ويمكن أن يصبحوا أي شخص أو أي شيء لأنهم، وقد فقدوا وجودهم الخاص، ما عادوا سوى الآخرين، عالم اللاشخصي، وأنهم قابلون للمبادلة: يمكن أن يحل مارتان محل سميث، والعكس بالعكس، وما عاد المرء يتوقف عند ذلك"^(١). أصداف فارغة، رثاءة، جوفاء، تتهادى شخصيات "المغنية الصلحاء" مع تهاوي اللغة التي أوجدتهم، إنهم كوميديون لكن رخاوتهم تكشف عن حقيقة تراجيديّة.

لقد تحقق التباس النغم والمعنى من خلال أداء الممثلين. يمكن أن نتخيل أداءً مجنوناً على طريقة" ماركس برادر أو هيلزا بوبان". تقترح الإرشادات المسرحية اللقاء رتيباً وتلاوة خالية من أي تعبير. اختار نيكولا باتاني تمثيلاً "جاداً" جعل عنصر الاضحاك في النص، من خلال التضاد والمفارقة، أكثر وضوحاً. هناك إيقاع يفرض نفسه على كل حال: التسارع الذي يؤدي إلى الانفجارات، والعنف، يؤدي إلى الانفجار. ذكر يونسكو إلى الكاتبة سيمون بن موسى أن "الحالة النموذجية هي أن نرى رؤوس وأقدام الأشخاص مثل نتوءات تبرز من أرض المسرح وهذا مستحيل للأسف. ربما كان من الأفضل ألا يكون هناك سوى دُمى مقطعة الأوصال لأن تلك الشخصيات ليس لها أي وجود حقيقي"^(٢)، وبالتأكيد فإن لعبة كهذه اللعبة المسرحية تؤكد واحداً من معاني المسرحية.

تحرير المسرح:

إضافة إلى إثارة قضية العالم "البورجوازي الصغير" فإن مسرحية "المغنية الصلحاء" تعتبر نقداً لاذعاً للمسرح واعتداء سافراً على الجمهور.

مسرحية تحريفية ساخرة، لكنها أيضاً سخرية لاذعة من المسرح، وضع لها يونسكو عنوان "مسرحية مضادة". ليس فيها عقدة، شخصياتها مترددة حائرة، وما تقوله تلك الشخصيات لا فائدة منه، وفي النهاية يجب على المتفرج أن لا يحاول الفهم أو الاستماع، وهذه علامات مسرحية رديئة.

^١ تراجيديا للغة.

^٢ سيمون بن موسى، يونسكو، ص ٨٧.

العنوان يصدم. إنه لا يوضح أي شيء، إنه نقیض العنوان. لقد فكر یونسكو أن یسمیها على التوالي: "الساعة الانكليزية" "تعلم الانكليزية دون تعب" "جنون بیج بن" "السماة تمطر كلاباً وهررة" لكن هذه العناوين كلها تحدد المسرحية ضمن حدود هجاء الحياة الانكليزية؛ وخلال إحدى التدریبات تحدث الممثل الذی كان یؤدي دور رئیس المطافيء، خلال حکایته عن الزكام، عن "مغنیة صلعاء" بدلاً من أن يتحدث عن "معلمة شقراء". تم العثور على العنوان النهائي ولم یبق سوى إضافة جملة فی اللحظة الذی یغادر فیها رئیس المطافيء منصة المسرح: "والمغنیة الصلعاء؟ - إنها تسرح شعرها دائماً بنفس الطریقة". لاشك أن المصادفة هی الذی سمحت بإيجاد العنوان وقد أدت إرادة التحدي إلى الاحتفاظ به.

أراد یونسكو أن یصدم الجمهور الذی اعتاد على مسرح البولیغار^(١). كانت هذه العدوانیة أكثر وضوحاً فی الخاتمة الذی تخیلها یونسكو أول الأمر: كان المطلوب قتل المشاهدين بكل بساطة. خلال الشجار بین آل سميث وآل مارشان، تدخلت الخادمة لتعلن عن وقت العشاء فیتترك الأزواج الأربعة منصة المسرح. یبدأ بعض المتواطئين بالصفيیر والصیاح فی الصالة آنذاك یصعد إلى المنصة مدير المسرح وقائد الشرطة ومعهما شرطیان ویبدأون إطلاق النار على الجمهور المتمرد ویصدرون الأوامر لإخلاء الصالة تحت تهديد المسدسات. اقترح یونسكو خاتمة أخرى: یقدم المؤلف على المنصة ویمد قبضته باتجاه الجمهور ثم یصرخ: یا عصابة الأندال، سأسلخ جلودكم" تتطلب النهاية الأولى أدوات كثيرة، وعدداً إضافياً من الممثلین، من أجل عدة دقائق، أما الاقتراح الثاني فلا ینسجم مع طابع المسرحية، لكن كلا النهاییین تبیینان إلى حد ما الاغتيال الرمزي لجمهور المسرحية الهزلیة^(٢).

موضوعات وتقنية

إن رفض نوع محدّد من المسرح والاعتداء على جمهور معین هما الوجهان المدمران فی المسرحية؛ لكن "المغنیة الصلعاء" تقدم فی الوقت ذاته موضوعات وأسالیب تقنية طوّرها یونسكو فی مسرحياته التالية.

^١ مسرح البولغار: المسرح الذی یقدم الأعمال الهزلیة الذی تتخلق عامة الشعب.
^٢ اللوغدیل: مسرحية هزلیة خفیفة.

آل سميث وآل مارتان أسرتان استهلكتا الحب كله. نلمح علامات الفشل الخفي عندما يتبادل آل سميث التَّهم حول أخطاء الأولاد، أمَّا آل مارتان، وهما أكثر شبهاً بالتأكيد، فلا يزالان يخذقان العواطف على "صغيرتهما أليس" لكنهما يعيشان الواحد قرب الآخر دون أن يعرفا بعضهما. لم يتوقَّف يونسكو عن تعميق وتنويع هذا التصوير للحياة الزوجية.

من ناحية أخرى، فإن التضخيم، والكاريكاتور هما شكلان من أشكال الإضحاك التي يلجأ إليها المهرِّج، وقد أدخلهما يونسكو إلى المسرح. كما أن البناء الدائري للمسرحية (الجملة الأخيرة تعيد الجملة الأولى) يبين لامعولية الحياة التي كتب عليها التكرار: في مسرحية المغنية الصلحاء، هناك، فوق ذلك كله، تطوُّر للحدث دون وجود عقدة: آلية المسرح تعمل في فراغ. كان من الممكن الكلام عن "مسرح غير تمثيلي" "مسرح تجريدي" لكن إيقاع التسارع والإنفجار لم يُحمَل بأي عنصر يخفي دلالتة. التوتر موجود بلا هدف، وهذه هي ملامح ومحركات المسرح الأصيل.

"الدرس"

بينما كانت عروض "المغنية الصلحاء" تغرق في اللامبالاة كان يونسكو يكتب مسرحية "الدرس" التي عُرضت للمرة الأولى على مسرح الجيب في ٢٠ شباط ١٩٥١. لم تلاقِ أي نجاح، لكن عند إعادة عرضها عام ١٩٥٦ مع المغنية الصلحاء، التفتت بلوحة الإعلانات ولم تفارقها.

إذا لم يكن في المغنية الصلحاء موضوع ولا مغنية فإن "الدرس" يبرر العنوان: هناك مدرّس وطالبة ودرس خصوصي، لكنه ليس درساً خصوصياً تماماً - رغم ما يقول جاك لومارشان - إنه "إعادة أمينة لدرس يعطيه المارشال فوش في الكلية الحربية"^(١) إذ أن هناك درس ودرس.

تمثّل منصة المسرح غرفة عمل المدرّس. أدخلت الخادمة طالبة جديدة: مراقة، أو مكتملة الأنوثة (ربما كانت في الرابعة عشرة أو الثامنة عشرة) محتشمة، مهذبة، لكننا نشعر أنها تضحّ بالحيوية طريفة، واثقة من نفسها، غبية قليلاً.

جاء المدرّس، في العقد الخامس من عمره، ظهره مخنيّ قليلاً، خجول، ذو

^١ من مقدمة كتاب "المسرح" (دار نشر غاليمار).

حركات بليدة، ثيابه رثة، يتحدث بصوت خافت، إنه مرتبك أمام التلميذة، يعتذر، يتلعثم، يفش عن موضوع الحديث، يخوض في توافه الكلام، يتورط، يتشبث بالجمل الجاهزة. تؤدي ردود الأفعال المهنية دورها وتيسر له إمكانية التصرف:

- أنت تعرف باريس إذن؟

- كلا يا آنسة، لكن لو سمحت، هل يمكنك أن تقولي لي، باريس، هي عاصمة.. يا آنسة؟

- باريس.. إنها عاصمة فرنسا؟

- طبعاً يا آنسة، أحسنت، جيد جداً، عظيم، تهانني، أنت تعرفين جغرافية وطنك حق المعرفة.

في مثل هذا الموقف يكون الطقس الملاذ الأمل:

- ... الطقس جميل هذا اليوم.. أو ليس جميلاً تماماً.. أوه، إنه جميل على كل حال، في النهاية، ليس الطقس رديئاً، هذا هو المهم.. إيه، إيه.. المطر لا يهطل ولا يسقط الثلج.

- لو حدث ذلك لكان أمراً مدهشاً لأننا في فصل الصيف.

- أعتذر يا آنسة، كنت سأخبرك بذلك.. لكنك ستتعلمين كيف تتوقعين كل شيء.

"يمكن أن نتوقع كل شيء": فاهة عبثية فيما يتعلق بالمطر والطقس الجميل، لكن إذا طبقت هذه القاعدة على الحياة فإنها تمتليء بالتهديدات والأخطار. أثناء الحركة الدرامية تصبح التفاهات نوعاً من النبوءات.

قالت التلميذة إنها تريد متابعة دراساتها العليا "لأن ثقافة بسيطة عامة لا تكفي في عصرنا هذا". إنها تعرف من قبل أسماء الفصول - أو جلها - وقد حصلت على الثانوية الفرع العلمي وعلى الثانوية الفرع الأدبي وتريد أن تتقدم، بعد ثلاثة أسابيع - إلى مسابقة "الدكتوراه العامة". يجب إذن الانصراف إلى العمل دون إبطاء.

في اللحظة التي يجلس فيها الأستاذ والتلميذة لبدء الدرس، تدخل الخادمة، تفتح أحد الأدراج، تتباطأ، ثم توجه إلى المدرس تحذيراً غامضاً.

يبدأ الدرس بمادة الحساب. كان المدرس في غاية الراحة وهو يؤدي دور المعلم: تلاشى خجله، لم يعد يتلعثم، صار يستخدم مفردات ذكية، لكن التلميذة

ردت الكرة إلى مرماه فراحت تمزح وتجيب على الأسئلة بطريقة أخاذة، دون تردد:

"اثنان وواحد؟ - ثلاثة. ثلاثة. ثلاثة وواحد؟ - أربعة [..] سبعة وواحد؟ - ثمانية". لقد ذهل المدرس لكنه أثناء حماسه واندفاعه ارتكب أخطاء لغوية تدعو للدهشة. "رائع، أنت رائعة، أنت لذيذة ساحرة، أهنتك بحرارة يا آنسة".

بدأت المتاعب مع عملية الطرح: فلم تتمكن التلميذة من طرح ثلاثة من سبعة. بذل المدرس الأرقام، وفُتِّش عن أمثلة، تناول قضباناً، وأعواد ثقاب، كتب على السبورة، عدّ على أصابعه، وراح ينظر فتحوّلت شروحاته لعملية الطرح إلى فلسفة عملية.

- ليس الأمر كذلك، ليس الأمر كذلك أبداً. لديك ميل دائم للجمع، لكن يجب أن تتعلمي الطرح أيضاً. يجب أن لا تقتصر على الدمج فقط، يجب أن تفكّك أيضاً، هذه هي الحياة، هذه هي الفلسفة، هذا هو العلم، هذا هو التطور، هذه هي الحضارة.

توترت أعصابه وراح يصرخ، وهذه العدوانية الكلامية مرتبطة برغبة أكثر سرية فضحتها الأمثلة الجديدة: "لو كان لك أنفان، وجذعت لك واحداً.. كم أنف يبقى لك؟ [..] لك أنفان فإن صرمت واحدة، لو أكلت واحدة، كم أذناب يبقى لك؟"

لم تعد التلميذة تعرف ما تفعل أو ما تقول، صارت تخطيء في كل شيء فأصابها الرعب والذهول. ارتبكت وراحت تتخبط كأنها وقعت في مصيدة. فقدت ظرفها وتفتتها. بدأ الحزن يسيطر عليها من وطأة التوبيخ. صارت تتحدث بكلمات من مقطع واحد: "نعم، يا أستاذ.. لا، يا أستاذ" وبدأ الإرهاق يظهر عليها أكثر فأكثر.

يجب أن تتخلّى عن مشروع الدكتوراه العامة وتكتفي بالدكتوراه الجزئية. ترك الأستاذ الحساب وانتقل إلى معالجة العناصر الأساسية في اللسانيات وفقه اللغة المقارن للغات الإسبانية الجديدة، عندها ظهرت الخادمة من جديد وسحبته من طرف كمنه: "يا سيدي، أعط أي علم تريد إلا فقه اللغة، فقه اللغة يؤدي دائماً إلى الأسوأ".

"لقد بلغت سن الرشد يا ماري" أجاب الأستاذ إنه منتصب الآن، يتكلم وهو يقطع الغرفة، يدور حول التلميذة المتمالكة على كرسيها، في منتهى السلبية، كأنها منومة مغناطيسياً، ومشلولة، إنها تبذل، عبثاً، جهوداً لتسمع وتفهم، إنها تتألم.

استرجع المدرس الأصول التاريخية للغات الإسبانية الحديثة وأوضح أنها تتميز: "بأوجه التشابه المذهلة التي تجعل من الصعوبة بمكان التمييز بين لغة وأخرى". كانت الحصة عبارة عن سلسلة من المقاطع تزداد طولاً وسرعة، وهذياناً. صار صوت المدرس قاسياً عنيفاً. لم يعد يسمع التلميذة التي تتأوه: "أسناني تؤلمني" وها هو يزجرها بفظاظة. "لا أهمية لذلك؛ ولن نتوقف من أجل هذه التوافه، لنتابع..".

كانت تلك الفترات الطويلة من محاضرة "المعلم" تتقطع بكلام مختلف تماماً: تهكمات، وقاحات، مخاطبة سوقية بصيغة المفرد، وسواها مما يقطع طوفان ذلك الحديث:

- اسكتي وإلا حطمت جمجمتك! [..]

- .. بلا وقاحة! أيتها الصغيرة! أو انتهي لنفسك.

تابع المدرس شروحاته بلهجة غاضبة. انتقل إلى مسألة الترجمة العسيرة، ولكي يعطي مثالا، تناول سكيناً ضخمة راح يلوحها أمام عيني التلميذة. طلب منها أن تردد كلمة سكين في مختلف اللغات وهي تحقّق بتلك الأداة عن قرب شديد. ارتجفت التلميذة آخر ارتجافة تمرّد ثم استسلمت، على إيقاع منقطع، لاهث، رتيب، راحت تردد مع المدرس: "سك..كين.. سك.. كين.. سك.. كين" وأخيراً قالت وقد اعتصرها الألم والذهول: "نعم، نعم.. السكين تقتل" ثم عرضت صدرها لطعنة السكين.

رجعت الخادمة وراحت تويّج الأستاذ بلهجة أم قاسية وتنتقد سلوكه وقد غدا من جديد خجولاً متلعثماً. صفعته بعنف عندما حاول أن يطعنها خلسة، ثم حصلت منه على وعد بأن لا يعود إلى ذلك أبداً وساعدته في نقل الجثة لوضعها في تابوت.. مع تسع وثلاثين تلميذة كان قد قتلهن من قبل.

دقّ جرس الباب، ذهبت الخادمة لتفتّح، إنها تلميذة جديدة جاءت لتأخذ درسها..

إيقاع الكلام:

يمكن أن نقول إن عنوان المسرحية يحدد "موضوعها"، كما يمكن أيضاً الحديث عن عدة لأن شخصاً يقتل شخصاً آخر، وهناك جريمة سادية، لكن المسرحية ليست هناك.

مسرحية "الدرس" حركة درامية دون هدف، إيقاع محض مبني على ميكانيكية الكلام، تصعيد يُخرج من الظلمة حقائق مخيفة، التوتر المتزايد ملموس أكثر من مواجهة البطلين على مدى المسرحية، وهما وحيدان ظهور الخادمة يشير إلى مراحل التطور، كما أن غياب الفصول والمشاهد يؤكد الاستمرارية.

ليست ميكانيكية الكلام في مسرحية "الدرس" هي ذاتها في "المغنية الصلعاء"، فبدلاً من الجمل والقوالب التي تتخلع وتتفجر وتتساقط شظايا - أصواتاً، مقاطع، حروفاً، فإن اللغة هنا، تتبلور ثم تضيق من الشخص الذي يستخدمها. في بداية المسرحية، كانت أجوبة التلميذة كلاماً موزوناً، فما كانت تقولها ينطبق تماماً مع ما تريد التعبير عنه، ويعكس بدقة شخصيتها الواعية، على عكس المدرس العاجز عن تشكيل أفكاره، الذي يتحدث بنقف من جمل فارغة. لكن تبدل كل شيء خلال درس الحساب: الكلام ينظم، يتماسك بدقة بواسطة الجمع: الكلمات، والجمل تلتحم وتتراسق لأنها وجدت في عالم اللاوعي مبدأ توحيدها. أصبح الحديث مستقلاً؛ وتضاعف نتيجة حيويته الذاتية. لم يعد المدرس يوجه أقواله "والدرس يسير في مجراه الذي تمّ تحضيره"، أو على الأصح أنه موجود ليكشف أسراراً جهنمية، علاقات عدائية مخفية تنشأ بين المدرس والتلميذة، ونقف ذلك "النقاش القصير" تندمج مع الحوار. بعض الأحاديث تكشف عن صراع مبهم تخوضه النزوات والغرائز. "أنت شبيهة" "لو جدعت أنفك" "ولو أكلت إحدى أذنك". لم يعد للحوار من مهمة سوى توضيح عدوانية المدرس وخضوع التلميذة. الكلمات تجسد السكين. في مسرحية المغنية الصلعاء اغتيلت اللغة أما في مسرحية "الدرس" فإن اللغة هي التي تغتال.

يفسر هذا التطور مناخ المسرحية. البداية هزلية لكن الجو العام يدعو للقلق لما كشفته الكلمات وأفصحت عنه. "دراما كوميدية" كما يشير العنوان الفرعي للمسرحية؛ لكن يتعذر تبرير ذلك العنصر الكوميدي: تتجسد الضحكة على القلق والانزعاج، وهذا أمر مقصود لكي يصدم الجمهور ويضطره لرؤية ما يتظاهر أنه جاهل له، وإذا كانت المسرحية قد قوبلت في باريس عام ١٩٥١ بطريقة سيئة فإنها أثارت فضيحة في بروكسيل: لقد طالب المتفرجون باستعادة نقودهم، كما أن مارسيل كوفلييه، الذي لعب دور المدرس، اضطر للهرب من باب خلفي.

اعتداء اللغة

تبيّن مسرحية "الدرس" بكل وضوح إغراء الفكر وسلطانه. كل انتقال للمعرفة يستوجب علاقة سيطرة وخضوع، وقوة طاغية ينتج عنها إذعان واع.. إن نفوق من يُعلم يترافق مع لذة ترقى بلا شك ببعض أشكال السادية، وبغموض شديد، ينشأ بين المدرس والطالب، بين المعلم والتلميذ حالة من الحب: الحديث التربوي غواية واعتداء جنسي.

إن المطلق في المعرفة يقتضي التأمل في الحب: أليس هذا ما طلب أفلاطون من سقراط إعلان في كتابه الوليمة؟

لكن الحب في مسرحية "الدرس" فسد وتشوّه. إنه اغتصاب. بل إن يونسكو يتحدث، في إحدى مقابلاته، عن ذلك الانجذاب المرضي نحو الجثث: "إنه رجل صغير، مصاب بالروماتيزم، مقوّس الظهر قليلاً، يؤدي دور المدرّس، أما شريكته، التلميذة، فإنها في صحة جيدة، وعافية. كان الإخراج رائعاً، كانت الأنوار الكاشفة تقطع على الجدار ظلال البطلين ممّا أعطى انطباعاً قوياً، خصوصاً عند مشهد تبدّل الموقفين. تلك الصبية التي تفيض صحة وقد امتصها عنكبوت ضخّم هو المدرّس"^(١). هذا التقهقر، هذا الاعتداء السادي الذي لم يحفظ شيئاً من الحب، يأتي، في رأي يونسكو من أن المفردات والكلام ليسا صيغة المعرفة، بل وسيلة لنقل الأيديولوجيات، وأداة للتسلط، والقيد الذي تلجأ إليه كل أنواع العبوديات.

هذا المعنى لمسرحية "الدرس" واضح - بل في غاية الوضوح، ومنذ ذلك الحين يصبح مختزلاً - فعند نهاية المسرحية تخرج الخادمة من جيبها سلسلة عليها صليب معقوف وتقول للمدرّس: "خذ إذا كانت خائفاً ضع هذه السلسلة، فلا يبقى شيء تخافه". لقد حُذف هذا المشهد من المسرحية، بقي إذن أن الكلام يستمر - ويفضّح في الوقت ذاته - الغرائز الكامنة.

وجوه ملحّة:

تشير شخصيات "الدرس" إلى موضوعات تتأغمت وتكررت في المسرحيات التالية، ويؤكد تحوّل الأبطال الدور الذي تلعبه الوظيفة الاجتماعية

^١ محاورات مع كلود بونفوا، ص ١٢٠.

في سلوك الفرد: أعني إن موقف المدرّس أو التلميذة يغيّر في صفات الشخصية. نجد، من ناحية أخرى، أن دور الخادمة غامض، فهي الضمير الأخلاقي لدى المدرس، إنها "الأنا العليا" بشكل ما؛ لكنها أيضاً الأم المتسامحة التي تؤنب ولدها على أفعاله السيئة، وتخضع لنزواته.. أما التلميذة فهي الحبيبة إلي حدّ ما. هاتان الصورتان تنتقلان من مسرحية إلى أخرى، تمتزجان حيناً (ضحايًا الواجب) وتتفصلان حيناً آخر (الملك يموت) ويشكّل ظهورهما أحد خيوط الاستمرارية السريّة في مسرح يونسكو.

أخيراً، فيما يتعلّق بالأساليب التي استخدمها يونسكو، يجب أن نشير إلى البناء الدائري للمسرحية، والتضخيم المضحك. لم يكن هذا التضخيم، في فترة تقديم المسرحية، أسلوباً مسرحياً مقبولاً من الجمهور، أو من المخرجين. يروي يونسكو، في هذا المجال، الحادثة التالية: "عندما قدّم بيتر هال المسرحية في لندن رفض رفضاً قاطعاً أن يقتل المدرّس كل يوم هذا العدد الهائل من التلميذات. تلميذة واحدة أو اثنتان أمر لا يدهش أحداً، أمّا أن يقتل إحدى وأربعين تلميذة.. "بعد مساومات كثيرة توصلنا إلى اتفاق يقضي أن يقتل المدرّس أربع تلميذات يومياً، أربع تلميذات هذا ممكن أما إحدى وأربعين فذلك مستحيل" (١).

تبين هذه الطرفة الصعوبات التي كان يواجهها الكاتب ليفرض شكلاً أو أسلوباً أدبياً جديداً - وفي هذه الحالة، باعتبار المبالغة مصدرًا للضحك والقلق - وهكذا نرى كم كان "المسرح الجديد" يصدّم، في بداياته، حتى أكثر الناس جرأة.

"جاك أو الامتثال"

في الفترة التي كتب فيها يونسكو مسرحية "الدرس" كان يكتب أيضاً مسرحية "جاك أو الامتثال". كان ينتقل من مسرحية إلى أخرى في اليوم الواحد تدفعه الرغبة في اكتشاف المسرح مستخدماً أساليب تتصف بالجرأة والغوية.

يمثّل الديكور غرفة رديئة الأثاث: مقعد مائل كرسي عتيق، أريكة مهترئة، حذاء قديم على الأرض، أغراض لا اسم لها، جاك متهاك على المقعد، قبعته على رأسه، صامت، منزعج. حوله شخصيات حزينة ذابلة - والد جاك، والدة جاك، جدّ جاك، جدّة جاك.. أخته جاكلين - يرددون لحن السخط على ذلك المتمرّد، العاق، الذي تناسى كل التضحيات وخيّب كل الآمال.

^١ محاورات مع كلود بونفوا، ص ١١١.

- والدة جاك: [..] أنا، يا ولدي، أول من ضربك على قفاك، وليس والدك الموجود هنا مع أنه كان قادراً على ذلك أفضل مني فهو الأقوى، لا، كنت أنا من فعل ذلك لأنني أحببتك كثيراً. أنا أيضاً من كان يحرمك من الحلوى، وكنت أضملك إلى صدري وأعتني بك، وأروضك، وأدربك على التطور، وأعلمك الرفض، ولثغ الرءاء. أنا من كان يجلب لك أشياء لذيذة. دربتك على ارتقاء الأدراج عندما توجد الأدراج، وكيف تفرك ركبتيك بالقراص عندما تستدعي الحالة وخزك بالأبرة. كنت لك أكثر من أم، وصديقة حقيقية، وزوج، وبخار، وكاتمة أسرار، وأوذة. لم أترجع أمام أية عقبة أو أي متراس، لأبني رغباتك الطفولية كلها. أه، أيها الابن العاق ما عدت تذكر عندما كنت أضحك على ركبتي لأنزع لك أسنانك الصغيرة اللطيفة؛ وأقص لك ظفر إبهام قدمك وأجعلك تخور مثل عجل صغير محبوب.

رفض جاك الامتثال لأن هذا التائب لم يؤثر فيه. سيطر الرعب على العائلة من جراء هذا العناد فانتسل أفرادها على رؤوس أصابعهم. بذلت جاكين محاولة أخيرة، بعيداً عن الأذان المنصتة، والنظرات الفضولية - لكن كان أمام نظرات التاريخ، هذا صحيح - وأخبرت أخاها أنه "دقيق التوقيت". سيطر الخوف على جاك من هذا الاكتشاف فراح يتجول في الغرفة، ثم تداعى على المقعد، وغرق في تأملات عميقة، وبعد صراع عنيف قرر الامتثال وأعلن استسلامه: "حسناً، حسناً، نعم، أنا أشتهي البطاطا مع شحم الخنزير!".

تعود العائلة، جميع أفرادها مبتهجون، يحتفلون بالابن التائب. تبالغ الأم في ملاحظته، ويقبل الأب أن يسامحه، ويدندن الجذ بأغنية اعتاد ترادها السكارى، وراحت جاكين، مثل رئيس الجوقة في المسرح اليوناني القديم، تشرح مزايا الاتفاق، بينما كان جاك يتعرض للافاتات، ويترنم على جميع الأنغام: "أشتهي البطاطا مع شحم الخنزير.. أحبها.. أشتيها..".

لم يعد هناك وقت يضيقونه، جاك جاهز، مستعد؛ ويجب تزويجه، يصفق الأب ببديه: "لتدخل الخطيبة". تدخل عائلة روبير: الأم روبير، والأب روبير، سعيدان راضيان، ثم تدخل روبرتا في ثياب الزفاف، تغطي الطرحة وجهها، خجولة. يتفحص والدا جاك الخطيبة، يلمسانها، يجسّانها، يشتمانها، وتعلن جاكين: "المستقبل لنا"، ثم يتم تعداد مزايا روبرتا بالتفصيل لكن جاك يقاطعهم، وعندما رفعت الطرحة التي كانت تخفي وجه روبرتا ذا الأنفين، يعترض جاك ويطلب بخطيبة لها ثلاث أنوف: "لا أرضى بأقل من ثلاثة أنوف". يأخذ الأب

روبير الخطيئة" ذات الأنفين" ثم يعود معه روبرتا بثلاثة أنوف، رغم ذلك استمر جاك في خلق الصعوبات وراح يناقش ويؤكد أن الخطيئة ليست بشعة بما يكفي، ثم تراجع عن خضوعه وامتناله.

ذهول وذعر، راح كل منهم يبتعد عن المرتدّ وهو يتمتّع بتعابير الاحتقار، أو بكاء الألم. روبرتا أيضاً تحاول الهرب لكن إشارة من والدها جمّدتها. إنها منذ الآن "الزوجة المفترضة" وحُكم عليها بالبقاء.

جلست روبرتا أمام جاك، متواضعة، صامتة؛ ثم حاولت شيئاً فشيئاً أن تثير اهتمامه، وتغويه. راحت تصف نفسها وتروي قصتها: إنها الفرح والحزن، السلام والحداد، الحياة والموت، راحت تعدد مزاياها المتناقضة:

ليس هناك امرأتان مثلي في هذا العالم

أنا طالشة، تافهة، أنا عميقة

لست جادة ولا هائلة

أعرف نفسي في أعمال الحقول

كما أعرف أيضاً أعمالاً أخرى..

راحت تروي أيضاً أحلامها: خنزير الهند في مياه البانيو. على جسده تنمو زوائد كالقطر تتحوّل بدورها إلى خنازير هندية صغيرة، غياب الطحّان الذي كان يظن أنه أغرق القبط الصغيرة، وأحضر بدلاً منها مهاراً صغيرة، وألقى في المستنقع طفله الغالي: "جن الطحّان، قتل زوجته، حطّم كل شيء، أشعل النار، ثم شلق نفسه".

لقد روى جاك قصته الشخصية بعد أن شعر بالأمان، أما روبرتا فقد ذكرت المتناقضات: الخيول التي غرقت في المستنقعات؟ حصان مدينة الرمال، بينما كانت تروي حكايتها أصبح جاك فحل الصحراء، وإمام الشهوة: ينطلق مسرعاً على الأراضي المحرقة، في هواء جاف، وغبار أحمر، يدور حول المدينة التي تلتهمها النيران، يدور حول روبرتا، يصهل، يرتجف، يشبّ، لقد أصبح مشعلاً يفيض بالحياة، إنه يستنفذ قواه، ثم راح صهيله يضعف في الصحراء. آنذاك صارت روبرتا ماء، ماء من نبع أو من بركة راكدة، ثم أحاطت جاك بذراعيها:

- تعال.. لا تخش شيئاً، .. أنا رطبة.. لذيّ عقد من طين، ونهادي يذوبان، وحوضي غض، وفي ثغري نبع ماء إنني أغوص وأغرق. اسمي الحقيقي أليزا،

في أحشائي مستقعات وبُرك راكدة.. عندي بيت من فخر..
ينتهي هذا المشهد من الغواية بلعبة تعتمد على حزورة المقطع الصوتي:
شا:

- روبرتا: ماذا يوجد على رأسك؟
- جاك: احزري! إنه نوع من القطط، أضعه على رأسي منذ الفجر
- روبرتا: هل هو قصير؟
- جاك: إنني أبقيه طوال النهار على رأسي، أثناء الطعام، وفي الصالونات، لا أرفعه أبداً، إنه لا يغيدني في إلقاء التحية.
- روبرتا: هل هو جمل؟
- جاك: إنه يضرب بقوائمه لكنه يعرف كيف يشغل في الأرض
- روبرتا: إنه المحراث.
- جاك: إنه يبكي أحياناً.
- روبرتا: هل هو الحزن؟..
- ثم تستمر اللعبة: "سمك الأنهار، الضجيج، الزبون الدائم، الشاليه، زورق الإنقاذ، المداعبة.." (١) روبرتا! أمه، يا قطي!
- جاك: يا قطي، يا سيده قصري..
- يحضن جاك روبرتا ويقتلها على أنوفها الثلاثة بينما تحيط العائلة الزوجين يدائرة تفقد التهذيب والاحتشام. يشتد الظلام، ثم يُسمع مواء، وأنين، ونحيب، ثم تختفي الأشباح. يسود الليل، ثم يليه نور خفيف من جديد. نرى روبرتا جالسة القرفصاء، يكسوها ثوبها، تحرك رأسها برفق، وتجمع الأصابع التسعة في كفها كما لو أنها من الزواحف.

مسرح الحلم

يستكشف يونسكو في هذه المسرحية عالم الأحلام، إنه يستخدم جميع أشكال الأحلام والعلاقات التي يمكن أن تربط الحلم بالمسرح.

^١ تعتمد هذه الحزورة على المقطع الصوتي "cha" في كلمات: chat - chateau- chameau - charruc- chagrin- chabot الخ.

روبرتاً هي قطب الحلم في المسرحية إذ أنها بأثوبها الثلاثة، وكفّتها ذات الأصابع التسعة تكتسب غرابة صورة ليلية، كما أن كل ما ترويه خلال مشهد الإغراء، وكل ما يقوله جاك لها، ينبثق ذلك كله من رؤى النوم. خنازير الهند، الطفل الغريق، العصافير المينة، حصان الصحراء، المرأة - المنظر: هذه الصور، وحكايات الأحلام نقلها يونسكو مباشرة. بعضها قديم: صورة الحصان وردت أيضاً على صفحات "مذكرات ١٩٣٨". إنها سلسلة من الأحلام تشدّها إلى بعضها صبغة واحدة: الغبار، الجفاف، النار، الأشعة الحمراء، المشعل.. ليس هناك أي بناء روائي أو أي ترتيب وصفي. بما أنه يتبع بدقة سير الحلم فإن يونسكو يرصف الصور البدائية، ولكي يجعلها مناسبة للمسرح اكتفى بأن، جعل جاك يرافقها بحركات إيمائية. هناك أحلام أخرى نالت عناية أكبر فأخذت شكل الحكاية؛ تشكل عناصرها سلسلة زمنية، لكن في مختلف أنواع الأحلام خضع الترتيب لمنطق الحس.

لم يحمل أي من الأحلام المذكورة بُعداً رمزياً واضحاً، ولم يكتسب أي منها مغزى خاصاً، إذا كان جاك قد شرح، بلا تردد، حلم خنزير الهند - "لكن هذا هو السرطان، إن السرطان حقاً هو ما رأيته في حلمك إنه ذلك حتماً" - فإن هذا النوع من الشرورات الجاهزة، وهذه اللهجة الحاسمة تقلدان موقف المحلل النفسي. الصور المعروضة صور نموذجية: النار، الماء، لا يظهر مغزاهما الجنسي إلا إذا وضعنا في موقف محدّد: مشهد الإغراء، والرجل والمرأة، والإيماء الذي يرافق الحوار. بذلك تتجه الصور نحو معنى واحد يربطها إلى بعضها البعض، فمن ناحية هناك اللهب والحديد المحمي، والنار عبر جلد شفاف، وصراخ الرعب والألم.. ومن ناحية أخرى رطوبة الماء، ونعومة الزبد، والظلال، والطين، والمستنقعات؛ وهناك الصنم والغوص في العمق.

أساليب السيرك

مقابل الحلم، نجد القطب الآخر للمسرحية، ألا وهو الهزل الذي يتّقه مسرح العرائس والسيرك.

لا يتطابق التمثيل في مسرحية "جاك" مع النص، فحركات الممثلين في البداية، وطريقتهم في تقدير مفاتيح روبرتا، وخصوصاً الرقص الفاحش حول العريسين المتعانقين ما هي إلا مشاهد إيمائية حيث يصبح الحوار، إذا ما وُجد، تافهاً، لا قيمة له، عندها يحمل الإيماء مغزى المسرحية.

في مشهد الغواية يصبح الإيماء نوعاً من المسخ، يتحول جاك إلى فحل، عندما أدنى جان -لوي ترنتينيان الدور على مسرح لاهوشيت كان يعدو ويصهل قبل أن يرتسي على قدمي روبرتا، منهكاً، وقد دفن رأسه في طيات ثوب الزفاف، كان الوهم مزعجاً حتى الدوار.

من ناحية أخرى، اقترح يونسكو في إرشاداته المسرحية أن تضع كل الشخصيات أفئدة، عدا جاك. عند تقديم المسرحية اكتفى الممثلون بتبديل سحتهم وكان ذلك كافياً لسلبهم إنسانيتهم. إنهم شخصيات كاريكاتورية، يؤكد تمثيلهم لا واقعيتهم ويجعل الجمهور يفكر بالمهرجين (أما قناع روبرتا فكان ساحراً تشير رمزته إلى آلهة الخصب والجنس في بلاد الشرق).

مسخ اللغة

تابع يونسكو في هذه المسرحية ما يمكن أن ندعوه: "تمارين في الأسلوب" إنها دراسة في تشوهات الكلام، مسرحية "جاك" مسرحية "مكتوبة" بانقنان.

في المغنية الصلعاء تفجرت المفردات، أما هنا فإنها تكثرت، والحوار بذل سحته، مثل الوجوه، ومن هذا التشويه المزدوج يولد الضحك: "أنا أم تعيسة، لقد وضعت في هذا العالم مسخاً (مسخاً) un mononstre "يا أخي العزيز أنت كرريه vilenain" باختصار لست هنا لأشيد له المدائح (المدائح) égloge" لقد نشأ نشأة لا غبار عليها مثل أرسنقراطي، arishograve" ..

من التشويهات الأكثر براعة استخدام كلمة بدلاً من أخرى، وينشأ الضحك آنذاك من الالتباس في الدلالات: "لقد نشأ.. في أسرة من علاقات حقيقية" "كم أنت كريم.. أوه، أيها الأب الفقير". "أطلب إصلاحات، واعتذارات، وإيضاحات، وغسيل شامل لشرنا" لا تربت على دماغك، فذلك لا يساوي مجرفة" هذا الابن، هذا العار، قصة أخرى من قصص النساء".

كما أن تماثل صوت الكلمات يشكل وسيلة للإضحاك: "تقول إن ذلك كله ما هو إلا لامتاع جوبيتر"^(١). "على كل حال ليس هناك ما تخشاه إنها جمجمة من الكريما"^(٢) "إنه أجني عنيد"^(٣). رغم ذلك، فإن التلاعب بالجرس والرنين غالباً

^١ يعتمد المؤلف على نوع من الجلس.

^٢ Le crane de la creme

ما يكون نوعاً من السحر أو صيغة لتعويدة شعرية. يخلق السجع مجموعات من صور غير متوقعة، وهذا شكل من أشكال الإغراء عند روبرتا: "إنك تفرغ وتذوب في شعري الذي ينسد كالقطر، كالقطر. ثغري يقطر، ساقاي تقطران، كتفاه العاريان يقطران، شعري يقطر، كل شيء يقطر، يسيل، كل شيء يقطر، السماء تقطر، النجوم تسيل، تقطر، تتجمد.." نجد أيضاً تلاعباً بالأنفاظ والأصوات في نهاية الحوار بين جاك وروبرتا.

أخيراً، فإن يونسكو يدخل في الحوار بعض اللصاقات collages. إنه يورد في أشد اللحظات ابتداءً استشهادات تاريخية أو أدبية. إنه يستعيد تفاهات "حكمة الشعوب" فيعيد عنصر الإضحك الناتج عن ذلك طرح مسألة الأحكام الجمالية أو الأخلاقية التي لا خلاف حولها: "برهني أنك أخت جديرة بأخ مثلي.." "أيتها الكلمات، كم من جرائم تقترب باسمك!" "ليس للحقيقة سوى وجهين، لكن وجهها الثالث هو الأفضل".

تمرد مزدوج

مسرحية "جاك" صورة ساخرة للمسرحية المسلية وموضوعاتها المفضلة: عودة الابن الضال، العائلات المشغولة بتزويج أبنائها، عقدة تنتهي بزواج يرضي الجميع.. لكن هذه السخرية تعكس تمرداً مزدوجاً.

جاك متمرّد على أسرته، أي أنه متمرّد على الكذب، والتفاهة، والخسّة، والخيانة - "الطيبة" كلمة على كل لسان، السكين الدامية بين الأسنان - لقد صرّح لروبرتا أنه حين ولادته لم يكن "قد تجاوز الرابعة عشرة بكثير". سن الرابعة عشرة، إنها السن التي يبدأ فيها المرء اكتشاف العالم (إذا كان العمل الأدبي ينقل تجربة حياتية)، وإنها سن يونسكو عندما سافر إلى رومانيا. رفض جاك الخضوع والامتثال وقد عبّر عن ذلك: "لقد أكدوا لي أن في الزواج علاجاً؛ وعدوني بالأوسمة، وإمكانية نقض الاتفاق، وعدوني بالزينات، بأزهار جديدة، بساجيد أخرى". ثم جاءت الاغراءات والدعوة إلى التعقل، واستخدام العواطف، الشفقة والحب، ثم جاءت المصيدة. استسلم جاك وأعلن عن قبوله لعالم الكبار: يشكل اعترافه لروبرتا الارتعاشة الأخيرة لتمرده ونقائه: "لقد سدّوا الأبواب والنوافذ، لقد أخذوا السلام.. ما عاد أحد يهرب عن طريق العنبر. لم تعد ثمة

[†] Jubiler jupiter, étranger intransigent

وسيلة للهرب من الأعلى.. قالوا لي، رغم ذلك، أنهم تركوا فتحات في كل مكان تقريباً.. ليتني أكتشفها.. إنني أتحرق للهرب..". وعدت روبرتا أن تساعد، بي تعرف تلك الفتحات، وقد نالت ثقة جاك، لكن هي الأخرى ما هي إلا مصيدة.

أما المغزى الثاني للمسرحية فهو التمرد على الملذات الجسدية الساحرة الكريهة في آن معاً. المتعة الجنسية مصيدة للزوجين وقد عُرِضت هنا بصورتها البيولوجية، يشير العنوان الثانوي للمسرحية إلى ذلك "كوميديا طبيعية". لقد أيقظت روبرتا جاك على الملذات الحسية عن طريق الإحشاء أو بالجوء إلى الصور التي تعبّر عن مادية الرغبات الجسدية: حلم الحمى، حلم العطش والانجراف، في بيت الفخار، هناك ذبابات ضخمة، وصراصير، وبق، ومضغاد، كما أن ذراعي روبرتا حيّتان.. يستبعد هذا الحلم كل الصور التي تُترجم روحانية العلاقات العاطفية.

انجذاب ونفور: يعبر عن هذا التناقض أغنية روبرتا التي تذكر المزايا كلها وما يناقضها أيضاً. إنها "لبهجة الموت في الحياة.. فرح الحياة والموت". إنها كل ما تقدّمه الحياة وما تحرم منه، امرأة ذات وجوه متعددة. آلهة ذات صفات لا تنتهي.

تصبح المتعة الجنسية كريهة عندما تسخر لخدمة مخططات العائلة. الزواج هو الخطوة الثانية إلى "امثال" الفرد لقوانين الجماعة الاجتماعية. العائلتان، المتأمرتان، تلجأن إلى شتى أصناف الحيل للوصول إلى غايتهم، وروبرت ليس سوى الأداة. هذه الفكرة المعروضة هنا، تناولها يونسكو مرة أخرى في تيمة مسرحية "جاك".

بالاعتماد على الأساليب التي استخدمها، وعن طريق استكشافه للفرائز، ومن خلال مغزى المسرحية، فإن "الامثال" مسرحية جريئة، عنيفة، بلا جدال.. كان لابد من الانتظار حتى عام ١٩٥٥ حتى تجرأ روبرت بوستيك وقدمها على مسرح لاهوشيت، وقد قوبلت بأشكال مختلفة: صُفّر لها جمهور لندن، واستهجنها جمهور نيويورك، ومُنعت في مدريد^(١).

^١ استخلص يونسكو من هذه المسرحية باليه للتلفزيون الدانمركي عام ١٩٦٥ تحت عنوان "سباب الزواج".

"المستقبل في البيض"

كانت جاكلين تنادي "المستقبل لنا!" وفي عام ١٩٥١ أتبع يونسكو مسرحية "جاك" بمسرحية أخرى تحت عنوان "المستقبل في البيض" أو "يلزم كل شيء لصنع العالم".

نجد في هذه المسرحية الأشخاص أنفسهم مع تبديل بسيط: بعد أن توفي الجد استقرت صورته في إطار مذهب. جاك وروبرت متعاقبان جالسان على الأرض وسط الغرفة يموءان: "مياو.. مياااا.. و.. و.. ررون.. ررون.. رروون..". والدان يهزان رأسيهما، يرفعان كتفيهما، ينتظران بنفاذ صبر. مرة أخرى تتدخل جاكلين: (إنها هنا لتدفع الحدث إلى الأمام ولتصحح المواقف) "يكفي، أقول هذا يكفي!".

تهز الزوجين اللذين يتوقّان عن المواء، ويستيقظان بصعوبة، ينهضان ويطلبان الطعام. يحضر الأهل طنجرة من الفخار.. ملأى بالبطاطا مع شحم الخنزير. يهجم عليها جاك وروبرت ويأكلان باليدين. يطلبان المزيد من شحم الخنزير.. المزيد من البطاطا.. "قدموا لهما ما يطلبان، يقول والد جاك إلى جدة جاك، شحم الخنزير يساعد على تحسين النوع".

يُنقل إلى جاك نبأ وفاة جدّه، وبما أنه لم يصدر عنه أي ردّ فعل، ولم يظهر الحزن عليه، تحاول العائلة "العزف على الوتر الحساس" من خلال مشهد طويل لتبادل التعزية.

الأمر الهامة تنتظر، والزمن يضغط. تُوقف الأسرة مشهد التعزية، والجد الذي كان قد شارك في التعازي يعود إلى إطاره المذهب. يشرح والد جاك لولده أنه، بعد هذه الوفاة، يتحتم عليه أن يحقق استمرارية العرق الأبيض من خلال "إنتاج منتوجات جديدة بديلة"، وبينما تتعالى هتافات "يعيش العرق الأبيض" يتم إحضار روبرت. يسمع الحاضرون قرق الدجاجة في الغرفة المجاورة: "بق، بق، بقيق..". بينما يتهالك جاك على مقعد ويشدّ على نفسه كأنه "يعاني آلام المخاض".

يُنقل جاك إلى ماكينة التقطيس. تحضر سلال ملأى بالبيض ويُنثر البيض تحته وفوقه ويتعالى صراخ: "إنتاج.. إنتاج.. إنتاج..". يعيش العرق الأبيض ثم يتمدد جاك بصعوبة وهو يردد: "توف، توف، توف..". ويدور الحديث عن المستقبل:

- أفكرُ بمستقبل هؤلاء الأطفال جميعاً.

- ماذا سنفعل بهذه السلالة؟

- لحم يوزّع بالشاحنات.
- وسنحتاجه لصنع العجة.
- وربما خلقنا منه رياضيين؟
- وسنحتفظ بقسم منه لإعادة الإنتاج.
- وقسم لصنع المعجنات.
- وقسم للفظائر المحشوة.
- وسنصنع من قسم منه ضباطاً، ومسؤولين، وشبه مسؤولين، سوف يخلقون من ذلك الإنتاج مختلف الأشخاص والأشياء: خدم ومدراء عمل، صوف للحياكة، بياوات، ملوك، أباطرة، رجال شرطة أصحاب نزعة إنسانية، انتهازيين، ثوار.. يلزم كل شيء لخلق العالم.
- تطول هذه القائمة وسط الحماس العام، على إيقاع متسارع لعملية إحضار السلال المملأ بالبيض، واللاهات: "توف، توف" والفرق: "بق، بق، بقيق..".

هجاء معنوي:

التشابه واضح جداً بين مسرحية "جاك" ومسرحية "المستقبل في البيض": الأشخاص أنفسهم، الوقت ذاته، كما نجد أيضاً الفظاظنة نفسها، وبذاءة الكلام، وفحش المواقف، وتشوّه اللغة، واستخدام الأقنعة، والماكياج.

الإيقاع متصاعد باستمرار. المشاهد المتتابعة - استيقاظ الزوجين، الوجبة، التعزية، الولادة، حضن البيض - تترايط وتتسارع حتى تفقد كل عنصر إنساني وتجعلنا نحلم بالحركات الميكانيكية في الإنتاج حسب مذهب تيلور^١.

تعتمد المسرحية على شعارات تحديد النسل والخصوبة، إنها هجاء مسل، ناجح، لكنها ليست أكثر من هجاء. نقطة انطلاقها تعتمد على فكرة وليس على تجربة حياتية صادقة. تمثل الصور المسرحية مواقف كاريكاتورية ولا تجسد أحلاماً؛ ولا تمتد المسرحية جذورها إلى ظلمات الرغبة والغريزة، كما أنها لا تعبر عن تمرّد أو ثورة. إنها تمرين ناجح، وطريقة تجعل من صاحبها سيّد الأساليب المسرحية.

^١ منهج تيلور: منهج وضعه للمهندس تيلور (١٨٥٦-١٩١٥) لتنظيم العمل الصناعي تنظيماً علمياً باستعمال الحد الأقصى من الأجهزة والتخصص الدقيق، وإلغاء الحركات الثاقلة (المنهل).

مسرحيات قصيرة:

إلى هذه الفترة من الاكتشافات المسرحية - عامي ١٩٥٠ - ١٩٥١ - تنتمي مشاهد منعزلة، اسكتشات مبنية على التلاعب باللغة، وأخرى تقوم على استخدام أساليب مسرحية جديدة.

قدّم جاك بوليفري سبعاً من هذه المسرحيات القصيرة على مسرح لاهوشيت، في أيلول ١٩٥٣ وهي: صبية للزواج، معرض السيارات، هل تعرفونه؟ المعلم، ابنة الأخ تترّوج، الزكام في الحلم، الحرارة المرتفعة^(١)، إضافة إلى اسكتش "التحية" الذي لم يقدم على المسرح مع مسرحيات أخرى جديدة. حتى عام ١٩٦٩.

نرى في اسكتش "التحية" وهو بداية مسرحية لم تكتمل، ثلاثة أشخاص وهم ينوعون في التعبير المؤلف "كيف حالك؟" وفي الصالة أربعة مشاهدين يعلّقون على ظروف الحال، المأخوذة من المعجم، أو التي اخترعها يونسكو.. ترد هذه الظروف حسب ترتيب أحرف الهجاء: بخير، بتضخّم، مقطوع الرأس، بطريقة برمائية.. وينتهي المشهد على النحو التالي:

- السيد الأول: أنا في حالة رائعة، أنا في صحة يونسكية!

- السيد الرابع: كنت على يقين من ذلك، الكلمة الأخيرة متوقعة تماماً.

نجد الأسلوب نفسه في اسكتش "الزكام في الحلم" حيث يقترح صيدلي على زبون مصاب بالزكام قائمة من الأدوية ذات أسماء غريبة.

أما اسكتش "معرض السيارات"، وهو في الأصل اسكتش إذاعي، فهو لعبة أخرى من ألعاب اللغة: يبقى بناء الجملة صحيحاً، دقيقاً، أما الحوار فيصوّر حديثاً في معرض السيارات.. لكن كلمات ضائعة تحل محل الكلمات التي يتوقّعها السامع، والوضوء الخلفية التي نسمعها تمثّل أصوات خَم الدجاج.

- البائع: هذا هو نموذجنا الأول، إنه جان راسين بأروع عجلات.

- السيد: خمس عشرة؟

- البائع: نعم خمس عشرة، لكنك تستطيع إضافة عجلة رابعة بكل سهولة.

^١ المسرحية الأخيرة مقتبسة عن كارجيلي، وهو مؤلف روماني من بداية هذا القرن، فُتح على وصف له في كتاب ملاحظات وملاحظات مضادة^٢ لقد فقدت مخطوطات ثلاث من هذه المسرحيات وهي: هل تعرفونه؟ الزكام في الحلم، الحرارة المرتفعة.

- السيد: لا تكرر ذلك، خمس عشرة عجلة ما هي أبداً سوى اثنتا عشرة، هذا معروف، يمكن إنقاذك من الخطر ولو كنت على بُعد إصبعين فقط، إعجاباً بمهارتك كسمكري..

وفي المسرحيات الأخرى، يعتمد العمل على الرؤية بشكل خاص. ففي مسرحية "ابنة الأخ تتزوج" ترى مشاهد تهرجية حول موقف طلب الزواج. أما مسرحية "هل تعرفونه؟ فهي مشهد من الستربيتز "التعري" الأخلاقي والجسدي.. أما مسرحيات "صبيبة للزواج" و "السيد" فإيهما تعتمدان على لعبة مسرحية ختامية: الصبيبة الخجولة التي يتحدث عنها سيد وسيدة في حوار يكس كل توافه الحديث (المطر والطقس الجميل، غلاء الحياة، الصحن الطائرة، الخ..). ما هي إلا رجل عريض المنكبين، كثيف الشاربين، ذي صوت جهير. أما المعلم الذي ينتظره المعجبون بشوق، ويتم الإعلان عن قدومه على طريقة الحزورة العتيقة: "إنه يستعد.. يأكل حساءه.. مرّ من هنا.. سيمر من هناك.. ها هو يصل..". هذا المعلم رجل بلا رأس.

هذه المسرحيات القصيرة، المألى بالحيوية والحماس، المكتوبة ببراعة، بسّرت ليونسكو اكتشاف الأساليب والحيل المسرحية. إنها فترة "الاكتشافات" لقد جرّب مختلف الإيقاعات المسرحية.

وفي الوقت نفسه كتب مسرحية "الكراسي".

"الكراسي"

يعود تاريخ كتابة الكراسي إلى نيسان - حزيران ١٩٥١. قدّم سيلفان دوم المسرحية على مسرح نوفو لانكري في ٢٢ نيسان ١٩٥٢. لقد كانت كارثة رغم التصفيق الحار الذي قابلها به أداموف وأوديبرتي ليلة بعد أخرى ورغم مقال "دفاع عن الكراسي" الذي ظهر في مجلة "فنون" ويحمل توقيع كونو، سوبرفيل، أداموف، وبيكيت. "هذا التهرج المأساوي" الذي يراوح على حدود الضحك والرعيب، صدم الجمهور بتقنيته وأسلوبه. لكي تعرف المسرحية النجاح، كان لابد من إعادة تقديمها عام ١٩٥٧ من إخراج جاك موكلير الذي كان أقل تجريداً من سيلفان دوم، كما أن التمثيل كان أقل تهرجاً، والشخصيات أكثر "إنسانية" وباختصار، كان الإخراج مطمئناً أكثر والجمهور أكثر انفتاحاً.

يعرض الديكور غرفة عارية تقريباً، ذات جدران دائرية.. إنها برج وسط جزيرة، يحرسه عجوزان: الرجل في الخامسة والتسعين من عمره... قرون عديدة؛ أما المرأة، سميراميس، ففي الرابعة والتسعين من عمرها... الرجل جاثم على كرسي، يراقب عبر كوة صغيرة، تأتي المرأة وتشد من كُمه، تسحبه، تجلسه على ركبتيها: كلاهما يستعيد الماضي، بجتر حكايات قديمة، يتسلى بالأحداث اليومية المتكررة، يلوک الطموحات المجهضة:

-[..] آه، صحيح، أنت بالتأكيد عالم عظيم، أنت موهوب يا حبيبي، كان باستطاعتك أن تصبح رئيساً أو ملكاً أو دكتوراً أو ماريشالاً، فقط لو كان لديك قليل من الطموح..

لم يعرفا في الحقيقة سوى الرغبات والحسرات، لقد انقطعا عن العالم، ومنذ خمسة وسبعين عاماً وهما يلعبان، لوحدهما، يوماً، لعبة كأس الشاي، ويستعيدان حكاية "لقد ضحكنا إذن..". ويكرران وصف باريس "مدينة النور التي انطفأت منذ أربعمائة ألف سنة". يتعب العجوز في النهاية ثم يبدأ في اليكاء طالباً أمه. تواسيه العجوز وتهدهده، ثم تحدثه عن "رسائله في الحياة". بهذا فجأة، يغادر ركبتى المرأة ويصبح على التوالي: "رجلاً، جندياً، رقيباً في المدفعية.

- أنا صاحب رسالة، لقد قلت حقاً، أنا أناضل، مكُلف بمهمة، عندي شيء في بطني، عندي رسالة أوصلها إلى الإنسانية جمعاء..

دعا "أصحاب الأملاك والعلماء" للاستماع إليه: حراس، أساقفة، أصحاب فنادق وبنوك، بروليتاريون وموظفون، أطباء نفسانيون ومعهم مرضاهم، كلهم، كلهم، إنهم، في المحصلة علماء وأصحاب أملاك وبما أنه يفقد طلاقة الحديث فقد استأجر خطيباً.

وصل المدعوون فسمع صوت انزلاق قارب على الماء، ورنين جرس الباب. يستقبل العجوز سيدة غير مرئية، برحبان بها، يجلسانها، ويبدأن الحديث.. فسمع رنين الجرس من جديد. يدخل، دون أن نرى أحداً، كولونيل مزين بالأوسمة، ثم سيدة كان العجوز يحبها في الزمن الغابر، ثم حفار كليشيات، وآخرون، وآخرون أيضاً. يؤدي العجوزان مراسم الاستقبال ويعرفان المدعوين على بعضهم البعض، ويفتحان باباً ويحضران كراسي ويبدأن أحاديث مع المدعوين. يذكر الرجل العجوز "الحسنة" بحبهما القديم لكنها تغازل حفار الكليشيات وتنتازف بقبح وبذاءة. يزداد رنين الجرس، يزداد عدد المدعوين اللامرئيين، ويتم ترتيب الكراسي المرئية على منصة المسرح، الكراسي التي

يحضرها العجوزان بتسارع متزايد، وفي النهاية صارت الكراسي تأتي من تلقاء نفسها.

لم يعد العجوزان قادرين على الحركة والانتقال: المدعون كثر، والكراسي تزحم المكان.. ينحران بكوعيهما، ويطلبان من المدعين الجلوس. لقد جمدا، كل واحد في طرف بعيد من المسرح.

يتعالى صوت للأبواق: نور ميهـر يعلن عن وصول للإمبراطور. يعبر العجوز، وقد أربكه النبا، عن فرحه وفخره، ويعلن، ما بين النحيب والاستغراب، إخلاصه، وذهله، وفشله. يطلب العدل، وتردد العجوز نهاية كلماته كأنها صدى ساخر.

بينما كان الخطيب يدخل بصمت، ويصعد إلى المنصة، ويوزع الصور، راح العجوز يشكر الإمبراطور والجمهور:

- يا صاحب الجلالة؛ لم نطلب، أنا وزوجتي، شيئاً من الحياة. يمكن لحياتنا أن تنتهي في هذه الخاتمة المجيدة.. شكراً للسماء التي وهبتنا هذه السنوات الطويلة الهادئة، لقد كانت حياتي مملوءة تماماً. أدبت رسالتي. لن تكون حياتي بلا جدوى، إذ أن العالم كله سيعرف رسالتي [..].

- نعم، نعم، نعمت ونحن في أوج مجدنا.. لنمت كي نصبح أسطورة.. سيستمر شارع باسمنا على أقل تقدير..

يرمي كل من العجوزين نفسه من النافذة وهو يصرخ: "عاش الإمبراطور" يأخذ الخطيب مكانه، يفتح فمه، لكن لا يخرج منه سوى التأوهات، وأصوات حلقية، إنه أطرش، أخرس.

كوكبة موضوعات

تقدم مسرحية "الكراسي"، بالمقارنة مع المسرحيات السابقة، موضوعات أغنى، وبناءً درامياً أكثر تجريداً، ورمزية أكثر تطوراً.

مرة أخرى، يقدم يونسكو الزوجين على المسرح لكنه يقدمهما هذه المرة تحت نور جديد.. ترك العجوزان خلفهما ماضياً؛ تاريخاً حقيقياً أو وهمياً، ذكريات، وحسرات، وأحلاماً. يمثل الزوجان هنا حقيقة أخلاقية لا بيولوجية، وهذا المنظر يفسر شبكة الموضوعات في المسرحية.

يذكر عمر العجوزين بموضوعة الزمن الذي يستهلك ويتلف. العجوزان لا

يتمتعان بـ "حكمة الشيوخ" حديثهما هذيان، نسيج من غباوة يلف مواضيع نافهة. الزمن يستهلك الذكاء، ويثلف العواطف أيضاً. سام دبق ثقيل مثل الماء الأسن في بركة راكدة يغلف كلّ القسم الأول من المسرحية، كما أن الملهاة التي يتسليان بها لم تخدعهما إلا منذ اللحظة التي تحول فيها اللحم إلى هذيان، للحظة التي ملاّ فيها وحدتهما بأشخاص وهميين.

الزمن هو الموت أيضاً، موت عبثي كريحه، انتحار الزوجين غرور وتفاهة: لن ينقل أحد رسالتهم، ولن يدخل عالم الأسطورة، ولن يُكتب اسمهما على لوحة معدنية في شارع. ليس هناك، في رأي يونسكو، موت مشرق لذيق، ونهاية المسرحية استهزاء قاس من أسطورة فيليمون وبوسيس^(١).

لقد ارتدى الخوف من الموت قناع الحنين إلى الطفولة. عندما انتحبت العجوز بين ذراعي المرأة، وراح يشكو يتمه، ظنّ أنه يخدع للزمن. لقد واسته، وقامت بدور الأم، وشاركته لعبته وجنونه.

لكن موضوع الطفولة يأخذ بُعداً آخر عندما يتحدث العجوزان عن ولدهما؛ الولد الذي رغم توسلاتهما تركهما بلا عودة "عندما بلغ السابعة، وهي سن الرشد" كما قالت العجوز. ذكرى أم حسرة، فإن هذه الصورة تسيطر عليهما، هل الطفولة فردوس حقاً؟ لقد روت العجوز كيف أدرك طفلها فكرة الشر.

تتحدث العجوز، من ناحية أخرى، عن حنان زوجها تجاه ولده، أما الرجل العجوز فقد روى كيف تخلى عن أمه وتركها تموت وحيدة في حفرة. يوضح كلامه المتناقض حقيقة مبهمة دائماً: سن البراءة هو أيضاً سن القسوة: "يتخلى الأبناء عن أمهاتهم دائماً، ويقتلون آباءهم تقريباً، هكذا هي الحياة..".

أخيراً، هناك في حديث العجوزين كلّ الأحلام الضائعة. تتحدث المرأة عن عبقريّة زوجها: "لو كنت أردت..". تحدثت في كل ما كان بإمكانه أن يكونه أو أن يفعله. لقد أعطت نفسها أهمية لأنها وجدت العنب الحامض: "ماذا كان ذلك سيقدّم لنا؟ ما كانت حياتنا تغدو أفضل" تبادلّت مع حَفّار الكليشيهات أحاديث جنسية، كما

^١ فيليمون وبوسيس Philemon et Baucis: زوجان أسطوريان من الميثولوجيا القديمة، كنّا يسكنان في فرجيا، ويستقبلان بحفاوة بالغة زيوس وهرميس اللذين تنكّرا في زي مسافرين، بينما رفض سكان البلدة الآخرين استقبالهما، نجا فيليمون وبوسيس من الطوفان الذي أرسله الإلهان عقاباً لسكان فرجيا، ثم تحولّ كوخ فيليمون وبوسيس إلى معبد لطلب أن يصبحا خادمين له، وأن لا يموت أحدهما قبل الآخر، وبعد عمر طويل تحولّا إلى شجرتين، لقد صار اسمهما رمزاً للحب الزوجي (لاروس).

أن تصرفاتها الداعرة تكشف عن شخصية مكبوتة. أما الرجل العجوز فقد حدثت "حسناة" عن حب لم يجرؤ على إعلانه وبقي مثل شوكة في حلق الذكريات. هكذا نرى أن صورة الزوجين استُخدمت مثل قطب تتمحور حوله جميع الأفكار في حياة لم تعرف سوى الفشل، موضوعات المسرحية تشكل كوكبة لحياة ضائعة.

"الكلامية"

الحركة الدرامية التي تنظم الموضوعات هي أولاً سيل الكلام. الذكريات والأحلام، الشخصيات اللامرئية لا وجود لها إلا من خلال الكلمات التي توحى بها. يتحدث العجوزان، يكرران، يجتران، فتتبلور حقيقة ما. لكن إذا بدا أن العجوزين يفكران بما يقولانه، في البداية، فإننا نشعر بسرعة كبيرة، وبوضوح يزداد تدريجياً، أنهما لا يعلنان سوى نقل كلام ينتظم من تلقاء نفسه، وحسب آلية واضحة. إن شيئاً ما يتحدث عبر الشخصيتين.

تترافق الكلمات، في حالتها الأولية، كما في المعجم، أما في ثروة العجوزين فيتحول السرد إلى إحصاء، إلى ترابط تلمحي للصور: كما في تقسيمات الزمن وأجزاء الجسم، أو أسماء المهن أو الأمراض التي تسببها الفيروسات.

- لقد كنا مبللين تماماً، متجمدين حتى العظم، منذ ساعات وأيام وليالي وأسابيع..

- منذ أشهر..

- تحت المطر.. كنا نفرك الأنف والركبتين والألف والأسنان.. نتقطع السلسلة وتسحب معها مفردات من سجل آخر:

- الحراس؟ الأساقفة؟ الكيمائيون؟ تجار اللحاس؟ عازفو الكمان؟ المنديبون؟ الرؤساء؟ رجال الشرطة؟ التجار؟ البنائيات؟ حاملات الأقلام؟ الكروموسومات؟ (الصيغيات). في مكان آخر، لم يعد الرابط الجامع هو التلميح بل التشابه في اللفظ: "الباب، والفرشات، والأوراق؟" ولا يبقى من الجملة إلا لعبة صوتية:

- لقد ضحكنا من ذلك الغبي، إذ وصل عار تماماً ضحكنا، الكيس، كيس الرز، الرز في البطن، وعلى الأرض..

- لمنع فطيرة العين؟ عين العجل، وساعة من الزبدة، وسكر لعصارة
المعدة.. لك أصابع ماهرة..

هذا السرد مضحك ومسلّ، لكن اللعبة ليست مجانية دائماً، فمن هذه
التجميعات تولد صور غير مألوفة تكشف، مثل زلّة اللسان، عن أفكار نرفض
البوح بها.

وفي أحيان أخرى أيضاً، يجرف سيل الكلمات أمثالا أخلاقية واستشهادات
أدبية تسفر عن وجهها وهي على السطح قبل أن تختفي في ذلك السيل.
- أنا لست نفسي، أنا كائن آخر، أنا الواحد في الآخر.
- يا ابنائي، شكوا بعضكم ببعض.

الحركة في هذا الكلام الآلي، في هذا الهذيان، حركة متصاعدة تنقطع فجأة.
الحوار الصميمي يصبح ثرثرة غثّة؛ ويتضخم سيل الكلمات، العجوز يخطب،
واقفاً على كرسي، والمرأة تردد كلماته مثل الصدى، وأخيراً هتافات: "عاش
الإمبراطور" ثم يصمت كل شيء، ولم نعد نسمع سوى نخير الأطرش -
الأخرس.

الزوبعة

تضاعفت حيوية الحوار من خلال التمثيل، حملت حركات العجوزين، في
البداية، علامات التقدم في السن.. الإيقاع بطيء حتى يرن الجرس أول مرة.
أنداك تحضر العجوز كرسيّاً ثم آخر ثم تنطلق الحركات الآلية شيئاً فشيئاً: تنفتح
الأبواب وتغلق، تنزلق الكراسي وتصطف، يذهب البطلان ويعودان بسرعة
متزايدة، تلتهم الحركات الآلية اللاإرادية الحياة وأصبح كل شيء ألياً.

هذه الحركة السريعة التي تشبه حركة الزوبعة هي صورة الفراغ. إنها
تخلق عالماً وهمياً يتلاشى في النهاية مثلما يتوهج حلم ذهبي في العدم. إنها
تعطي المسرحية معناها ومغزاها. وهكذا فإن التمثيل الواقعي يكشف عن نوايا
المؤلف. فإذا ما بقيت العجوز عجوزاً، بطيئة الحركات خلال حفلة الاستقبال،
وإذا ظنّ المخرج أن الحوار يشير إلى اثني عشر شخصاً لا مريضاً واكتفى بعدد
مماثل من الكراسي، وإذا ما حذفنا الرقصة، وغاب الانطباع بوجود جمهور
غير فلان يبقى سوى عجوزين خرفين يتبادلان هذه المهزلة.

العدم والوحدة:

تنزع الحركة السريعة عن الواقع كثافته وحقيقته. يغدو الأشخاص دُمى، والأفعال تترد إلى مجرد حركات، والمدعوون هم شكل من أشكال الغياب، والكلام لا يوصل أية رسالة؛ والعالم، ساخر أم وهمي، يفقد كلَّ جوهر وكل قيمة. العالم لم يعد موجوداً حقاً، تخلق الزوبعة دواراً ميتافيزيقياً: "تهريج مأساوي" كما كتب يونسكو كعنوان ثانوي للمسرحية. كائنات هزيلة، وإيماء ساخر تحاول ملء الفراغ وكشف العدم^(١).

لكن المسرحية تعني أيضاً العزلة الإنسانية وهي شكل آخر من أشكال الفراغ، في برجهما، وفي جزيرتهما المحاطة بالمياه على مدى النظر، يعيش العجوزان وحيدين. لقد انقطعوا عن العالم كله ولم ينجحا أبداً في أي شيء. ليست وحدتهما اللقاء المستحيل بين وعيين منفصلين: إنها موقف حي نموذجي، إنها شكل من أشكال الشرط البشري وحدة التفاهة والفشل. لقد اكتسب مسرح يونسكو، مع مسرحية الكراسي، بُعداً ميتافيزيقياً.

"ضحايا الواجب"

بينما كانت تسبلا شيلتون - "بهلوان المنصة" كما قال عنها يونسكو - وبول شوفالييه يرتبان كراسي لا يجلس عليها أحد، أمام صالة خالية من المشاهدين، كان يونسكو يكتب مسرحية "ضحايا الواجب". عُرِضت المسرحية في شباط ١٩٥٣ على مسرح الحي اللاتيني من إخراج جاك موكيير.

"شبه دراما" كما يقول العنوان الثانوي، لكن المسرحية تتضمن عقدة، بل عقدة بوليسية، إضافة إلى العقدة البوليسية، يشرح شوبير لمادلين أن المسرح كله، منذ الإغريق حتى أيامنا، لم يكن إلا مسرحاً بوليسياً. هناك دائماً عقدة تحلّ، والمسرح كله عبارة عن دراما أو شبه دراما.

تبدأ "ضحايا الواجب" كما بدأت المغنية الصلحاء: مادلين ترتق جوارب عتيقة وشوبير يقرأ جريدة ويعلق على احتياطات "نظام النقشف" التي اتخذتها

^١ أثناء إخراج جاك موكيير للمسرحية، حقق لا واقعية هذا العالم بواسطة الإضاءة، وتبديل الديكور، كان الديكور يمثل غرفة البواب ثم تصبح الجدران شفافة، ثم تتحول الغرفة الصغيرة إلى رواق رحب يشع بالأفوار، بعد انتحار المعجوزين تضعف الأفوار وتتلشى ولا يبقى سوى الغرفة المعتمة.

إدارة المدن الكبرى لعلاج "الأزمة الاقتصادية، والخلل النفسي، ومضايقات الحياة".

الباب يُقرع، يظهر في إطار الباب شاب خجول يتأبط حقيبة، اعتذر وقد ظهر عليه الارتباك لأنه سبب بعض الإزعاج. لقد بحث عن حارسة البناية من أجل معلومة بسيطة لكنه لم يجدها في غرفتها.. وجدته مادلين لطيفاً مؤدباً فأدخلته وعرضت عليه خدماتها، سألت الشاب - وهو مفتش بوليس - بخجل:

- الشرطي إلى شوبير: [..] أنا آسف لأنني أضعت وقتك، أريد فقط أن أعرف إن كان المستأجرون الذين كانوا قبلكم هنا، هم آل مالوت، بحرف التاء، أما مالود، بحرف الدال، هذا كل ما أريد معرفته.

- شوبير (بلا تردد): مالوت، بحرف التاء.

- الشرطي (أكثر بروداً): هذا حقاً ما كنت أعتقد.

آنذاك يتقدم الشرطي في الغرفة دون كلام، يرمي حقيبته على الطاولة، يجلس على كرسي، يشعل سيجارة، ثم ينظر إلى مادلين وشوبير مباشرة:

- الشرطي: [..] لقد عرفت إذن آل مالوت؟

- شوبير: (مرتبكاً قليلاً): كلا، لم أعرفهم

- الشرطي: كيف عرفت إذن أن اسمهم ينتهي بحرف التاء؟

- شوبير (مندهشاً جداً): آه، فعلاً، هذا صحيح.. كيف عرفت؟ كيف

عرفت؟.. لا أعرف كيف عرفت!

يبدأ الاستجواب حسب الأصول: "انزع رباطة عنقه يا سيدتي، ربما نزعجه، ستتحسن الحال بعد ذلك [..] الحزام أيضاً، ورباط الحذاء" يتحدث الشرطي - وقد صار سيادة المفتش العام - بصوت عنيف، حاسم، ويطلب فنجاناً من القهوة مع اثنتي عشرة قطعة من السكر، وقدهاً كبيراً من عصير التفاح". يخاطب مادلين بصيغة المفرد ويصبح فظاً، سوقياً مع "زبونه"، غير مكان كرسيه، وراح يدور حول شوبير، ثم أخرج صورة من جيبه: "حاول أن تتشط ذاكرتك، انظر إلى الصورة، أهذا هو مالوت حقاً؟" بذل شوبير جهوداً كبيرة واسترجع ذكريات: زواجه، القطعة العسكرية، المدرسة، بيت طفولته، صور أخرى.. لكنه لم يتذكر مالوت. لقد غاص، مغمض العينين، في الماضي. انزعج الشرطي، وساعدت مادلين في استمرار التحقيق.

بذلت فستاتها القائم، ولم يعد صوتها جافاً، إنها شابة، تضمّ شوبير بفتور،

وتهمس له أوامر الشرطي، وقد أيقظت نداء الرغبة، "لا تصلب ساقيك! انتبه، لاتنزل! الدرجات مبللة.. امسك الدرابزين جيداً.. انزل.. انزل.. إذا كنت تريدني!..".

يمدّ لها شويبر ذراعه ويغوص في ظلمة تزداد كثافة، والوحل يعلق بحذائه، قدماه ثقيلتان.

يغوص شويبر في المستنقع. يبلغ الوحل الركبتين، الذقن، الفم، ما عدنا نسمعه: "لقد تجاوز جدار الصوت". تابع الغوص، ما عدنا نرى سوى الأنف، وأذناً واحدة. مادلين تقوده: "لا يزال شعرك ظاهراً.. انزل، ابسط ذراعيك في الوحل، افرش أصابعك، اسبح إلى الأعماق، يجب أن تصل إلى مالوت بأي ثمن.. انزل.. انزل.."، اختفى عن الأنظار، "لقد تجاوز جدار الرؤية".

الشرطي أيضاً يتحوّل. لقد صار عشيق مادلين، يتشاجران، تحاول الانتحار بالسهم، يمسك ذراعها ليمنعها، وفجأة يجبرها على تناول السم، شويبر يتمم: "أبي، أمي، أبي، أمي".

شويبر عاد طفلاً، ومادلين صارت أمه. شويبر مراقب، الشرطي والده. يحاول الاثنان أن يجدا، خارج نطاق الخصام، كلمات الحب المتبادل. يطلب الولد الصفح من والده، يروي الأب قصة حب غيبي لكنه أكثر اتساعاً من الكون.

ينقطع هذا المشهد المؤثر فجأة. يعود الشرطي إلى سوقته وسخريته. يبدأ الاستجواب من جديد.. يجلس كل من مادلين والشرطي في مقعد، إنهما الآن في المسرح. شويبر يتابع طريقه عبر الزمن الذي صار فضاء ويصف كل ما يراه: صور تزداد رخاوة، يتكشف منظر ما، و بدايات كون، فوضى، وفوهة فاعرة. يسيطر عليه حنين مجهول، ومشاعر نقيّة، متعارضة: "فرح.. ألم.. تمزق.. اطمئنن.. غبطة.. فراغ.. ألم عظيم.. أشعر أنني قوي، أشعر أنني ضعيف، أشعر أنني مريض، أشعر أنني بخير، لكنني أشعر خاصة بنفسي، مازلت أشعر بنفسي..". ثم تلفه الظلمة، لقد نزل بعيداً جداً. أعاده الشرطي، وقد سيطر عليه القلق، إلى الطريق: يجب عليه أن يجد مالوت، مهما كلف الأمر.

يصعد شويبر من الأعماق، يرى مدناً: هونفلور، ديب، بيزا، برلين، نيويورك، يرى أنهاراً وهاذاً وغابات وجبالاً، ويبدأ يتسلق الجبل ببطء: يصعد على الكرسي، يصعد على الطاولة، ثم يضع الكرسي فوق الطاولة.. يرشده ضياء الشمس فيسير على درب وعر، يتشبث بالجنوح، والحصى، يتسلق حيواً علي ركبتيه رغم العطش والحرارة. ثم يصبح الصعود سهلاً، وها هو شويبر

يستنشق هواء خفيفاً، ويتحلق في النور، ويستمر في الصعود، سوف يفرّ، يطير عما قريب.. تخاف مادلين، إنها تخاف الوحدة، تبكي، تتوسل، تتحول إلى شحاذة، إلى امرأة هجرها زوجها مع أطفالها. الشرطي قلق أيضاً، يلجأ الاثنان إلى إثارة عواطف شوبير فيمتحان مزاياءه، ويتحدثان عن امتيازات وضع اجتماعي متميز :

.. الشرطي: الوطن الذي شهد ولادتك بحاجة إليك.

.. مادلين (لشوبير): أنا لا أناضل إلا من أجلك.

.. الشرطي: الحياة أمامك، المستقبل لك! ستكون غنياً، سعيداً، وغنياً، ستكون ذا رتبة عالية في بلاد الدانوب! ها هو قرار تعيينك! (إلى مادلين) طالما أنه لم يطر، لم نخسر شيئاً..

.. مادلين: إليك الذهب، إليك الفواكه..

.. الشرطي: سنقدم لك رؤوس أعدائك على طبق.

مادلين: سنتنّم بطريقة سادية!

.. الشرطي: سأجعل منك أسقفاً!

مادلين: بل بابا!

بدلاً من أن يطير شوبير، يتهاوى في سلة كبيرة لأكوراك. إنه ولدٌ صغير يُرفع منها بسحبه من أذنه؛ إنه طفل مكرٍ ينتهي به الحال إلى الاعتراف بأنه يعرف القاب مالوت كلها؛ إنه طفل هزيل يحتاج إلى ثقل إضافي "للتصق بالواقع"، كما بيّن الشرطي - الدكتور. من أجل تدعيمه وتقويته، من أجل سدّ فراغات ذاكرته، يخرج الشرطي من حقيبته قطعة خبز ضخمة: "كلّ!". يعترض شوبير، ثم ينفذ الأوامر وهو ينتحب؟ أمّا الشرطي فكان يردد! "امضغ.. ابلع.. ابلع بسرعة.. امضغ.. بسرعة أكبر..".

أثناء هذا المشهد تدخل سيدة، بصمت وعناد (تجلس في مقعد وتبدأ في أكل الفستق) ومعها نيكولادو، شاعر من أصدقاء شوبير، يعرض تصوّره عن المسرح الثوري. يظهر الاهتمام على الشرطي لكنه يعلن أنه "منطقي بطريقة أرسطوية، صادق مع نفسه، مخلص لواجبه، محترم لرؤسائه". مادلين تأتي وتروح حاملة فناجين ترتبها على البوقيه بسرعة متزايدة. يقترب نيكولا من الشرطي، يهز سكيناً ضخمة، ويطعنه. يموت الشرطي وهو يهتف: "عاش العرق الأبيض". أريد وساماً بعد وفاتي.. إنني أموت ضحية الواجب.."

يجب أن لا تذهب تضحية الشرطي هدرًا. يأخذ مكانه مادلين ونيكولا، ويحاولان العثور على مالوت، ويقدمان لشويبير قطعاً من الخبز: "هيا، كل، لكي تسد فراغات ذاكرتك!". آنذاك يبدأ الجميع، وهم ضحايا الواجب، في مضغ الخبز أو الفستق وكل واحد يشجع الآخر: "امضغنا، ابلعنا، امضغنا، ابلعنا..".

كاليديوسكوب (المشكال):

انطلق يونسكو في كتابة "ضحايا الواجب" من أقصوصة من حوالي عشر صفحات عنوانها "ضحية الواجب". استُخدمت أرضية للمسرحية، وتنتهي بموت الشرطي - وهذا ما يفسر اختلاف العنوان -، الأقصوصة نقل لحلم، أما المسرحية فإنها تستخدم صور الأحلام، لكنها تعبر أيضاً عن فكرة نهائية يؤمن بها الكاتب، تم تطويرها وتوسيعها.

تحتل صور الذكريات مكاناً هاماً في المسرحية: الفكرة الأساسية هي الغوص في الماضي، البحث عن حقيقة نفسية غير مُدركة، العقدة البوليسية ليست إذن ذريعة، أو موقفاً كوميدياً، إنها ترمز إلى التقصي السيكولوجي. هناك لغز حقاً: مالوت و "الحكايات الشخصية" عند شويبير إنها كل واحد.. العودة إلى الماضي تشكل بحثاً، ولكي يبين صعوبة تحليل الفكر اللاواعي يتحول الاستجواب إلى تحقيق؛ لأن اللغز الحقيقي هو الإنسان.

لا يعتمد ترتيب الذكريات على تسلسل زمني بل يخضع لمنطق الأحاسيس.. يجمع شويبير صوراً متباعدة في الزمن لكن مناخاً حسياً يوحد بينها، القلق أو الغبطة، الخوف أو فيض السعادة.. إنه يرى حياته كلها من جديد، أحلامه الممزوجة بالذكريات، رغباته التي لم ترتو؛ لكنه يستعيد طفولته بشكل خاص، طفولته الأولى، السن الذي تتشكل فيه، حسب النظريات الفرويدية، شخصيته، وعقده، العمر الذي تحدد فيه الصدمات النفسية صفاته الثابتة.. لقد عرف أيضاً أحاسيس هاربة تسبق لحظة الوعي، وهذه حالة نباتية صرفة، إنها حساسية تعود إلى ما قبل الولادة^(١).

إذا ما قارنا هذه المسرحية مع اعترافات "اليوميات" نلاحظ أن يونسكو تناول هنا ذكرياته الخاصة بعد أن غير قليلاً في أماكنها؛ شارع بلوميه الذي عاش فيه خلال الحرب، النزهات الليلية في الشوارع المعتمة، محاولة انتحار

^١ نتناول الحالة النبوية: للعنايات الفيزيولوجية غير الإرادية.

امه، هذا الحدث الذي رسّخ لديه اليقين في الشفاء، نزاعاته مع والده، محاولات العقيمة في الصلح، حسراته "كان بإمكاننا أن نكون صديقين حميمين"؛ الحالات الشعورية المتناقضة ذات عبء ثقيل وخفيف "حدث ذلك ذات صباح من حزيران. استنشقت هواء أخف من الهواء، أنا أخف من الهواء، الشمس تنحلّ في ضياء أكبر من الشمس، أنا أفرّ من خلال كل شيء، الأشكال اختفت. إنني أصعد.. أصعد.. ضياء يسيل.. إنني أصعد..". أبداً لم يعبر يونسكو، في مسرحه كله، عن نفسه بمثل هذه الطريقة الشاملة المباشرة.

دفاع عن مسرح متأثر بالسريالية

الموضوع الأساسي في المسرحية - بالإضافة إلى البحث عن الذات - هو النظرة إلى المسرح. حلم شوبير، في البداية، بمسرح ثوري منفصل عن تقاليد تعود إلى "واقعية بوليسية" لأن الدراما الدينية في القرون الوسطى تقتصر على رواية أحداث متتوعة - وهذه واقعية - كما أن الكلاسيكية ما هي إلا "مسرح بوليسي متميز".

يشرح نيكولا دو الشرطي آفاق التجديد، فالمسرح "غير العقلاني" غير الأرسطي الذي يتخلله يرفض مبادئ المطابقة والسببية في تطور ورسم الشخصيات؛ إنه يستوحي منطقاً مبنياً على التناقض، وسوف يكون "سرياليا باعتبار أن السريالية تعتمد على الحلم". سوف يتخلّى عن فكرة ثبات وحدة الشخصية لصالح سيكولوجية ديناميكية، لأن الشخصية هي ملتقى للتضادات، وسيجعل من الحلم وسيلة لمعرفة الواقع. سيرفض هذا المسرح الحدث الدرامي "على الأقل في شكله القديم المبتذل". يقول نيكولا دو، في النهاية، "لن يبقى هناك لا دراماً ولا تراجيدياً؛ فالمأساوي يتحول إلى هزلي، والهزلي يتحول إلى مأساوي، وتغدو الحياة بهيجة..".

هذه الأفكار - "المبتكرة" كما يراها الشرطي - هي نفس الأفكار المطبقة في المسرحية، فالحركة الدرامية لا تعتمد على العقدة البوليسية، وتتابع المشاهد لا يخضع لتسلسل زمني ولا لسببية منطقية، مادلين، الشرطي، شوبير لهم شخصيات متعددة ولهجتهم ضاحكة باكية في آن معاً.. لعبة مرايا عجيبية؛ يصدر الممثلون أحكاماً على الشخصيات التي يقدمونها، ويحددون الأشكال المسرحية التي شاركوا فيها.

السخرية، في هذا التأليف تثير الاتهامات أيضاً. نرى ذلك في المشهد الذي

يشرح فيه الشرطي ومادلين - وقد أصبحا مشاهدين يجلسان على مقاعد الجمهور، - وينتقدان هذا المسرح السريالي: "هل نحن نافعان فقط لـ فع ولنصفق؟ [..] لو راح كل واحد يذكر ماضيه، فأين نصير؟.. لدينا جميعاً أشياء نقولها، لكننا نمتنع عن ذلك تواضعاً وحياءً [..] من الأفضل، يا صديقي العزيز، أن نمضي بقية سهرتنا في الكاباريه [..] يا صديقي العزيز، هذا التهريج [..] غاية في الابتذال، كان يمكن أن يكون أكثر إثارة.. أو على الأقل أن يكون تثقيفياً، أليس كذلك، لكن هل ترى..". وفي النهاية يدخل يونسكو مباشرة في الدعوى:

- نيكولا: الحقيقة أنني لا أكتب، وأنا فخور بذلك.
- الشرطي (مذهولاً): أوه، بلى يا سيدي، بلى أنت تكتب.. يجب أن تكتب!
- نيكولا: لا فائدة، لدينا يونسكو، ويونسكو يكفي!

منهج التحليل النفسي:

يجب أن يعتمد رسم الشخصيات، كما يعلن نيكولا دو على الاكتشافات التي يحققها علم النفس الحديث^١ أي على نظرية التحليل النفسي. في بداية المسرحية نجد الشخصيات "مسطحة، ليس لها أي عمق" إنها شخصيات واقعية ذات بعدين، ثم تكتسب العمق المطلوب.

استجواب شوبر ما هو إلا تقنية الحلم التي يمارسها التحليل النفسي. يتحدث المريض وليس لأسئلة الطبيب من هدف سوى دفعه لمتابعة حلمه. التردد، الكتمان، العقبات تعترض الحكاية، كما أن عنف الشرطي يوحى بالضغط الذي يفرضه الطبيب النفساني على المريض أحياناً.

لا تمتلك الشخصيات تماسك الطبع بل لديها رغبات وميول تتصارع وتتحد في أعماق النفس الوسواس، الحب، الخوف، إدراك الذات، غريزة الحياة والموت، إيروس واثانا توس^(١). إن تحولات الشخصيات تبرز تفجر تلك الشخصيات والحالات التي تسيطر عليها تباعاً.

^١ جنلى لمى اللغة الفرنسية بين كلمة الواج des vagues وفعل يخرت dévague.

طبقات الحوار

تحوّلات الشخصيات جرأة مسرحية يجعلها غنى الحوار وتتوّعه ممكنة التحقيق. اللغة في "ضحاي الواجب" ليست ثرثرة آلية لأنها تترجم حياة وفكرًا حقيقيين.

لا شك أن بعض التلاعب بالكلام يثير الضحك: اختيار الأسماء - شوبير، نيكولادو - وبعض الردود الساخرة: "لقد اخترق جدار الصوت.. جدار النظر.. لن اخترق جدار الاندهاش..". بعض التوريات والجناس: "لقد بنى المهندسون المعماريون معبدًا فوق الأمواج - إنه يخرّف" (١)، لكن هذا التلاعب بالألفاظ ليس أساسيًا.

إن ما يصدّم حقًا هو تغيير هذه الطبقات، تترافق التحولات بتغيرات في اللهجة، والصوت، والمفردات، وفي الصياغة أيضًا. يستخدم المفتش الشاب الخجول جُملاً طويلة مركّبة، وسلسلة من القوالب المهذبة، أمّا الشرطي فيتحدث بصيغة التعجب، يلجأ إلى الشباب والفظاظة ويستخدم أحياناً تعابير نابية. يترجم الأب مشاعره بجملة ذات إيقاع موسيقي، جمل غنية بالاستعارات الجديدة، أما مادلين، الزوجة والعاشقة فليس لها اللهجة ذاتها ولا تتطرق إلى نفس الموضوعات. يتحدث شوبير مثل رجل ناضج حيناً، وطفل حيناً آخر، ومراهق حيناً ثالثاً.

يريد يونسكو أن يعزّر أيضاً عن ما لا يقال. تصبح اللغة شعراً لتعبر عن حقيقة عميقة لا تخضع لمنطق علم النحو. تنشعب المفردات بالمدلولات وتتحول طاقتها إلى سحر. تلاقي الكلمات غير المنتظر ينير الواقع والصور المستخدمة كمخدر، حسب صيغة سرّالية (١) تفتح أبواب الليل.

"..تلوح في البعيد، برّاقة وسط الظلمات، في هدوء يشبه هدوء الحلم، محاطة بالعاصفة، مدينة رائعة.. أو حديقة عجيبة، نافورة متدفقة، ألعاب مائية، أزهار من نار في الليل.. قصر من السنة الذهب المتجمدة، تماثيل برّاقة، بحار هائجة، قارات مشتتة في العتمة، في محيطات من الثلج!".

^١ أيروس كلمة يونانية تعني الحب وثالثوموس: كلمة يونانية تعني الموت (حسيب).

^٢ أرغون، فلاح باريس.

التمثيل تصوير الجرد

يبين أداء الممثلين الجهد الذي يبذله الفكر الواعي للكشف عن أغوار النفس اللاواعية، إنهم يجسدون خطوات التحليل النفسي، توضح حركات شوبير الإيمائية الغوص إلى الأعماق المظلمة ثم الصعود والطيران المدهش باستخدامه الكرسي والطاولة والمنصة، المترافق مع تبدلات الإضاءة، أما مادلين والشرطي فيعرضان من خلال حركاتهما الإيمائية التحولات التي يتعرضان لها والمواقف والأشخاص الذين يقابلهم شوبير عند كل منعطف من متاهته الداخلية. النسيان يغدو تقوياً في الذاكرة يجب سداها، تكس مادلين الفناجين على نفس الإيقاع الذي يأكل عليه شوبير خبزه، رمزية الإيماء واضحة جداً، وهكذا يحول التمثيل التحليل النفسي إلى تمثيل نفسياني^(٢).

الفرد والزوجان:

هذه المسرحية التي تشكل نظرة إلى الفرد، هي أولاً تعبير عن نظرة في النفس. وفي رأي يونسكو، لا يوجد هناك تسلسل زمني ولا تحديد سببي، فالفرد، بماضيه كله وبإمكانات مستقبله، مكشوف بتمامه أمام ذاته، والشخصية تتنظم وفق بنية مكانية، على غرار مشهد طبيعي يتنزه المرء فيه، بكل ما يضم من وهاد وقم، من أنوار وظلال، وإذا لم يستطع الشرطي أن يجد مالوت - اللغز - فهل ذلك لأنه يفتش في زمن "منطقي موغل في الأرسطية"؟.

من ناحية أخرى، يقدم يونسكو في هذه المسرحية صورة جديدة للزوجين. العجوزان في "الكراسي" بلغا نهاية العمر. إن مادلين وشوبير في خريف الحياة، في السن الذي تحفر فيه التجاعيد على وجهيهما عدداً من حالات الانفصال. ترسم العلاقات بين الزوجين صورة غامضة للمرأة، إنها - مثل سميراميس - الزوجة والأم معاً، وفيها استمرار العشيقية والخطيبة القديمتين. إنها استبدادية، وهي أيضاً ضعيفة بشكل عجيب، تخشى أن يهجرها شوبير وتستخدم جميع أساليب الإغراء للاحتفاظ به. تود لو تبقى الأشياء في مكانها، والمسافة قصيرة بين النظام والقانون: "ماذا تريد يا صديقي المسكين، القانون ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه فهو جيد وكل ما هو جيد فهو جميل. جميل جداً أن تطيع القوانين،

^٢ دراما نفسية Psychodrame: ارتجال موجه للمشاهد غايته حمل المريض على تمثيل تصرفاته في الحياة اليومية وتخليصه من عقده (المنهل).

أن تكون مواطناً صالحاً. تؤدي واجبك، وتمتلك ضميراً صافياً نقيّاً!" إنها هي التي أدخلت الشرطي، وهي التي ساعدت على سير الاستجواب، وعندما اختفى شوبير "وغاص في الأعماق" عبّرت عن قلقها إذ تحدّثت عن الشرعية: "ماذا فعلنا؟ لكن كان لابد من ذلك، أليس كذلك؟ كان ذلك شرعياً؟" كما أنها هي التي حلت محل الشرطي في نهاية المسرحية..

"اميديه أو كيف نتخلص منها".

تابع يونسكو استكشاف عالم اللاوعي حسب طرائق قريبة من التحليل النفسي، فكتب مسرحية "اميديه أو كيف نتخلص منها" وقد أتمها في آب ١٩٥٣ في سيريزي لاسال، وهي عبارة عن كوميديا من ثلاثة فصول قدمها جان - ماري سيرو على مسرح بابلون في ١٤ نيسان ١٩٥٤.

شرح يونسكو ببراعة خادعة هي كل دعابته، لجمهور المعهد الفرنسي في لندن ما يلي: "في هذه المسرحية سرد لحادث يمكن أن نجده في أية جريدة. يروي الحادث قصة عادية يمكن أن تحدث لكل فرد منا، وربما حصلت للكثيرين، إنها شريحة من الحياة، إنها مسرحية واقعية"^(١).

ما هذا الحادث العادي المبتذل؟ زوجان يحتفظان بجثة في بيتهما ويتساءلان: "كيف نتخلص منها؟".

يمثل ديكور الفصل الأول بيتاً بورجوازيّاً من الداخل: "غرفة متواضعة هي غرفة طعام وصالون ومكتب في آن واحد" الرجل، اميديه بشكنيوني، في العقد الرابع، أصلع، أكرش، كاتب فاشل، يمشي بعصبية بحثاً عن الإلهام، يجلس إلى طاولة عمله، يكتب كلمة، يشطبها، ينهض من جديد. أثناء سيره يقطف من إحدى الزوايا فطراً "ساماً.. بالطبع". في تلك الأثناء تتعالى على الدرج ثرثرة حمقاء، إنها حارسة البناية والجيران.

تظهر مادلين، زوجة اميديه، نحيلة، شرسة، في جلباب الحمام، تلف رأسها بمنشفة، تحمل مكنسة. راحت تشتم اميديه وتزجره واصفة إياه بالتبذل السكير، إنها تشككي من أن كل شيء يقع على عاتقها: ترتيب البيت، أعمال المطبخ، كسب المال الذي يؤمن لهما الحياة. يحاول اميديه، المسالم، تهدئتها، لكن مادلين تبع لا ينضب من التظلم والشكوى.

^١ هذا الخطاب موجود في كتاب ملاحظات وملاحظات مضادة.

أثناء هذا الشجار - الخبز اليومي في حياة الأسرة - نعلم أنه منذ حوالي خمس عشرة سنة، تتضخم شيئاً فشيئاً، وتشيخ جثة في الغرفة المجاورة، وأن الفطور تظهر في جميع الزوايا. منذ خمس عشرة سنة يعيش اميديه ومادلين وحيدين في بينهما، ليس لهما أصدقاء، ولا يخرجان، لا يستقبلان أحداً، لا يفتحان بابهما أبداً..

تشير ساعة الحائط إلى الساعة التاسعة، ترتدي مادلين ثيابها للتذهب إلى عملها، أي إلى الطرف الآخر من غرفة الطعام حيث يوجد جهاز هاتف. بينما ترد على المكالمات الهاتفية تتابع توييخ اميديه، ثم ترسله إلى السوق: من النافذة يدلي سلة مربوطة بحبل، ثم يرفعها وفيها كيلو دراق، وجبن طازج، ولبن، وعلبتها بسكويت، وخمسين غراماً من الملح الناعم.

الوقت ظهراً، أثناء الغداء يُسمع طرق على الباب. فتحا وهما مرعوبان. إنه ساعي البريد يحمل رسالة، لكن اميديه يؤكد للساعي أن هناك ثمة خطأ: إنهما لا ينتظران أية رسائل، كما أنه ليس الرجل الوحيد الذي اسمه اميديه بكشينيوني فنصف سكان باريس يحملون هذا الاسم.

- هناك خطأ حتماً يا سيدي، فأنا لست اميديه بكشينيوني بل آ - مي - دي - ه - بكشينيوني ولا أسكن المنزل رقم ٢٩ شارع جنيروبل في المنزل رقم ٢٩ شارع جنيربو... ألا ترى أن حرف الألف في كلمة أميديه على الغلاف مكتوب بحرف كبير متصل، أما اسمي فيكتب بحرف كبير روماني.

ينصرف الساعي في اللحظة التي يتداعى فيها باب الغرفة تحت وطأة دفع الجثة.

في الفصل الثاني تزدهم المنصة بركام أثاث الغرفة، والفطور صارت الآن ضخمة، وعلى طاولات دائرية صغيرة مصفوفة، تتضخم ساقا الجثة وقد خرجتا من الغرفة. تسلح اميديه بمتري قماشى وقطعة طباشير وراح يقيس، كل ربع ساعة، تضخم الكارثة، ولاحظ أن الجثة تكبر بنسبة سلسلة هندسية. آنذاك أعلنت مادلين ما لديها من شكاوى.

تسأل أميديه عن هوية الميت. تعتقد مادلين أن الجثة جثة رجل شاب قتله أميديه بسبب الغيرة: "كنت تدعي أنه عشيقى... وأنا لم أنكر ذلك" لكن اميديه لا يتذكر هذه الجريمة ويخيل إليه أن "العاشق انصرف قبل لحظة الجريمة".. ليس من المحتمل أن يكون رضيعاً رمته إحدى الجارات ذات يوم ولم تعد أبداً لتأخذها؟ اغتيال؟ وأد؟ الجريمة خطيرة إلا إذا..

- هل تعرفين.. كنت أصطاد السمك في الريف.. سقطت امرأة في الماء وراحت تطلب النجدة، وبما أنني لا أجيد السباحة، والصنارة كانت تشد، لم أزعج نفسي وتركتها تغرق..

عدم نجدة المرء عند الخطر، هل هي أقل خطورة من القتل؟ يستمر النقاش. أخيراً خضع اميديه لرغبة مادلين ووعدها بالتخلص من الجثة برميها في نهر السين في الليلة القادمة.

يبدأ الانتظار، لكي يخدع الجيران، تنهمك مادلين في شغل الصوف، ويتمدد اميديه على مقعد مريح، يغلق عينيه قليلاً، ويحلم. خلال ضباب الحلم، يظهر شخصان: اميديه، شاب ممشوق القذ، ومادلين في ثياب العرس. يغني اميديه الثاني قدوم الربيع، والشمس، والسعادة والحب المجنون، ويحاول أن يحمل معه زوجته الشابة إلى عالمه الباهر. لكن مادلين الثانية ترى، في كابوس مرعب، ضفادع وأفاعي وأطفالاً موتى، تغوص في المستنقع وتُشعر بإبر من نار تنغرز في جسدها، تجرحها الأشواك. تصفحها النباتات المتسلقة، فتدفع اميديه عنها: "لا تقترب، لا تلمسني، أنت تخزني، تجرحني، أنت تؤذولمني! ماذا تري ي ي ذ؟ أين تذهب؟ أين تذهب؟..". خوف مادلين أقوى من فرح اميديه.

وفي نهاية المشهد يتلاشى عالم اميديه في ذلك الكابوس. كلاهما، دون أن يسمع أحدهما الآخر، يصرخ بكلمات فقدت كل مدلول، إنهما ما وراء حدود اللغة يغرقلان في يأس لا يمكن التعبير عنه بدقة.

ينتهي الحلم والكابوس. الوقت منتصف الليل. تضع مادلين شغل الصوف ويبدأ اميديه، رشم تردد ممزوج بالحسرة، بانزال الجثة من النافذة.

في الفصل الثالث، نرى اميديه على إحدى الساحات، يجر الجثة باتجاه نهر السين، يلتقي مع جندي سكران، وعاشقين، وصاحب بار في ساحة توركو. شعر بالقلق لكن لم يندش أحد، بل أن الجندي قدم له "يد العون" إذ لف الجثة حول اميديه ليسهل حملها، يصل شرطيان، يهرب اميديه، يلحقان به على المنصة وإلى الكواليس. يقف سكان الساحة على نوافذ بيوتهم. فجأة تنبسط الجثة مثل شرار السفينة ويتوارى اميديه من أمام الشرطيين المذهلين وسط تصفيق المتسككين، ويعتذر وهو في غاية الارتباك. تهرع مادلين إليه وتعلن سخطها مرة أخرى.

- اميديه: أنا مرتبك، اعذروني.. سيداتي، سادتي، أنا أعترف.. لا تصدقوا.. حقاً أريد أن أعيش.. أريد أن أبقى وقدماي ثابتتان على الأرض.. إنها ضد إرادتي.. لا أريد أن يأخذوني.. أنا مع التطور، وأتمنى أن أكون نافعاً للآخرين..

أنا مع الواقعية الاجتماعية [..].

— مادلين: دعك من ذلك يا اميديه، دعك من ذلك، لن تكون جاداً أبداً أنت ترفع نفسك لكن منزلتك لا تسمو في اعتباري.

تطور وإيقاع الكابوس:

مثلها مثل مسرحية "ضحايا الواجب" استخدمت أقصوصة "الراية" أرضية لمسرحية اميديه. تروي الأقصوصة، وهي في حوالي خمس عشرة صفحة، حلاً مسرحياً، لأنه يعرض مجموعة من الصور المتتابعة، ويرسم مواقف، ويعرض شخصيات ويتطور من خلال التحولات. تحويل القصة إلى مسرحية أمر طبيعي، لكن إذا كانت الأقصوصة تتبع الحلم عن قرب فإن المسرحية، وقد اغتنت بالصور الرمزية، والمقاصد الداعية، تصبح متعددة المعاني.

تشرح نقطة انطلاق المسرحية تطورها وإيقاعها. تمثل صورة الجثة التي تتضخم حالة كابوسية. تزداد وطأة هذه الحالة شيئاً فشيئاً، يكبر الضيق حتى يغدو لا يحتمل، إذ لا مخرج في الأحلام، وهذا ما أكده يونسكو إلى سيمون بن موسى: "في منطق وواقع الشخصيات يجب أن يستمر كل شيء حتى الاختناق الكامل. كان من الواجب أن تستمر الجثة في التضخم وإن أعوزها ضيق المكان، وكان على الشخصيات أن تبقى هناك، مع أنها ليست قادرة على البقاء. يجب أن نتحاشى، بأي ثمن، إيجاد الحل، رغم أنه من المحتم تماماً أن نجد حلاً ما. في إطار هذا التناقض كان على المسرحية أن تستمر، خانقة أكثر فأكثر".

هذا لا يعني أن توارى اميديه كان نوعاً من الحل المفتعل. كابوس الجثة في المسرحية له مغزى إذ أن يونسكو أضاف إليه فكرة من اللحظة: "كيف التخلص منها؟" للإجابة على هذا السؤال، تخيل، بعد ذلك الضيق المتنامي خلال الفصلين الأولين، أن الشد يتراخي، وهذه هي الحركة في الفصل الثالث.. اميديه الذي وقع في شرك القلق، الثقيل، الدائم، يتلاشى، يختفي، يظهر من جديد، يبدل هيئته، يتوارى، يتحرر من النقالة، وبذلك يجد خلاصه.

يمر شوبير في "ضحايا الواجب" في حالات من "النقالة والخفة" بالتناوب. هذه اللعبة، الأكثر دقة والأغنى بالمعاني، تغدو المنعطف الديناميكي لمسرحية اميديه؛ وتعبّر، في حركتها العكسية، عن التجربة المزدوجة لصعوبة الكينونة وصعوبة النعمة.

أساليب "واقعية" وتقنية تعتمد على التحليل النفسي

مادلين واميديه زوجان شبيهان بالزوجين في "ضحايا الواجب" لكن التحليل أكثر دقة وتصميم يونسكو أكثر وعياً. الزوجان في المسرحيتين في عمر متقارب، وفي حالة واحدة، لكننا نعرف هموم اميديه ومادلين: نراهما يعيشان، يشتغلان، يأكلان. كان شوبير قاذفاً بالأفكار التي كوَّنها عن المسرح، أما اميديه فيكتب، أو على الأقل يحاول الكتابة.

يتم تقديم الشخصيات في بداية المسرحية حسب صيغ وأساليب "المسرح الطبيعي": حركات تتكرر يومياً، عادات مضحكة، أحاديث في قوالب جامدة، خصام الزوجين، يخلق ذلك كله جوّاً هزلياً سهلاً ويحدّد كائنات بسيطة للغاية، مسطّحة، سرعان ما تكتسب سميتها الخاصة.

لكن للشخصيات تصبح أكثر تعقيداً، أكثر "عمقاً" عندما يستبدل يونسكو الأساليب الواقعية أو الطبيعية بتقنيات قريبة من التحليل النفسي. يكشف آنذاك مستويات متعددة من الوعي، ومشاعر حقيقية أكثر: الحب، الموت، الاندهاش، الألم، الصور المستقاة من الحلم أو الصور الشعرية تنير أغوار الرغبة والحلم، تنير الوسوس والهوسات؟ وهكذا تتشكل صورة الإنسان ذي "الأبعاد الثلاثة أو الأربعة أو العدد اللامحدود من الأبعاد". صورة لم تعد واقعية بل صورة "سريالية".

تظهر تقنية يونسكو المعتمدة على التحليل النفسي في المشهد الذي يلتقي فيه اميديه الثاني مع مادلين الثانية. يتخذ الغوص إلى أعماق النفس شكل الحلم. الصور - الذكريات تكثف مراحل الديمومة كلها في حاضر "مطلق". وتعيد بناء الزمان في المكان. تبين هذه الصور عالمين متناقضين يظهران بالتناوب أثناء الحوار. العالم الأول عالم نور ودفاء وحرية وخفة والعالم الآخر عالم ظلمة وجليد ووحل ومصائب. يعبر هذا التناقض عن تجربتين انفعاليتين قامت عليهما حركة المسرحية. يحدد المشهد، عندما يصل الاختناق إلى ذروته، الانقلاب المأساوي، وهكذا يجد اميديه في صور انعدام الجاذبية القوة التي تجعله يحطم قيوده ويتجاوز العقبات كلها. اميديه الثاني ومادلين الثانية ليسا أشباحاً لكنهما هلوسات والصدام بينهما شكل من أشكال الدراما النفسية.

الحوار "ثرثرة" وشعر

يختلف الكلام باختلاف مستوى الواقع الإنساني

تُعرض سطحية الحياة اليومية من خلال منازعات اميديه ومادلين: موجة من الأفكار الجاهزة، والشتائم التي لا طعم لها، والنصائح البالية، والاحتجاجات: "ليس لدينا خادمة.. لا أحد يساعدني [..] ليس من الضروري أن تسكر حتى تصبح مدمناً!.. المشروبات التي تفتح الشهية.. إن ذلك يسبب الألم".

تبلغ هذه السطحية حد الفظاظة عندما تستخدم للتعبير عن "الثرثرة" الاجتماعية، عندما تعبر عن حاجة للكلام، حاجة "للحوار دون أن تهتم بأية علاقة اتصالية، مثل الحوار الذي نسمعه عبر الباب بين حارسة البناية وأحد الجيران.

على عكس ذلك، يصل الكلام، في الحوار بين اميديه الثاني ومادلين الثانية، إلى واقعية أكثر تعقيداً، وتغتنى بالصور والاستعارات، كما يجب أيضاً أن نميز بين كلام اميديه الثاني وكلام مادلين الثانية، ذلك الكلام الذي يبرز تضاد الصور، ويعتمد على طريقتين مختلفتين في تركيب الجملة: فالجمل المبنية على الإثبات والتعجب تترجم اليقين عند اميديه الثاني، أما شكوك مادلين فقد تم التعبير عنها بجمل النفي والاستفهام؛ وعندما تبدأ الكفة تميل لصالح مادلين الثانية تلجأ إلى التعابير المبتذلة التي استخدمتها مادلين: "لن تكون سعيداً أبداً، افهم ذلك [..] خيالك.. خيالك [..] أنت تثيرني! أنت تثيرني!".

أما وقد رفض يونسكو فكرة وحدة الطباع فإنه يرفض أيضاً الاستمرارية في لغة الشخصيات إنه لا يربط الأسلوب بالشخصية بل بمستوى الوعي الذي وصل إليه تحليلها.

الديكور والاكسسوار:

تتألف المسرحية من ثلاثة فصول وهذا في رأي يونسكو تقنية جديدة ممكنة: استخدم تغيرات الديكور ليدعم الحركة الدرامية وليصور الاختناق المتزايد ثم الإحساس بالحربة. في الحقيقة، هناك ديكور متبدل إضافة إلى الديكورات الثلاثة.

عند رفع الستارة لا يشد الديكور الانتباه: بيت من الداخل دون تحديد، بابان، نافذة، بعض قطع الأثاث: ديكور لا طابع له، ديكور يناسب مختلف

الأعمال، لكن هناك عناصر ثلاثة تثير المخاوف سريعاً: ساعة الحائط، مصراع النافذة، جهاز الهاتف. الساعة التي يدور عقرباها، وينظر إليها اميديه ومادلين باستمرار، تصبح وسواساً. إنها تحدد تكاثر الفطور وتضخم الجثة، إنها تبين تغيرات العواطف: الحب وفشله، تجذر الكراهية، إنها رمز للزمن وللموت. المصراع المخلق بإصرار يمنع النور ونظرات الجيران. يفتح اميديه قليلاً. إنه يشير إلى حبس الزوجين، هذا الحبس يصبح ملموساً لوجود جهاز الهاتف في غرفة الطعام. من بيتها إلى عملها، تبقى مادلين منقطعة عن العالم، وحيدة، سجيئة.

المكان في الفصل الثاني هو نفس المكان، لكن الأثاث يحتل قسماً كبيراً من غرفة الطعام. الفطور تتكاثر وتزداد. ساقا الجثة تتمددان على الطاولات الدائرية الصغيرة. هذا هو عالم الأشياء، الأشياء الثقيلة، المربكة، التي لا فائدة منها - الأغراض المؤذية، أشياء تتزايد دون نظام، إنها مرض لا يمكن السيطرة عليه، لقد أصيب العالم بالسرطان. يختفي اميديه ومادلين وسط ركام الأثاث، يحوشان فيه، مشلولين، مختنقين.

يبرز ديكور الفصل الثالث التناقض في المسرحية. ساحة صغيرة، مفتوحة على الحياة: بار، بيوت ذات نوافذ مضاءة، مارة، ضوضاء القطارات.. المدينة كلها اجتمعت في هذا المدى المسرحي بمشاهده غير المألوفة وقدرته على التحرير.

تخيّل يونسكو خاتمة أخرى؛ عند نهاية الفصل الثاني يختفي الجدار الداخلي فتصبح منصة المسرح فضاء لا يُحدّ، غارقاً في النور، تسير فيه الشخصيات كلها: الجندي، السكران، العاشقان، الباعة، حراس المدينة، ويصبح الجو غير حقيقي وبحقّ الفرحة العظيم.

الاكسسوارات أيضاً تجسّم عواطف الشخصيات: تكاثر الفطور والأثاث، وخاصة تضخم الجثة. أراد يونسكو أن تكون الجثة عملاقة وقد حمي النقاش بينه وبين المخرج: "أردت أن يكون طول الساقين متراً ونصف، تردّد سيرّو. أوصى على ساقين بطول خمسة وسبعين سنتيمتراً، وقد جدهما كبيرتين جداً. تناقشنا حول المسألة وقلت لها إن ساقين بطول خمسة وسبعين سنتيمتراً هما ساقان عاديتان وسيكون الحدث نوعاً من "التهريج" ولكي يكون ظهورهما خارقاً وليس

تهريجياً يجب أن نتجاوز المقاييس العادية" (١)

التفريق الأساسي بين الخارق والتهرجي، لم يحاول يونسكو إثارة ارتعاشه الزعب لدى المشاهدين، بل أراد أن يصور عالماً تجاوز المعايير، عالماً من الأحلام تمثل الأشياء فيه "حضوراً داخلياً".

موضوع الزوجين:

تطرح مسرحية "كيف نخلص منها" مسألة الزوجين أيضاً. تشهد بطريقة أوضح مما رأينا في ضحايا الواجب العلاقات بين الزوجين وتكرار الخيبة والفشل. ليس هناك شخصية ثالثة لتقوم بالبحث والتفتيش، الجثة هي لغز الزوجين. خلال مناقشتها، تسأل اميديه ومادلين عن هوية الميت؛ فالمشهد يسخر إذن من العقدة البوليسية، لكن المشهد الذي يجمع اميديه الثاني ومادلين الثانية ينقل تلك التساولات ويقدم إجابة أساسية: المونولوجان المتقاطعان في هذا المشهد يرسمان مواقف الزوجين، مواقف متصارعة وسلسلة من عقد. إننا نشهد الفترة الأولى من زواجهما فهي بالنسبة لاميديه "عصر العالم"؛ فهو لا يرى ولا يسمع - أنت أعمى.. أنت أطرش!.. أما بالنسبة لمادلين فهي الفشل. "أي صوت حدا؟ لقد تثبت أذني! إنه توكوؤ لمني! لا تمزق حجب ظلماتي! سااااادي! ساااا دي!". هناك لحظات أخرى تطغى عليها صورة طفل ينكره أهله أو ينتظرونه عبثاً "لا تقتليني.. الرحمة، أتوسّل إليك.. لا تقتله، لا تقتلهم.. اشفقْ على الأطفال...".

تؤكد هذه الصور أن الجثة هي ولاشك المرأة التي تركها اميديه تغرق ولم يساعدها لأنه كان منشغلاً بسعادته باكتشافه الحب والعالم. الجثة هي أيضاً الطفل الذي لم يرغب به أو لم يحافظ عليه فمات دون أن يدركا ذلك، إنها أخيراً عشيق مادلين، صورة الرجل الذي ملأ أحلامهما الماضية وقد قتله اميديه أو ربما هي التي قتلتها، كيف نعرف؟ الجثة، إجمالاً، هي جميع أشكال القتل التي عرفت في الزوجان، هي الأنانية والرفض والحب المستحيل والوحدة للثنتين معاً.

هذا ما أدركه أميديه بشكل غامض، أما وقد تلاشت الهلوسات سرعاً، ها

^١ «محاورات» مع كلود بونفواص ١٠٧. عندما أقبل مسرح بابليون وبيعت تلك الأكسورات بالهزأ، لم نجد الجثة من يشرها، سوى السائقين، قطعت الجثة قطعاً صغيرة، لرميها في براميل الزباله، لكن تم التخلص منها بطريقة أخرى رضوخاً لاعتراضات حارسات البنانيات في الحي، تم نقل ما تبقى أثناء الليل إلى ضفة السين، وهكذا التقى الواقع والخيال.

هو يقف، يقترب من مادلين يقول لها إن الحب مازال قادراً على إنقاذ كل شيء .
لكن مادلين ما عادت تؤمن بالعواطف لأن الهموم والمسؤوليات استهلكتها .
- لا تردد هذه السخافات، ليس الحب هو الذي سيخلصنا من هذه الجثة،
ولا الكره أيضاً، إنها ليست مسألة عواطف [..] سخافات! ليس الحب بقادر على
تخليص الناس من هموم الحياة"^(١).

التساؤل الذي يطرحه العنوان "كيف يتخلص منها؟" جوابه في حلم اميديه.
المرء لا يتخلص من ماضيه، فالماضي، أكان من رصاص أو ظلمة أو وحل
يربط الفرد بوجوده، الماضي يشد ويقيّد؛ حتى النبات المتسلق هو رباط أيضاً،
ولهذا السبب نرى اميديه، في لحظة الوعي، يتردد في الانفصال عن الجثة لأنها
الشاهد الأخرس على ماضيه كله.

لم تفهم مادلين، فهل لهذا السبب مضى اميديه مع الجثة - بلا رجوع؟
إنها مأساة الرجل والمرأة اللذين لا يعرفان كيف يحبان بعضهما ولا
يستطيعان أن يتبادلا الحب. إنها مأساة الإنسانية التي يبحث نصفها، وقد
انفصلا، كل منهما عن الآخر ليشكّلا كائناً واحداً لكن دون جدوى. اميديه
ومادلين، في رأي يونسكو، هي آدم وحواء، أما الجثة فهي الخطيئة الأصلية"^(٢).

الإلهام

تقدّم المسرحية فكرة أخرى. يطرح يونسكو مسألة الإبداع الأدبي.. اميديه
كاتب فاشل لأنه يريد، من خلال العمل والتفكير، أن يخلق كوناً خيالياً. يسجن
نفسه في بيته، يجهل العالم الذي يحيط به، يجهل الحقيقة الخارجية الغريبة ولا
يكتشف إلا في النهاية "النور الفضّي" للقمر، والسماء الملأى بالنجوم، والناس
الذين يسبّرون في المدينة. يجهل أيضاً كل شيء عن عالمه الداخلي، وعلى
الرغم منه تتبّع من الهاويات أشياء لم يفهمها تماماً لكنها غيرته.
الكتابة والتفكير الواعي لا يمكن إلا أن يخلقاً معاني ودلالات، لكن يونسكو

^١ لقد عرفت مادلين لحظت من الحنان، فخلال تناول الطعام تأفّرت بوجه اميديه الحزين، قالت:
"اسبح، يمكن أن تعتبر هذا اليوم استثناء، إنني أسمح لك، اشرباً كلاً من الخمر، هيا، إنك تبدو
حزيناً". أثناء فترة الانتظار في الفصل الثاني تصدر عنها أيضاً حركة رقيقة حوثة ثم توقفت
وراحت تلحّ حذاء الجثة.

^٢ محاورات مع كلود بونفوا ص ٩٦-٩٧.

يرى في الحياة منبع الأشياء الخارقة للرائعة، إنها مصدر الإلهام حقاً.

"المستأجر الجديد"

حالات البوح في ضحايا الواجب واميديه واضحة جداً وتذهب بعيداً جداً أيضاً حتى أن يونسكو شعر، كما يبدو، بالحاجة إلى ترك مسافة بين كتبه وحياته وكتابة مسرح أقل صميمية، بعد شهر من كتابة اميديه، ألف، خلال ثلاثة أيام (١٤-١٦ أيلول ١٩٥٣) مسرحية "المستأجر الجديد" التي استخدم فيها ظاهرة تكاثر الأشياء في حالتها الخالصة الصرفة.

إلى غرفة عارية على المنصة الفارغة يصل سيد حاملاً حقيبته الصغيرة ثم يحضر حاملاً قطع الأثاث؛ يكدسان الأغراض العجيبة، يزحمان، يرصان، يكوّمان، يسدان النوافذ والأبواب.

- ناقل الأثاث الأول: ليس هذا كل شيء، مازال هناك المزيد.

- ناقل الأثاث الثاني: لقد امتلأ الدرج ولم يعد في الإمكان المرور.

- السيد: لقد امتلأ الفناء أيضاً، والشارع كذلك.

- ناقل الأثاث الأول: لم تعد السيارات تسير في المدينة، لقد امتلأت بالآثاث.

- ناقل الأثاث الثاني: على الأقل، لا تشتكي أنت يا سيدي، فلديك مكان تجلس فيه.

- ناقل الأثاث الأول: ربما كان على المترو أن يسير.

- ناقل الأثاث الثاني: أوه، كلا

- السيد: كلاً، لقد سُدَّت الأنفاق.

- ناقل الأثاث الثاني: ما أكثر ما لديك من أثاث! إنك تترك البلد كله.

- السيد: نهر السين لم يعد يجري، لقد سُدَّ أيضاً وجفت فيه المياه.

مازال الأثاث يدخل، من تلقاء نفسه، عبر الباب، ثم من السقف. السيد جالس على الإريكة، مطوّق، جامد، أغلق السقف، ثم الباب وانطفأ النور.

تراكمت قطع الأثاث على المسرح في الفصل الثاني من مسرحية "اميديه" لكنها لم تكن سوى اكسسوارات للديكور أما هنا فإنها تملأ الغرفة تماماً. إنها تزداد ضخامة ووصولها يتم على إيقاع معين. يحضر الحمالان مزهرية ثم

كرسيين صغيرين جداً ثم مزهرية أخرى صغيرة يحملانها معاً ويبدو أن ثقلها يسحقهما. ثم يحضران طاولات وكراسي ولوحات وأكداشاً من الكتب وأخيراً يحضران خزائن وصناديق وطاولات سفرة وسلماً طويلاً.. من ناحية أخرى، تزداد سرعة ذهاب وإياب ناقلي الأثاث، ثم تصل الأغراض من تلقاء نفسها ويشكل دخولها نوعاً من البالية. تتوقف الحركة فجأة. يحمل أحد الناقلين باقة أزهار ويرميها من فوق الصناديق والخزائن إلى الداخل حيث يوجد المستأجر.

تبرز الحركة في هذا الانتقال إلى المسكن الجديد، الواقعية في البداية الخيالية فيما بعد، الخلل في الآلية: تتم الحركة بشكل جيد، جيد بإفراط، ثم لا يبقى لها بداية ولا نهاية، وتصبح حركة مجنونة تفرض آليتها على الكائنات والعالم، وتبقى وحدها الموجودة.

موضوع المسرحية صورة أخرى للغوص الذي عرضته "ضحايا الواجب": إنه الاجتياح. الأغراض تتكاثر بلا نهاية وتغمر الإنسان في نهاية المطاف. إذا ما نظرنا إلى المسرحية من هذه الزاوية فإن "المستأجر الجديد" نقد لاذع لنوع جديد من العبودية، هو النزعة الاستهلاكية.

اللوحة

كتبت مسرحية اللوحة عام ١٩٥٤، تعرض المسرحية رسماً في فقر مدقع يحاول أن يبيع إحدى لوحاته إلى هاوٍ غني، نصفه حديث نعمة، ونصفه محتال. يطلب الرسام أربعة آلاف فرنك ثمناً للوحته، لكنه، بعد المساومة، يتركها مجاناً شاكرًا السيد الضخم لأنه وافق على الاحتفاظ بها معلقة على أحد حيطان منزله؛ وموافقاً على دفع أجره هذه الخدمة.

بعد انصراف الرسام أعجب السيد بالملكة المرسومة على اللوحة وكان تعبيره عن مشاعره ذا طابع جنسي "على قدر ما تسمح به الرقابة وما يحتمله المشاهدون"^١.

أمام أخته أليس، العجوز القبيحة المقرفة، يتحول السيد إلى طفل صغير مرعوب لكنه بطلقة مسدس يحول الساحرة المخيفة إلى ملكة في جمال صاحبة اللوحة، وبالطريقة ذاتها يحول إحدى جاراتها إلى أميرة، والرسام إلى أمير ساحر، ومكتبه المتواضع إلى قصر. هو وحده يبقى ضحماً قبيحاً.

^١ إرثادات حول إخراج المسرحية.

- آه! آه! آه! برافو! آه! وأنا؟ وأنا؟ أوه.. أنا لست جميلاً أبداً! (يخاطب الجمهور وهو يمدّ إليه المسدس) هل تسمحون وتطلقون عليّ النار! من يريد أن يطلق عليّ النار؟ من يريد أن يطلق عليّ النار؟

من التفاسير الخاطئة أن نرى في هذه المسرحية احتجاجاً اجتماعياً وأن نرى فيها العبقرية التي أوصلتها الرأسمالية إلى الجوع. يمكن للحوار في القسم الأول أن يسبب هذا الالتباس إذ يكفي أن تعرض الشخصيات كنماذج اجتماعية ضمن إخراج واقعي ملتزم بالنص.

لقد حدد يونسكو في عنوان المسرحية الثانوي مضمون المسرحية إذ دعاها "تهريج": ويمكن للمهرجين أن يقدموها على المسرح. الشخصيات غيرت وجوها، ويجب أن يكون التمثيل مستقلاً عن النص، ويجب المبالغة في الحركات وأن تكون عنيفة أحياناً. لا تحتوي المسرحية أي مضمون نفسي وتتطوي على أقل المقاصد الاجتماعية بكلمة واحدة أن تكون من السيرك.

من هذا المنظور تتحقق وحدة المسرحية. الحركة الدرامية في تصاعد دائم.. نجد، في البداية، اللهجة مضحكة. الأداء المسرحي يثير الامتعاض واللغة أيضاً: يقول السيد الضخم: "إنني أراقبهم أثناء ساعات تأملي" "البورصة هي الحياة"، من ناحية أخرى نراه يتحدث مثل بولدبير - أو مثله تقريباً: "واحسرتاه الفن طويل والحياة قصيرة" (١) وله أفكاره عن الفن التجريدي وغير التجريدي:

- السيد الضخم (أصبغه في أنفه): حسناً، هذه هي إذن نقطة الضعف عندك، الملاحظة الكبرى التي ألفت نظرك إليها، فنحن نحسد عندك، أحياناً، ما لا نراه، ولا نرى ما نحسده. هناك تناقض صارخ في فمك، وبالنتيجة، غموض في الأسلوب وخط غير صاف بين التجريد وعدم التجريد وبالنتيجة، غموض في الأسلوب وخط غير صاف بين التجريد وعدم التجريد [..] أما بالنسبة لباقي اللوحة فالأمر سهل جداً، هذه السيدة، حقيقة كانت أم خيالية، تجريدية أم غير تجريدية، هذه السيدة التي رسمتها أنت، رُسمت جيداً..

يتسارع الإيقاع بعد ذلك حتى الألعاب النارية الختامية التي يقول عنها يونسكو: "تحريف لفكرة التحول" (٢)

^١ بولدبير، أهل النثر، قصيدة للشووم.
^٢ في مقدمة المسرحية..

هذه المسرحية، قبل أي شيء، لعبة للتسلية، تصوير كاريكاتوري لموقف عبثي، إنها من نوع الفارس^(١) نكتشف معناها من خلال عبثيتها ذاتها.

"مسرحية ألما"^(٢)

لم يكن يونسكو قد نال الشهرة عام ١٩٥٥ لكن إخفاقاته لم تتوقف عن التضخم. لم يقابله النقاد المسرحيون باللامبالاة، فغالباً ما خصموه وهاجموه ونادراً ما أبدوا إعجابهم به. وضعوا اسمه تحت عناوين "كاتب العبث" و "مؤلف طليعي" ومن أجله هو شخصياً ومن أجل الآخرين وضّح يونسكو أساليبه وحدّد غاياته: كتب مقالات، وألف "مرجلة ألما أو حרבاء الراعي" التي قدمها مخوريس جاكومون على ستيديو الشانزليزيه في ٢٠ شباط ١٩٥٦.

عند رفع الستارة، نرى يونسكو في بيته منهمكاً في عمله: بين الكتب والمخطوطات، رأسه على الطاولة، قلمه في الهواء. يشخر يصل بارتولوميوس الأول مرتدياً جبّة تشبه جبّة طبيب مولير. إنه دكتور في علوم المسرح وناقد يمثل العصر فوق العلمي وفوق الشعبي لقد جاء بحثاً عن آخر مسرحيات يونسكو لنقدمها فرقة الممثلين الشباب تعرض أعمالها في صالة صغيرة - خمسة وعشرون مشاهداً جلوساً وأربعة وقوفاً - "الجمهور شعبي من النخبة".

فرح يونسكو فرحاً عظيماً لكن عندما طلب بارتولوميوس قراءة المسرحية شرح له يونسكو أنها انتهت دون أن يكتبها وأن موضوعها لا يمكن روايته، وأن الحوار، رغم أنه لم يكتب تماماً، بحاجة إلى بعض الاختصار فالقراءة سابقة لأوانها لكن إذا انتظر عدة أيام.. لم تتطلّ هذه الإيضاحات الغامضة على بارتولوميوس الأول.

يصل بعد ذلك بارتولوميوس الثاني وبارتولوميوس الثالث، وهما دكتوران في علوم الديكور والملابس وسيكولوجية المناظر.. يدور الحوار حول جوهر المسرح ورسالة الكاتب المسرحي. لم يتفق المتحاورون لكن بما أن كل واحد منهم راح يتحدث دون أن يصغي للآخرين لم يبق للحوار أية قيمة: اعتبروا أن

^(١) الفارس: تمثيلية مضحكة يغلب عليها التهريج والدرج.

^(٢) Leimpromptu هي مسرحية قصيرة تتطوي على الشعر والموسيقى.

على الكاتب المسرحي أن يؤكد ابتعاده عن الدائرة الفاسدة^(١) التي يحارل أن يسجن نفسه فيها لكي يحدد مكانه على أنه موجود داخل الشيء وهو خارج الشيء:

"etre - dans - le - coup - hors - du - coup"

والعكس بالعكس ، من الناحية العلمية والجدلية ، كما نعلم . وبالنتيجة فإن سريع الزوال هو وحده الذي يستمر ، ومفهوم العالمية هو نوع من الهرطقة التي ينشرها بعض المؤلفين الرديئين يجب إذن أن تخضع قراءات يونسكو للمراقبة:

- يونسكو: جعلوني أقرأ مؤلفات اسخيلوس وسوفوكليس ويوروبيدس ..

- بارتولومئوس الأول: أشياء بالية، بالية، لقد انتهت ذلك كله.. إنه لا يساوي شيئاً.

- يونسكو: ثم.. ثم.. قرأت شكسبير!

- بارتولومئوس الثالث: هذا ليس مؤلفاً فرنسياً، ربما كان الآخرون فرنسيين أما هذا فهو روسي.

- بارتولومئوس الأول (إلى الثاني): إننا لا نلومه لأنه أجنبي.

- بارتولومئوس الثالث: أما أنا فألومه على ذلك، ويقول على انفراد: أرجح أنه بولوني^(٢).

غامر يونسكو إذ ذكر مولير الذي لم يزل بعد تقيده مسرح البولفار، كما أن بارتولومئوس الثالث تذكره فجأة: "لقد استلهم مادة مسرحه من الأدباء الأجانب، من الطليان".

بدأ الدكاترة الثلاثة في الحال تعليم يونسكو وتثقيفه. علموه أن المسرح هـ إظهار المسرحية وأن المسرح يملك جوهرأ مسرحياً ووجودياً من خلال تقديم المسرحيات، وأن المسرحية تكتب لتمثل، يمثلها ممثلون، في صالة تمثيل، على منصة أمام جمهور.. هذه الحقائق الواضحة سمحت للدكاترة الثلاثة أن يحددوا بعدئذ دور المسرح في العصر العلمي: ستكون حصّة دراسية في المساء - إجبارية - درس في الأشياء - والفتيات اللاتي يرشدن المتفرجين إلى أماكنهم

^١ الدائرة الفاسدة: le cercle vicieux في المنطق هي محاكمة خاطئة يُقَدَّم فيها كدليل الافتراض الذي ينطلق فيه المرء (حسب).

^٢ ربما لأن جان كوت كان قد نشر منذ فترة كتاب شكسبير، كاتبنا المعاصر "فجان كوت كاتب بولوني".

سيكن الموجهات أو المعدادات^(١)، سوف يشرفن على إعادة البروفات سيكون المدير موجهاً عاماً، وكل شاهد سيرى المسرحية نفسها عدة مرات - مركزاً اهتمامه كل مرة على مشهد مختلف - من وجهة نظر مختلفة (لأن العمل الأدبي "لغة جمعية"^(٢)) (تدُل على الجميع) - سوف توضح علامات للمشاهدين - سينالون مكافأة وعقوبة - وأما التناوب منهم سيأخذون دروساً في الإجازات وأنشاء مهرجانات الصيف.

بعد النظرية يأتي التطبيق: يرجع الدكاترة الثلاثة إلى بحث البروفسور بيرتولوس ويؤرخون للأدوات المسرحية - أي غرفة يونسكو - ينزعون الصفة الحقيقية عما هو حقيقي (بوضع لافتات في كل مكان تقريباً) ويوجزون في الحركة المسرحية، ويصلحون مظهر يونسكو لأن الثياب هي "تفخيم، وتقويم، وتخريم" للرجل العادي. أخيراً يبدأون عملية الخلق المسرحي بوساطة تجهيزات مناسبة: يضعون على رأس يونسكو طاقيّة على شكل رأس حمار ثم يبدأ الأربعة بالتهيق: "هي.. هان.. اكتب! هي.. هان.. اكتب بقوة! .. هي.. هان.. اكتب بطريقة علمية! هي.. هان..".

تصل ماري، الجارة التي تهتم بغرفة يونسكو فتخلصة من زيّه المضحك وتنزع اللافتات وتطرد الدكاترة، بضربات من مكتبتها، الذين راحوا يتعاركون حول فن الملابس وعلم الملابس.

لكن يونسكو وقد انتقلت إليه العدوى، يندفع في إلقاء خطاب: يعرض تصوّره للمسرح، والنقد، والإبداع، والعلاقات بين بنية النفس ونظام اللغة.. تلو اللهجة ويصبح متحدّثاً عدوانياً. آنذاك تتناول ماري جبة أحد الدكاترة وتضعها على كتفي يونسكو: "هل بدأت تأخذ نفسك مأخذ الجد يا يونسكو؟"

على طريقة..

استوحى يونسكو مسرحيته من مولير وجيروودو. يؤكد ذلك العنوان والموسيقى التي اختيرت من مقطوعات من القرن السابع عشر، وأزياء الدكاترة، وبعض المؤثرات المسرحية مثل محاكاة دون جوان والفلاحين:

- بارتولوميو الثاني (مشيراً إلى اللافتة): ب.. يعني بريخت بالتأكيد.

^١ المعدادات يعلمان على إعادة شرح الدرس للطلاب.

^٢ تعبير أوجده رولان بارت يؤدي دوره في المسرحية بارتولوميو الثاني.

- بارتولوميوس الثالث: ... ب هذا يعني برنشتاين بالتأكيد
- بارتولوميوس الأول (إلى الاثنين): كلاهما على حق.
- بارتولوميوس الثاني (إلى بارتولوميوس الثالث): سبق أن قلت لك ذلك..
- بارتولوميوس الثالث (إلى بارتولوميوس الثاني): سبق أن قلت لك ذلك..
- بارتولوميوس الأول (إلى الثاني): فيما بيننا، هذا يعني عصر بريخت وليس برنشتاين (إلى الثالث) فيما بيننا، هذا يعني عصر برنشتاين، برنشتاين بعد التحسين، بعد أن طبع بطابع العصر، بعد تجاوز عيوبه..
- بارتولوميوس الثالث (إلى الأول): ماذا تعني؟
- بارتولوميوس الأول (إلى الثالث): برنشتاين على كل حال، برنشتاين على كل حال، فاهداً..

نشر من جديد على بناء "مسرحية فرساي" و "مسرحية باريس"؛ فمسرحية يونسكو التي تعالج قضايا المسرح، تعرض علينا يونسكو وهو يكتب مسرحية "حرباء الراعي"^(١) وبطلها هو يونسكو، يكتب مسرحية عن المسرح.

موضوع "مسرحية الما" - مشاكل المسرح - مجموعة من الأفكار النظرية وليس تطبيق تلك الأفكار، ولكي تصل تلك الأفكار إلى الجمهور، أي لكي تتحول إلى أفكار مسرحية، كان لابد من مواجهتها مع بعضها، فالمسرحية مبنية إذن على صراع ثلاثي الوجوه.

هناك أولاً صراع المؤلف مع النقاد.. النقاد متضامنون في مواجهة فريسة تحاول الهرب، تحاول الوصول إلى الباب كل لحظة.. ها هم يمسونها من جديد، يثبتونها، يوبخونها، يرشدونها إلى طريق الصواب، يكسونها، يستثمرونها. في مواجهة الدكاترة الثلاثة هناك ماري التي تمثل الحس الشعبي السليم، حجتها الدامغة هي المكسنة، كما أن تدخلها يحيل المسرحية إلى مسرح عرائس. لكن هناك صراع أكثر حساسية بين النقاد الثلاثة: النقاد الأول والثاني يؤيدان النقد "العلمي" يؤيدان المسرح "الملتزم" لكن أحدهما وجودي ينتسب إلى سارتر، والآخر يقول بمذهب الماهية^(٢) يقدس ماركس ويعيش في عصر

^١ أوليت، ذات مرة، في مدينة ريفية كبيرة، وسط الشارع، لي عز الصيف، حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر راعياً شاباً يحضن حرباء.. "فيس الراعي المذكور هو الكاتب؟ والحرباء التي أصبحت راعياً هي النقاد؟ لا توضح المسرحية ذلك، كما أن يونسكو تحاشى تفسير هذه الاستعارة.

^٢ مذهب الماهية: يرى أن الماهية تسبق الوجود بعكس الوجودية.

بريختي. أمّا الناقد الثالث فإنه يدافع عن مسرح البولفار "مسرح التسلية" وينتمي إلى بيرنشتاين، ويمتدح بلاهة الجمهور، إنه بليد، يكرر باستمرار: - أنا لا أفهم - جاهل. موليير، هل تعرفاته؟ متعصب. النقاد الثلاثة شخصيات رمزية فربما ظن البعض أنه يرى من خلال شخصيات بارتولوميوس الأول والثاني والثالث، برنادور، رولان بارت، جان - جاك غوتييه.

كلام متحدثي.

في خصام العقائد، تدور اللعبة في المفاهيم، لكن تفجر العنصر الهزلي في المفردات يسمح بالسخرية من الأفكار، ومن أجل ذلك يكفي استخدام اصطلاحات ايديولوجية ما، ووصف تعابرها التقنية حتى يتلاشى مضمونها اللغوي ولا يبقى منها سوى الجرس المتناثر للأصوات المتكدسة فوق بعضها وبعض الأسماء الضائعة بين السطور، من اسم فيلسوف إلى اسم ناقد، من سارتر إلى بارت:

.. وبطريقة جدلية، هذا يعني الوجود في داخل الشيء وخارجه في الوقت نفسه، كما أنه يعني أيضاً وجود اللاموجود، ولا موجود الوجود في وقت واحد.

- للحصول على تفسير أسمى للمسرحية.

- يمكن أن يكون خلاصة كل التفسيرات المتعاقبة المتناقضة..

.. للوصول إلى فهم بسيط، معقد، متعدد، وحيد.

على منوال المجالات التقنية يتم خلق كلمات جديدة لها نفس الإيقاع والتركيب: "فن الملابس (كوستمودية) وعلم الديكور (ديكورولوجيه) وعلم نفس المشاهدين (سبكتاكو سيكولوجية)، كما يتم اختراع تناقضات وتناقضات من خلال صياغة فكرة بطريقة قسرية أو من خلال تزييفها:

- لأن المؤلفات في حد ذاتها..

- لا وجود لها..

- إنها تكمن في رأينا فيها..

- وما نقوله عنها..

- وفي التفسير الذي نفضل بإعطائه لها..

- التفسير الذي نفرضه عليها..

- الذي نفرضه على الجمهور..

تنشأ القوة الهزلية في لعبة المفردات هذه - وحياتها الجدلية - من خليط
الاثباتات الواقعية والاثباتات المخترعة. لقد اقتبس يونسكو حقاً بعض أقوال
الدكاترة من كتابات منتقديه وخطها مع "حقائق مجنونه" بحيث تؤكد صحة
البعض خطأ البعض الآخر، ويصبح كلام الشخصيات كله مثيراً للضحك.

يمكن أن نرى أيضاً عنصر الإضحاك في اللغة من خلال الأسلوب شبه
العلمي الذي يخفي بديهيات، وهكذا يعرف الدكاترة علم الملابس (كوستولوجيه)
بأنه علم الملاءمة بين جوهر الشخصية وظاهرها فتوضّح ماري ذلك: "ولذلك..
كتبت أنت مسرحية.. من بين أبطالها رجل إطفاء [..] ووضعت على رأسه
خوذة رجال المطافئ انتبه لذلك، ولم تضع على رأسه طرحة عروس!".

هذه الأساليب تحطّم الايديولوجية التي يدور عنها الحديث، كما يحطم جمود
التصورات التفكير الحي. يتناول يونسكو بعض الأفكار، يضع منها كليشيهات، ثم
يجعل هذه الكليشيهات تتشنج وتكثّر.

تقوم اللغة الموضوع بدور الاكسسوار فتارة تدعم حركة الاضحاك المتنامية
عند إحدى الشخصيات، إذ أن المفردات، بعد أن فقدت معناها، لا تترك من
المقاطع الطويلة في المسرحية سوى سلسلة متتابعة من الأصوات ترافق
الحركات الإيمائية، وتارة تصبح الكلمات كرات يتقاذفها الدكاترة بسرعة متزايدة.

التهرج

ليست اللغة الشكل الوحيد للسخرية، كما أن الإيماء ليس مجرد سند للكلام.
بولد الضحك في "مسرحية الما" من تغييرات الديكور، وزى الدكاترة، وتعابير
وجه يونسكو، المتبجج تارة، المرتبك تارة، المرعوب تارة ثالثة، وهو يحاول
التسلل نحو الباب، أو وهو يردد الدرس الذي تعلمه. حركات الدكاترة يغلب
عليها الطابع الكاريكاتوري: المدايح المتبادلة فيما بينهم، توزيع اللافتات، وأخيراً
تبادل الصفعات والكلمات وضربات مكنسة مارين، ذلك كله يضع المسرحية
ضمن إطار مسرح العرائس التقليدي.

المؤلف ومشاكله:

يستعيد يونسكو هنا أفكاره عن المسرح، وموقف الكاتب، والنقد ثم يوضح
نلك الأفكار كلها.

يحدد يونسكو الإبداع الأدبي على أنه اعتراف وليس رواية أحداث من الحياة، إنه بوح لمغامرة صحيحة، تحليل نفسي بشكل عام: "المسرح كما أراه عرض للعالم الداخلي، فمن حتي أن أجعل أحلامي ومخاوفي ورغباتي الغامضة وتناقضاتي الداخلية مادة مسرحي ومن حتي أيضا عرضها على المسرح". يبرر هذه الرؤية عمومية اللاوعي: القلق، الأحلام، الرغبات، تشكل جزءاً من "تراث السلف، مستودعاً قديماً جداً"، إنها اللغة الإنسانية المشتركة كما أنها الأكثر شمولية للاتصال بين الناس ووحدة المشاعر فيما بينهم^(١).

من ناحية أخرى، وعلى نفس المنوال، يشرح يونسكو لبارتولوميو الأول الألية الدرامية في مسرح لا يعتمد على العقدة، لم "يرو" قصة "حرباء الراعي" لأنه لم يبدأ المسرحية بعد، أما وقد أنهاها فإن سرد الحكاية يصبح بلا فائدة.

- أوه.. الموضوع؟ تسألني عن الموضوع؟.. العنوان؟.. أوه.. كما تعلم، أنا لا أعرف كيف أروي مسرحياتي.. كل شيء موجود في الحوار، والتمثيل والصور المسرحية.. صور تشد البصر - كما يحدث دائماً - صورة ما، أو عبارة ما تفجر آلية الخلق عندي وبعد ذلك أسلم أمري إلى الشخصيات التي خلقتها دون أن أعرف وجهتي تماماً..

على مستوى شخصي أكثر، يحلل يونسكو ما يشعر به عندما يكتب، يلعن اكتشافه لعالم يكون هو أول المندشرين، كما يعبر عن نزوات الإلهام التي غالباً ما نستدعيها دون جدوى لكنها تهبط علينا عندما لا نكون بانتظارها. يتحدث عن خوفه من العمل الذي أنجزه، وعن الإحساس بانتهاك المقدمات، والرغبة في كتمان ما يجب الاعتراف به، والدهشة من الإحساس بأن الكتابة حدث خطير يلزم الكائن كله، ورغم أن الفكاهة والضحك يحجبان الروح الشعرية، إلا أنها تظهر في لحظات البوح الكثيرة في "مسرحية الما".

تعتبر المسرحية أخيراً عن العدو التي يكنها يونسكو لكل أنواع النقد، حتى لو كان إيجابياً، الدكثرة يتجهجون، يسنون القوانين، يحولون الحقائق الأولية إلى أحكام مطلقة، يحكمون على الإبداع بتسلط، يحرمون ويحللون. يعتقد يونسكو أن كل فكرة تصبح خطيرة، ويجب مناقشتها عندما تسلك مسلك العقيدة. لقد رفض يونسكو النقد الذي رأى فيه مظاهر الإرهاب وطالب بالحديث عن المؤلفات حسب قواعد "ميثولوجيا" المؤلف نفسه، "يجب أن يكون النقد وصفيّاً لا

^(١) نرى، في الفترة الأخيرة خصوصاً، تأثيرات يونغ على تفكير يونسكو.

معياريًا" (الناقد يصف ولا يخطط وينصح).

تسمح "مسرحية الما" بتحديد فكر يونسكو قبل خصامه مع كينث تينان^(١) قبل النصوص النظرية التي كتبها أعوام ١٩٥٨-١٩٦٠، وخصوصاً قبل المسرحيات الناجحة التي بدأت مع "سلسلة برانجيه".

"قاتل بلا أجر"

سنوات أربع تفصل "قاتل بلا أجر"، عن "أمييه"، ففي عام ١٩٥٧، وبعد مجموعة من الاسكتشات الخفيفة، و "مسرحية قصيرة" التي تعتبر مسرحية ذات قضية، راح يونسكو يتوغل من جديد في غابة الأحلام والرغبات. "قاتل بلا أجر" مسرحية في ثلاثة فصول، يعود تاريخ كتابتها إلى شهر آب ١٩٥٧، وقدمها جوزيه كواغليو على مسرح ريكامبييه في ٢ آذار ١٩٥٩.

يرافق مهندس البلدية ضيفه برانجيه في زيارة "للمدينة المشعة" وهي حي من أحياء المدينة، سماؤه صافية زرقاء دائماً، شوارعه مشمسه، بيوته محاطة بالخضرة والأزهار. يستعيد برانجيه، وهو القادم من حي قذر ضبابي بارد، لحظات النشوة القديمة، سعادة الحياة والحب، فرح اليقين، مشاعر الخفة والرغبة في الانطلاق.

أعلن برانجيه عن رغبته في الإقامة في "المدينة المشعة" لكنه لاحظ أشياء غريبة: حجر يسقط عند قدميه، تحطم زجاج نافذة، الشوارع خالية، نوافذ البيوت مغلقة.. فيشعر بالقلق. يخبره المهندس المعماري أن جميع السكان يفكرون بالهروب لأن قاتلاً يصعب الإمساك به يعيثُ فساداً في "المدينة". في بركة الماء القريبة هناك ثلاث جثث هي آخر ضحايا القاتل.

يفزع برانجيه ويحاول الهرب لكن المهندس المعماري، وهو في الوقت نفسه رئيس الشرطة، يرافقه خارج الحي ويجلسان على شرفة أحد المقاهي قريباً من موقف الباص. يشرح المهندس لبرانجيه أن القاتل يرتكب جرائمه في هذا المكان: يختار ضحيته، يستثير شفقتها، يعرض عليها أغراضاً متنوعة، أزهاراً اصطناعية، بطاقات بريدية، مقصّات، صوراً خليعة.

- [٠٠] وأثناء المساومة يصل مع ضحيته قرب البركة التي تعرفها، آنذاك، وعلى حين غرة، يستخدم حيلته العظمى فيقترح أن يعرض على الضحية صورة

^١ انظر ملاحظات وملاحظات مضادة (مناقشة لندنية).

الكولونيل، وهذا إغراء لا يُقاوم. بما أن النور لا يكون كافياً، تتحني الضحية ذات الروح البرينة لترى جيداً، وفي تلك اللحظة تكون النهاية إذ أن القاتل ينتهز فترة انشغالها بتأمل الصورة فيدفعها في البركة وتغرق.

يُسمع فجأة صراخ وصوت سقوط جسم في الماء: إنها داني، سكرتيرة المهندس، ضحية القاتل الجديدة فهي لم تعد تحت حماية المصلحة.

يبين ديكور الفصل الثاني غرفة بيرانجيه، غرفة في الطابق الأرضي مظلمة قبيحة، عند طرف المدينة البعيد، في حي لا يعرف سوى فصل الخريف. في الخارج، حارسه البنائية تُغني وهي تدفع مكنتها، ومتشرد يردد مطلع أغنية، سائقان يتبادلان الشتائم، قائد طائرة يتحدث عن همومه:

- كنا على ارتفاع سبعة آلاف متر عندما رأيت، فجأة، جناح الطائرة يفصل عنها.

- (صوت رقيق): وماذا بعد

- قلت في نفسي، حسناً، بقي الجناح الآخر، تجمع الركاب كلهم في جهة ليحفظوا توازن الطائرة التي كانت تطير بجناح واحد.

- هل خفتم؟

- انتظروا.. فجأة فقدت الطائرة جناحها الثاني، ومحرقاتها.. ومراوحها.. وكنا على ارتفاع سبعة آلاف متر..

يبحث رئيس عمال عن حل لتحسين مردود مؤسسته:

- يضيق الصبيان الموزعون عندنا وقتاً كبيراً عندما يذهبون للتبول. خمس مرات وسطياً في اليوم يعطلون عمليات التوزيع ليقضوا حاجتهم، وأجرة هذا الوقت الضائع لا تحسم من أجورهم. إنهم يستغلون هذا الوقت فلا بد من تنظيمهم: ليتبولوا مرة واحدة في الشهر، بالتتابع، خلال أربع ساعات ونصف بلا انقطاع، وهذا سيوفر عملية الذهاب والإياب التي تكلفنا غالباً. الجمال أيضاً تستطيع تخزين الماء.

رجلان عجوزان يتحسّران على الماضي الجميل، ومعلم الصف يشرح درساً في التاريخ، والبقال يتجادل مع زبونه، وساعي البريد يحمل طرداً لبيرانجيه.. المدينة كلها، الحياة بما فيها.

يصل بيرانجيه فيجد ادوار ينتظروه في غرفته.. لقد فوجئ أن هذا الصديق يملك مفتاحاً لغرفته. يروي بيرانجيه قصة القاتل فلا تظهر علامات الدهشة على

ادوار .. عند الخروج، يفتح ادوار، بحركة جائشة، الحقيبة السوداء الضخمة التي لم يتركها منذ بداية الفصل، ولم يرفع نظره عنها. وجد فيها بيرانجيه، وهو مدهول، أزهراً اصطناعية، بطاقات بريدية، دبابيس، حاملات أقلام، وصوراً للكولونيل. لقد اكتشف فيها أيضاً اسم القاتل وعنوانه، يومياته السرية، وقائمة بجرائمه وأسماء ضحاياه. لم يستطع ادوار أن يترر وجود هذه الأشياء في حقيبته. قرر بيرانجيه أن يذهب برفقة ادوار يخبر الشرطة، لكن ادوار ينسى الحقيبة على كرسي في غرفة بيرانجيه.

في الفصل الثالث، ترى الأم بيبا، في أحد شوارع المدينة تحت رايات خضراء عليها صورة أوزة بيضاء. تخطب في الجماهير. إنها تطالب بالسلطة وتعرض برنامجها السياسي. إنها تعد بتحرير الإنسانية بواسطة استبعاد الأفراد، كما تعد بالحساء الشعبي للجميع، إنها تصف العصر شبه العلمي:

— أعدكم بتغيير كل شيء، ولكي نغير كل شيء يجب أن لا نغير أي شيء، سنتغير الأسماء لكن الأشياء لن يطرأ عليها أي تغيير. الخداع القديم لم يصمد أمام التحليل النفسي ولا التحليل الاجتماعي. سيكون الخداع الجديد منيعاً. لن يكون هناك سوى أنماط من سوء التفاهم، سنجعل الكذب يبلغ درجة الكمال [..] لن نضطهد أحداً بعد الآن، لكننا سنعاقب وسنحقق العدالة. لن نستعمر الشعوب، سنحتلها لنحررها، لن نستغل الناس لكننا سنجعلهم ينتجون. سيُسمى العمل الإيجابي عملاً طوعياً.. والحرب سلاحاً، وسوف يتغير كل شيء بفضلنا وفضل وزّاتي [..] أما فيما يتعلق بالمتقنين.. سنعيدهم إلى جادة الصواب ونجعلهم يسرون بخطى الوزّة عاشت الوزّات!

يسير بيرانجيه وادوار، الأول يجزّ الثاني، يريد بيرانجيه أن يصل إلى مديرية الأمن قبل أن تغلق أبوابها؛ أما ادوار فيريد أن يستريح قليلاً لأن السعال والبصاق أنهكاه، وعندما يلاحظ بيرانجيه أن ادوار لا يحمل حقيبة القاتل تظهر حقائق مماثلة لها من كل صوب: حقيبة تحت ذراع سكير، وأخرى في كف رجل عجوز ذي لحية بيضاء، وثالثة بين يدي الأم بيبا لكن لم تكن أية واحدة منها حقيبة القاتل. يطلب بيرانجيه من ادوار أن يعود إلى غرفته لحضر الحقيبة بينما يتابع هو طريقه إلى مديرية الأمن. انقضى وقت طويل وهو ضائع في زحمة الشارع لكن الزمن توقف، لحسن الحظ، مثلما توقفت حركة المرور.. أخيراً، في أصيل شاحب، في زمان ومكان جامدين وجد نفسه وحيداً على طريق لا نهاية لها. تغدو خطواته بطيئة أكثر فأكثر، قلقه وخوفه يكبران، ويردد الصدى

أقواله. فجأة يظهر القاتل أمامه، هزياً، غير حليق، يرتدي معطفاً بالياً من الجبردين، أعور، "لكن عينه الوحيدة لها بريق الفولاذ".. يضحك بيرانجييه ضحكات عصبية:

- [..] أوه، إنك نحيف هزيل، هزيل بحيث لا تكون قاتلاً، يا صديقي البائس! أنت لا تخيفني! انظر إليّ، انظره كم أنا أقوى منك.

يهز القاتل كتفيه دون جواب، يتكلم بيرانجييه وحده، يطلب من القاتل أن يشرح موقفه، يحاول أن يتخيل، أين توقع دوافعه، يحاول أن يفهمه، أن يبرر مسلكه: "هل أنت متشائم؟.. عدي؟.. فوضوي؟" ويتساءل هل قتل ضابطاً لأنه يكره العسكر؟ هل قتل نساء لأنه عدو المرأة ولأنه عانى من نزواتها؟ هل قتل الأطفال لأنهم يمثلون الإنسانية في أنقى صورها؟ ربما قتل من باب الطيبة ليريح الناس من العذاب، لكي يشفيهم من تسلط فكرة الموت؟ القاتل يضحك، ويصمت.. يحاول بيرانجييه ثنيه عن طريق القتل فيحدثه عن الحب والأخوة، يعرض عليه صداقته، يعرض عليه مركزاً اجتماعياً مرموقاً، يعرض عليه ثروات، يعده بشهداء يموتون من أجله، يتوسل، يهدد، يشتم، يخرج مسدساً من جيبيه، لكن ماذا تفعل الرصاصات مع الكراهية والقسوة؟ يجثو بيرانجييه ويتمتم: "يا إلهي، لا يمكن أن نصنع شيئاً.. ماذا يمكن أن نصنع.. ماذا يمكن أن نصنع..". بينما يقترب القاتل، مهقهاً، شاهراً سكينه الضخمة.

من الحلم الجميل إلى الكابوس

تعتد مسرحية "قاتل بلا أجر" على قصة قصيرة نشرت في المجلة الفرنسية الجديدة في الأول من تشرين الثاني عام ١٩٥٥ تحت عنوان "صورة الكولونيل". اقتصرت الحركة الدرامية في القصة على الإحياء فقط، ولم يتجاوز الحوار البدايات، أما المسرحية، المبنية بشكل جيد، فإنها تكشف عن مقاصد يونسكو بشكل أفضل.

تصور المشاهد المسرحية مواقف وطرقاً متنوعة لمواجهة الحياة، وتقدم سلسلة من الحالات الشعورية. تتألف المسرحية من ثلاث فصول بشكل كل منها لوحة مزدوجة لحالات شعورية متناقضة. تترجم بداية الفصل الأول الشعور بالغبطة، وعلى المسرح العاري توحى تغيرات الأضواء بعالم أجمل نتيجة الفرح في الحياة والإحساس بالخلود.

لكن حضور الموت، أو على الأصح، إدراك هذا الحضور، يفسد الواقع. النور يصبح رمادياً، كما أن بيرانجيه، الممزق، المتجلد، يشعر من جديد بوطأة الوجود، يجد نفسه من جديد وسط ضوضاء متنافرة، محاطاً بالضباب والوحل، على شرفة "مطعم صغير".

تزداد هذه الضلالة في الفصل الثاني الذي يمتاز جوّه بالبشاعة ثم بالاختناق. الجزء الأول منه صورة صوتية رنانة: تبقى غرفة بيرانجيه غارقة في الظلمة، بينما تتصاعد الضوضاء من المنزل والشارع، ومن خلال النافذة، والغرفة موجودة في الطابق الأرضي - نرى أطراف الشخصيات، ومكنسة حارسة البناية: يتضاعف الحدث الصوتي من خلال مسرح الظلال.

تجري أحداث الجزء الثاني في الغرفة الباردة البشعة. بيرانجيه، الذي يعاني أعظم الألم لوفاة داني، يدعو للشققة وادوار يدعو للرشاء لأنه يعاني من آخر مراحل مرض السل؛ كما أن اكتشاف حقيقة القاتل يفرض صورة الموت من جديد، ويثير الشبهة والشكوك.

في الفصل الثالث، يتخبط بيرانجيه وسط محيط متلاطم من الصور الكابوسية. أضاع الحقيبة، ووجد ثلاثاً مثلها لكن لم تكن أياً منها الحقيبة التي يبحث عنها. يتعارك مع السكرير، يتعارك مع العجوز ذي اللحية، الأم بيبي والسكرير يتعاركان أيضاً. يبحث العجوز في مدينة باريس عن أرصفة الدانوب، شرطياً المرور عملاقان، كما إنهما أيضاً ألتان لقراءة الأفكار.. الساعات توقفت. المدى قابل للامتداد لقد: سار بيرانجيه طويلاً لكن مديرية الأمن مازالت بعيدة^(١).

أخيراً، حديث بيرانجيه مع القاتل - وهو "فصل قصير في حد ذاته" كما يقول يونسكو - يعبر عن موقف مأساوي. يناضل بيرانجيه ضد حقد عظيم وقسوة مطلقة، باختصار، ضد حتمية القدر، وليس بمقدوره إلا السقوط.

في هذه السلسلة من اللوحات الست يظهر الواقع على التوالي: رائعاً، كريهاً، مضحكاً، مؤلماً، وهمياً، مأساوياً، ومن خلال هذه التغيرات تولد الحركة الدرامية التي يدعمها سقوط الشخصيات وتقهقر اللغة.

^١ يفكر القاري - ويونسكو أيضاً - بشخصية المساح في رواية كلاكاً "القصر".

سقوط الشخصيات

الشخصيات كثيرة بشكل خاص في مسرحية "قاتل بلا أجر": خمس وثلاثون شخصية، دون أن نحسب الجمهور: شخصيات مرسومة بخطوطها العريضة تجاور بيرانجييه، موكب من الأشباح تزداد قبحاً ولا يظهر أي منها مرتين. هناك، في البداية، المهندس المعماري المسؤول عن "المدينة المشعة" وصبيّة شقراء جميلة: العبقريّة والحب. لكن نهاية الفصل الأول تعرض علينا متسرداً سكراناً و"صاحب مطعم صغير" سوقياً، الحساء تُقتل، المخترع العبقري يغدو خادماً للنظام: يتحول المهندس إلى قائد شرطة لا تعنى له جرائم القاتل شيئاً: "ألو.. لا يوجد أدلة؟ احفظوا القضية!.. - اشرب نخبك!".

الشخصيات في الفصل الثاني دُمى متحركة، فحارسة البناية رقم ١٣ في الشارع رقم ١٢ تتأمل في الفلسفة الرواقية فتري أن الفلاسفة أصحاب ايدولوجيات وكثّاسون منهم الجار، السيد لولار والأنسة كولومبين، خليفة السيد بوليسون وسائق التاكسي الذي يشتم سائق الشاحنة قائلاً: "لماذا تخاطبني بصيغة المفرد؟ ألا تعرف استخدام صيغة الجمع؟" - ومعلم المدرسة، والطيار ورئيس الصبيان الموزعين، وضحية الناقد، الأسقف مورفان^(١)، إلى آخر هذه الوجوه التي نراها في السيرك.

تقدّم نهاية الفصل الثاني، إضافة إلى بيرانجييه الفاشل، خرقة إنسانية لا تشير الشفقة، إنه ادوار بأقواله وأفعاله التي تثير الريبة وتدعو للقلق.

تصبح الشخصيات خطيرة حقاً في الفصل الثالث. الأم بيبا تشبه حارسة البناية^(٢)، لكن الأم بيبا، تلميذة مارك أوريل، تصبح رداً أنثوياً على الأب أوبو: محرّضة، سفيهة، مستخفة بالأخلاق والأعراف، تحت الجمهور على الجريمة، والإعدام دون محاكمة. الشرطيّان عدوانيّان، يعترضان الجندي ويشتمان العجوز - "هيا.. ابتمدد.. إذا كنت أطرش، أو إذا كنت أبله.. اغرب عن وجهي!" يهددان بيرانجييه ويشكان أنه صحفي:

- الشرطي الأول (للثاني): هل لديه آلة تصوير؟

- بيرانجييه: ليس لدي آلة يا سادة، فقتلوني.. أنا لست مخبراً صحفياً..

^١ المقصود هو الناقد والصحفي مورفان لوبيسك.

^٢ أدّت ممثلة واحدة الدورين على المسرح.

- الشرطي الثاني: من حسن حظك أنك لا تحملها معك وإلا كنت حطمت وجهك!

الشبح الأخير من هذه المجموعة هو القاتل.

تفهقر الكلام

عند بداية المسرحية يستخدم بيرانجييه لغة غنائية أقرب إلى الشعر، لغة غنية بالصور والاستعارات والإيقاع العذب والسجع الذي يترجم فرجه في الحياة واحساسه بالإمتلاء: " .. أصبح النور أكثر سطوعاً دون أن يفقد شيئاً من رفته، لقد كان كثيفاً جداً حتى صار صالحاً للتنفس، أصبح هو الهواء نفسه، بل صار النور صالحاً للشرب مثل الماء الصافي .. كيف أعير لك عن ذلك البريق الذي لا مثيل له؟ .. كأنما لو أن هناك أربع شمس في السماء".

في نهاية هذا الفصل تسود اللهجة الغثة المبتذلة التي يلجأ إليها مفوض الشرطة و "صاحب المطعم الصغير": "من أجلك أنت يا سيدي المغوض عندي نبيذ بوجولييه حقيقي" و "قطيرة من لحم الأرنب محشوة بلحم الخنزير الطري" ومن هذه الغثائية والابتذال يتفجر فجأة السخف واللامعقولية.

لكن اللامعقولية تتزايد خاصة في الفصل الثاني، في مشهد الأصوات. يمتزج السخف مع البلاهة وتختفي كل فكرة لكن الكلمات تتابع ترابطها ولم تعد الشخصيات مسؤولة عن الحديث الذي تتبادله، فأغنية حارسه البنائية هي تركيب غير محدود لمفهومي "الحر" و "البرد":

عندما يكون الطقس بارداً، لا يكون حاراً

عندما يكون الطقس حاراً، ذلك يعني أنه بارد!

عندما يكون الطقس بارداً، هل يكون حاراً؟

عندما يكون الطقس حاراً هل يكون إذن بارداً؟

كيف يكون الطقس إذن عندما يكون لارداً [..]

تشكّل المناقشات الدائرة بين أعضاء مجلس الإدارة سلسلة من الكنايات تتسلل إليها اشتقاقات لغوية:

- هل عُرِضت القضية على وفد من مندوبي الوفود؟ [..]

- كلا، فقد حُلّت المسألة بواسطة نيابة وفد المندوبين [..]

- وبما عندنا من معلمين رؤساء ومن معلمين مساعدين ومن نظراء المعلمين ومن حاشية المعلمين سنشكل قاعدة تنظيمية، ولجنة مشتركة.
- سيؤلف المعلمون وحاشية المعلمين لجان أعمال من شركات المتعديين وهذه بدورها ستؤلف جماعات اجتماعية..
- هناك المبدأ التنظيمي للقاعدة وهناك وجهة النظر التنظيمية للبنية الفوقية..

في الفصل الثالث يتضمن حديث الأم بببا جميع الشعارات السياسية وجميع الصيغ التي تتبناها جميع الايديولوجيات الهابطة وجميع الدكتاتوريات. تتحدث الأم بببا لغة القتل والجريمة، ويستخدم الشرطي لغة العنف والقسوة: "انصرف من أمامي.. لحظة واحدة فأنا مشغول بهذا السيد.. لا تهتم بذلك، سناله على كل حال في المرة القادمة.."

أخيراً، نرى اللغة تنفتت في المونولوج الذي يلقيه بيرانجيه، فكلمات الحب والصداقة والكرم ما هي إلا قوالب تستر نزعة عاطفية منافقة، وتخفي حجج ومبررات الكراهية والجريمة، ثم يتلاشى اليقين، وتتساوى التأكيدات كلها في الشك الذي يعبر عنه بكلمة "ربما".

- [...] لست أدري، ربما كان الذنب ذنبني، وربما كان ذنبك أنت، وربما لم يكن لا ذنبني ولا ذنبك، ربما لم يكن هناك ذنب على الإطلاق، ربما كان ما فعله خيراً وربما كان شراً وربما لم يكن لا خيراً ولا شراً [...].

سيستخدم بيرانجيه بعد قليل كلمات على غير ما يهوى.. يفكر بالأخوة لكنه يقيء شتائم، لقد فلّ سلاحه. عند خاتمة هذا التفهّر التدريجي تكتمل "تراجيديا اللغة".

السقوط

تغيرات الانطباع العام، سقوط الشخصيات، تفهّر اللغة، كلها ظواهر تشير إلى تجربة وجودية، تجربة السقوط.

تحدث بعض النقاد عن "مسألة الشر" في المسرحية، كتبت الناقدة مارسيل كابرون: "إنها "المسرحية" تعالج أكثر المواضيع اتساعاً ورحابة، الموضوع الذي يحوي المواضيع كلها: الإنسان في مواجهة الشر، الإنسان الذي يصارع الشر، الشر الذي يكسّي بمختلف الوجوه والأشكال، الشر الذي يأخذ شكل اللامبالاة،

وهو الشكل الذي ربما كان أكثر الأشكال إفساداً للأخلاق^(١). مع ذلك فالقاتل لا يمثل الشر، كما أن المشاهد المتتابعة ليست - أو ليست فقط - تجميعاً لأشكال الشر المختلفة. الحركة الدرامية هي عنصر أساسي في مغزى المسرحية، إنها تبرز فقدان التدريجي للعفو والمغفرة، وتؤكد التورط في واقع ساقط. تصور الإنسان المطرود من الفردوس. هذا هو المضمون الانطولوجي لمسرحية "قاتل بلا أجر". "نعم، إنه السقوط، كما يقول يونسكو، إنها الخطيئة الأولى، وهذا يعني إنها شيخوخة العادة، أما الحدث اليومي المتجدد فما هو إلا غطاء رمادي نخفي تحته عذرية العالم"^(٢).

هجاء سياسي

تعكس المسرحية اهتمامات سياسية أيضاً. لقد عاب البعض على يونسكو لامبالاته بالأحداث الجارية: "بحثاً عبثاً في تلك المسرحيات عن علامة واحدة من علامات عصرنا"^(٣) كما كتبت رونيه سوريل، لكن هذا يعني أنها لم تر في "قاتل بلا أجر" أن قائد الشرطة والشرطيين، وبشكل خاص الأم بيبا يجسدون الضغوط التي يفرضها المجتمع على الفرد. المسرحية نقد لاذع للطغيان، للأيديولوجيات الظالمة المضطهدة - وفي رأي يونسكو، كل سلطة مستبدة، وكل أيديولوجيا ظالمة متى حققت النصر.

التفكير الفردي لم يعد حراً؛ لقد جرب بيرانجييه ذلك مع الشرطييين اللذين حزرنا أفكاره، كما أن ادوار صرّح بذلك إلى السكير: "أن يفكر المرء ضد عصره فتلك بطولة أمّا أن يعلنه فذلك هو الجنون"^(٤).

إذا لم يشعر النقاد بالحالة الراهنة في مسرحية "قاتل بلا أجر" فذلك لأن يونسكو لم يستخدم أساليب المسرح السياسي الذي ازدهر واستتب له الأمر حوالي عام ١٩٦٠. النقد اللاذع يذكّرنا، هنا، بجاري ولا يذكّرنا ببريخت. يعرض يونسكو قناعاته الصحيحة على لسان السكير، بشيء من الحياء، مع حرصه على أن لا يُنظر إليه بخدية كبيرة.

- لقد ساهم العلم والفن في تغيير العقلية أكثر مما ساهمت السياسة. الثورة

^١ جريدة كوما ٢ آذار ١٩٥٩.

^٢ محاور، ٢٠ مع كلود بونفوا من ٣٥.

^٣ مجلة الأزمّة الحديثة، نيسان ١٩٥٩.

^٤ يتذكر يونسكو تجربته الشخصية.

الحقيقية تتم داخل مخابر العلماء ومراسم الرسامين، انشأتين أوبنهايمر، بروتون، كاندنيسكي، بيكاسو، بافلوف، هؤلاء هم المجددون الحقيقيون. إنهم يوسعون ميدان معارفنا، يجددون نظرتنا للعالم، يعيروننا [..] الثورات الشعبية أحقاد وضغائن تتفجر بطريقة خرقاء..

هل هناك موقف أوضح من هذا الموقف في المسرح الذي يسمونه "الملتزم"؟

"الكركدن"

ليست نقطة انطلاق مسرحية الكركدن - نقطة انطلاقها فقط - تجربة انطولوجية، كما رأينا في مسرحية "قاتل بلا أجر بل كان حدثاً تاريخياً، هو وصول الايديولوجية النازية إلى رومانيا بعد عام ١٩٣٣. رفض يونسكو الإيمان بالمذهب الجديد ودخل في صراعات مع أساتذته وأصدقائه، وتحولت مقاومته، شكوكه، عناده، عواطفه، صدماته النفسية مع مرور الزمن إلى قلق دائم. الذكريات المخترنة، الملحاحة كانت تتحول إلى هلوسات، وفي عام ١٩٥٧ كان موضوع مسرحية "الكركدن" يعيش في مخيلته.

بناء على طلب جنيفاف سيرو، اعتمد يونسكو على فكرة الكركدن في كتابة قصة قصيرة ظهرت في مجلة الآداب الجديدة، شهر أيلول ١٩٥٧، ثم استخدم يونسكو القصة أساساً للمسرحية. في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٩٥٨ قرأ يونسكو الفصل الثالث في مسرح فيوكولومبييه، خاطب الجمهور قائلاً: "المسرحية تكتب لتمثل لا لتقرأ. لو كنت مكانكم لما حضرت". عرضت المسرحية لأول مرة في نوسلدورف في ٧ تشرين الثاني ١٩٥٩، وفي فرنسا، قدمها لوي بارو على مسرح تياتر دو فرانس في ٢٢ كانون الثاني ١٩٦٠، وفي انكلترا قدمها أورسون ويلز على خشبة رويال كورت تياتر في ٢٨ نيسان ١٩٦٠، ولعب فيها لورانس أوليفيه دور البطولة. بعد عشر سنوات من الفشل، عرف يونسكو النجاح والمجد.

للتقي في المسرحية مع بيرانجييه من جديد، المصحح في دار نشر إدارية^(١). في الفصل الأول، يذهب بيرانجييه إلى موعد مع صديقته جان، في شرفة مقهى، قبيل ظهر يوم الأحد. يصلان إلى الساحة الصغيرة في وقت واحد،

^١ مثلاً كان يونسكو في الأربعينات.

كل منهما من اتجاه. بيرانجيه مغمضُ الثياب، أشعث الشعر، يجرُ قدميه جرّاً، أمّا جان ففي غاية الأناقة.

يبدأ الحديث لكن الإرهاق والنعاس الشديد يظهران على بيرانجيه يتثاءب، "شعر بألام في شعره" و "ظماً عظيم". يلقي عليه جان درساً ويوبخه على مسلكه، وهيئته وقميصه المغضن بلا ربطة عنق، ووجهه غير الحليق، وشعره الأشعث.. بينما يتحدث جان يُخرج من جيوبه ربطة عنق، ومشطاً، ومراة صغيرة، يعقد بيرانجيه الوديع ربطة العنق، ويمشط شعره، ويمد لسانه أمام المرأة..

يغضب جان منه لكن في تلك اللحظة تماماً يمر كركدن فينشر الرعب بين التجار والمتسكّين، لا يهتم بيرانجيه بالأمر لكن جان ينفجر غاضباً: "يجب أن نحتج إلى السلطات البلدية! ما الفائدة منها تلك السلطات البلدية؟".

يصل رجل يعتمر قبعة قش، هو رجل المنطق، وشيخ، ويجلسان على الطاولة المجاورة. يشرح رجل المنطق آلية القياس:

- رجل المنطق: ها هو مثال نموذجي عن القياس، القط له أربع قوائم، لكل من ايزيدور وفريكو أربع قوائم، إذن ايزيدور وفريكو قطان.

- الشيخ: كلبي أيضاً له أربع قوائم.

- رجل المنطق: إنه قط إذن.

يستمر الحديثان (حديث جان وبيرانجيه، وحديث رجل المنطق والشيخ) بشكل متقاطع، ينتقل رجل المنطق والشيخ من القياس إلى الأخلاق، إلى الحساب الذهني وكلها "صور من المنطق". جان ينصح بيرانجيه أن يغير مسلكه، أن يكون نظيفاً، أن ينقطع عن شرب الكحول، أن يروح عن نفسه بطريقة ذكية.. لكن عندما اقتنع بيرانجيه وقرر أن يزور المتاحف، ويتردد على المسارح، طلب من جان مرافقته.. يرفض هذا الأخير: "سأنام قليلاً بعد الظهر فالقيلولة جزء من برنامجي.. هذا المساء سألتقي مع بعض الأصدقاء في مشرب.. لقد وعدتهم وأنا أحافظ على وعودي".

يعبر كركدن جديد وأثناء مروره يسحق قطّ إحدى السيدات. يحزن عليها كل من رآها، لكن الغضب يسيطر على جان فيشتّم بيرانجيه وينصرف حائفاً. يتساءل الناس عن عدد الكركدنات وأصلها.. يشارك رجل المنطق في الحديث ويشوش كل شيء. يأسف بيرانجيه لأنه فقد السيطرة على أعصابه واختصم مع

جان، يطلب كأساً كبيرة من الكونياك ويقرر أن يستخدم عقله مرة أخرى.

يتألف الفصل الثاني من لوحتين، تمثل اللوحة الأولى المكتب الذي يشتغل بيرانجيه فيه. السيد بابيون رئيس المكتب، دودار مجاز في الحقوق يعد بمستقبل باهر، بوتار معلم ابتدائي محال على التقاعد، ديزي السكرتيرة الحلوة، يتناقشون حول حدث البارحة الذي تحدثت عنه الجرائد. دودار لا يؤيد ولا يعارض، بل يجد المسألة جدية بالاهتمام والدراسة. لقد شاهدت ديزي الكركدن وطلبت شهادة بيرانجيه الذي وصل إلى أطراف أصابعه لأنه متأخر. يحاول السيد بابيون، وهو المدرك للتسلسل الوظيفي، أن يفضّ النقاش، ثم يذكر زملاءه بالانظام ويبدأ الجميع العمل.

تصل مدام بوف وتعتذر عن غياب زوجها. لقد ذهب إلى الريف وأصيب بنزلة برد. ثم تروي بانفعال أن كركدنًا طاردها من البيت إلى المكتب وها هو يدور هناك عند أسفل الدرج الذي تداعى تحت وطأة ثقله. فجأة تطلق مدام بوف صرخة رعب:

- مدام بوف: يا إلهي! هل هذا ممكن!

- بيرانجيه (إلى مدام بوف): ما بك؟

- مدام بوف: إنه زوجي! بوف، يا حبيبي بوف، ماذا حصل لك؟

- ديزي (إلى مدام بوف): هل أنت متأكدة تمامًا؟

- مدام بوف: لقد تعرّفت عليه، لقد تعرّفت عليه (يردّ عليها الكركدن بخوار هائل لكنه حنون).

- السيد بابيون: عجباً! سأطرده نهائياً هذه المرة!

"لا تصغي مدام بوف إلا لحبها" وتتدفّع إلى قفص السلم وتقفز على ظهر "وحيد الأصبع" وتغزو أمارونة تحت بصر بيرانجيه وديزي. بما أنه لم يعد هناك ثمة درج تتلفن ديزي إلى رجال الإطفاء كي يحضروا لإنقاذهم، لكن رجال الإطفاء مشغولون جداً فقد وصلتهم طلبات من شتى أنحاء المدينة لإنقاذ الناس من الكركدنات: "هذا الصباح كان هناك سبعة كركدنات والآن صار عددها سبعة عشر [...] تمّ الإبلاغ عن اثنين وثلاثين كركدنا.

لم يعد هناك مجال للشك في هذه الظاهرة فيقول بوتار بامتعاض إلى دودار: "كلّاً ياسيد دودار، أنا لا أنكر الحقيقة الكركدنية، ولم أنكرها من قبل أبداً".

تمثّل اللوحة الثانية من الفصل الثاني غرفة جان. استغلّ بيرانجيه فرصة

إغلاق المكتب وجاء ليعتذر عن سلوكه البارحة. يجد صديقه في السرير، يراوده القلق، وشيئاً فشيئاً يحلّ الرعب محلّ القلق، إذ يتحوّل جان، تحت بصره، إلى كركدن. يصبح تنفّسه عالياً، وصوته أجش، يسمك جلده ويخضر، يشعر جان بارتفاع في درجة الحرارة فيخلع ثيابه ويريد أن يستحمّ في المستنقع وينبت قرن في وسط جبهته. أثناء الحديث يتكرر جان لمبادئه التي دافع عنها بالأمس: الحضارة باطلة، الإنسانية ادّعاء مضحك، والأخلاق يجب تجاوزها!

- جان: الأخلاق! نتحدث عن الأخلاق، لديّ منها الشيء الكثير.

الأخلاق، شيء حلوا يجب أن نتجاوز الأخلاق.

- بيرانجييه: وماذا سنضع مكانها؟

- جان: الطبيعة!

- بيرانجييه: الطبيعة؟

- جان: للطبيعة قوانينها، الأخلاق ضد الطبيعة.

- بيرانجييه: إذا كنت قد فهمت ما ترمي إليه فأنت تريد أن تستبدل قانون

الأخلاق بشريعة الغاب!

- جان: سأعيش في الغاب، سأعيش فيه.

- بيرانجييه: كلام يقال، لكن في الحقيقة لا أحد...

- جان: يجب أن نعيد بناء أسس حياتنا. يجب العودة إلى الطهارة

الأولى...

في النهاية، يثور جان ويهدد بيرانجييه: "سأدوسك... سأدوسك"

ثم يصبح صياحه خواراً. يهرب بيرانجييه ويطلب المساعدة لكن الجار والجارّة وحارس البناية صاروا كركدنا، وها هي قطعان من الحيوانات سميكة الجلد تملأ الشوارع.

تدور أحداث الفصل الثالث في غرفة بيرانجييه. بيرانجييه نائم تفترسه الكوابيس، يعبر عن رأيه إلى دودار الذي جاء لزيارته، ثم يتحدث عن مخاوفه من هذا الوباء وانتقاله بالعدوى، وقلقه من التفكير في الناس المصابين. يحاول دودار طمأنته: "أنت لا تواجه أي خطر... ليس لديك الاستعداد لذلك" وفي الوقت نفسه يقول دودار إن من الواجب فهم هذه الظاهرة، ومنحها مسألة شرف فكري وأمانة علمية، لكن إدانتها موقف متطرف وهناك خطر عظيم في إصدار حكم

عليها هل من الممكن معرفة أين ينتهي العادي ويبدأ الشاذ.

يرى بيرانجييه في هذا التساهل ضعفاً، بل تواطؤاً: "لن تلبث حتى تصبح متعاطفاً مع الكركدنات". يحاول بيرانجييه أن يدافع عن النزعة الإنسانية لكنه لا يدري كيف يردّ عليّ دودار ويضيع بين حججه ويخلط بين غاليلو وريثون، ويغضب: "لست متمكناً من الفلسفة ولم أقم بدراسات أما أنت فأنت تحمل شهادات عليا... وهذا ما يجعلك أكثر طلاقة في الحديث؛ أما أنا فلا أدري بما أجيبك، أنا نتقصني المهارة... لكنني أشعر أنك على خطأ...". إنه رفض عفوي، عاطفي.

تحضر ديزي لتعرف الأخبار من بيرانجييه وفي تلك الأثناء لا يتوقف عدد الكركدنات عن الإزداد، إذ بعد أربع وعشرين ساعة من تحول رئيسه، يتحول بوتار إلى كركدن: "يجب أن نساير عصرنا! تلك كانت آخر كلماته الإنسانية". الكار دينال دوريتيز، مازاران، دوق سان سيمون يتحولون إلى كركدنات. مخازن كثيرة أغلقت بسبب التصلّيات؛ ومن النافذة يرى جدار مركز الإطفاء يتهدّم وسط غيمة من الغبار وتخرج منه كتّيبة من كركدنات تتقدمها فرقة موسيقية، لم يعد دودار قادراً على الصمود رغم جهود بيرانجييه لإبقائه بشراً.

بيرانجييه وديزي وحيدان. يصّرح لها بحبه. لقد نسيا العالم الخارجي فترة من الزمن؛ لكن الشر ينتشر. يرنّ الهاتف، المتحدث كركدن. سيطرت الكركدنات على محطة الإذاعة وأعلنت السلطات تأييدها للكركدنات ولم يبق هناك سواهما: بيرانجييه وديزي آخر الكائنات البشرية. جاء دور ديزي وشعرت بقلق عظيم فلم يستطع بيرانجييه تهدئتها. خارت عزيمتها ولا تريد متابعة الفضال، وتجديد الإنسانية. لا تريد أن تكون حواء لآدم جديد. أغوتها الكركدنات وصارت ترى في حوارها أناشيد، وراحت تتأمل "لعبها"! "الكركدنات جميلة، إنها تبدو لطيفة... إنها آلهة". يتحدث بيرانجييه عن جبهما فترّد عليه!

- ديزي: إنني أشعر بقليل من الخجل من ذلك الذي تدعوه حباً؛ هذا الشعور المريض، هذا الضعف الذي نجده عند الرجل وعند المرأة. هذا لا يقارن أبداً بالحماسة، بالطاقة الخارقة التي تصدر عن الكائنات المحيطة بنا.

- بيرانجييه: الطاقة؟ تريدن طاقة؟ خذي، إليك هذه الطاقة (يصفعها) لقد انتهى كل شيء وتحطّم جبهما: "واحسرتاه، خلال دقائق قليلة عشنا خمسة وعشرين عاماً من الحياة الزوجية" قال بيرانجييه "الحياة المشتركة لم تعد ممكنة" كما أكدت ديزي ثم تتصرف لتضيق في ذلك القطيع.

تنتهي المسرحية بمونولوج يليق به بيرانجييه، استدرارك مؤثر وساخر معاً.

ينادي ديزي بلا جدوى، يسدّ الأبواب والنوافذ "لن ينالوني أبداً" يحاول أن يبرر ذاته لكنه لم يفهم ماذا تعني اللغة التي لا يتكلمها أحد، ولا يتعرّف على الصور المعلّقة على الجدار، ولا الصور التي يخرجها من أحد الأدراج... يطمح أن يصبح كركدن! وينظر بقرف إلى جلده الرخو الرقيق وجبهته الخالية من القرون، ويجرب الخوار دون نجاح. آنذاك، وبينما تنهار الجدران من حواليه، يتناول مسدسه، وفي ارتعاشة مقاومة: "ضد العالم أجمع سادافع عن نفسي! ضد العالم أجمع سادافع عن نفسي! أنا آخر إنسان وسأبقى كذلك حتى النهاية! لن استسلم!".

المسخ:

الموضوع المركزي في المسرحية هو المسخ وقد تأثر يونسكو بشكل واضح بكافكا، عندما اكتشف يونسكو الروائي التشيكي -خصوصاً قصة المسخ- كان يعيش فترة قلق من حياته. ظنّ أنه وجد لدى كافكا وساوسه الشخصية وفهم القصة على أنها تعبير، لدى كل فرد، عن قوى ومظاهر مرعبة، كما رأى فيها نزع الصفة الإنسانية عن الفرد ورمزاً بصورة دورية للجماهير والشعوب التي تكتسب بصورة دورية وجهاً مرعباً.. يمكن أن نأخذ هذا التفسير بعين الاعتبار لكن من الأهمية بمكان أن يونسكو وجد لدى كافكا صورة لعالم ولّد من الكوابيس، ووجد أيضاً حساسية قريبة من حساسيته، وقد ساعده ذلك بلا شك على أن يعطي عالمه الخاص الخيالي أشكاله وظابعه العام.

لقد شكّل التحول، من قبل، عنصراً من عناصر الإخراج في مسرحيتي "الإمثال" و "ضحايا الواجب" أما في مسرحية "الركدن" فقد غدا التحول محركاً للعمل الدرامي كله.

تطوّر حتمي

الحركة، في المسرحية، حركة مستقيمة: العدوى لم توفّر أحداً، والدائرة تضيق ببطء حول بير أنجييه.

يبين الفصل الأول موطن الوباء: مدينة صغيرة هادئة جداً، لا يحدث فيها شيء أبداً. ليس هناك أي مظهر واضح للمرض؛ لكن هناك بعض العلامات ذات المغزى، سام مدينة لا تعرف التسلية، الخمول، حزن الأمكنة، أنانية الناس، اللامبالاة بكل أمر لا يمسّهم شخصياً. خاصة موقف جان ورجل المنطق. الأول

عنيف، مدّع، يدافع من قبيل العادة عن إنسانية لا يؤمن بها، كسول، سكّير، يتبنّى أفكاراً يمتاز بعضها - تمجيد القوة مثلاً- بمزايا كركدنية. أما الآخر فأبله، خطير، لأنه يملك سلاحاً هو المنطق، مستعدّ للدفاع عن أي شيء أو لتدمير أي شيء. على الساحة الصغيرة حيث تتحرك الدمى التي تشدّ خيوطها أهواء مكبوتة، يمرّ كركدن كلما اغتاط جان من بيرانجيه وهذه أيضاً دلالة مقلقة.

تبيّن اللوحة الثانية منطقة أخرى مصابة بالوباء. مواقف الشخصيات تشير إلى استعداد مسبق للإصابة بالمرض. بوتار عنيف هو الآخر مثل جان. مبادئه ما هي أكثر من قناع يخفي حسده كرجل فاشل. يحسد رئيسه، يكره الصحفيين، يحقّر سكان جنوب فرنسا (إنهم خياليون أكثر من اللازم) ولا جامعيين. إنه عدو للمشروبات الكحولية، عدو للعنصرية. إنه معارض دائم. أما دودار فمؤيد دائم، مستعدّ دائماً لقبول أي شيء. وهذا وضع خطير أيضاً. أمّا السيد بابيون فهو الرخاوة عينها. خلال هذه اللوحة، ومع تحوّل بوف، تتبّنت دعائم "الوضوح الكركدني" على نمط هزلي.

يتبدّل المناخ في اللوحة الثالثة ويتمّ الانتقال من الهزل إلى الغرابة. المرض لا ينتقل في الكواليس فقط بل على المنصة، إنه حقيقة حيّة. يتمّ تحوّل جان بشكل متناغم مع تحولات الجيران والبواب من خلال الخوار المسموع والأشباح التي نراها عبر الشارع. مع مرور الوقت يأخذ المرض مغزى جديداً: خلال حديث جان عن الأخلاق الكركدنية -المودة إلى الطيبة، "الطهارة الأولى"- نسمع هدير شعارات الإيديولوجيات كلها.

في الفصل الأخير يصبح بيرانجيه مركز اللوحة، عليه تقع وطأة التهديد. تتسارع الحركة الدرامية من خلال تناوب المشهد والقصة وتزداد قوة بواسطة التحولات المستورة التي ترافق الشخصيات المعروفة: بابيون، بوتار، رجل المنطق... غرام بيرانجيه وديزي استراحة قصيرة في هذه الحركة الدرامية، لكن الداء يتطوّر خفية بحيث تكون النهاية أكثر عنفاً. العالم ينهار حول لبيرانجيه ووسط تخيلات القيامة، يبقى هناك بصيص إنساني. الكلمة الأخيرة ليست حلاً: في زمن الفوضى المتجمد، حكم على بيرانجيه أن يدافع عن إنسانية وأن يرفضها إلى النهاية.

مجموعة موضوعات:

إضافة إلى موضوع التحوّل المركزي، تعالج المسرحية موضوعات أخرى.

يتحدث بيرانجيه مع جان عن صعوبة الحياة والحاجة إلى الكحول للنسيان: "أنا لا أحب الكحول كثيراً ومع ذلك إذا لم أشرب لا تسير الأمور. حالي كما لو أنني خائف، فأنا أشرب إذن كي لا أخاف [...]" أنا متعب، متعب منذ سنوات، أجد صعوبة في حمل جسدي... "صورة المدينة الصغيرة، العمل الممل، أيام الأحد الفارغة التي لا تنتهي، التسليات الرتيبة، كل ذلك يؤكد عبث الحياة: "الوحدة تثقل عليّ، والمجتمع كذلك" يقول بيرانجيه ثم يكمل: "الحياة شيء شاذ".

علاقات بيرانجيه مع ديزي وجان تنويعات لموضوعي الحب والصدقة تنويعات متشائمة: الحب زائل عاجز، والصدقة كذب، إذ أن جان لا يتردد على بيرانجيه إلا لكي يتلذذ بتفوقه عليه.

هذه الموضوعات الثانوية ليست منعزلة عن الموضوع الرئيسي بل تتناغم معه. الفشل في الحياة، والحب، والصدقة سبب من أسباب العيش على طريقة الكركدن.

دراسة أسباب المرض:

يعتمد التطور الدرامي على رسم الشخصيات، وتأثيرات الحوار، واللعبة المسرحية.. الشخصيات المرسومة بخطوط واضحة شخصيات نموذجية: التجار، موظفو المكتب، ربة البيت... وفي كل مجموعة يبين التصوير الفروق الدقيقة: البقال، صاحب المقهى، خادمة المقهى، رئيس المكتب، صاحب الإجازة في الحقوق، المعلم المتقاعد الذي يجد عملاً جديداً، ضاربة الآلة الكاتبة الشابة... وهكذا نحصل على تنوع في الشخصيات يسمح لنا بدراسة وتحليل أسباب المرض.

"كيف يستطيع المرء أن يصبح كركدنًا؟" تسأل بيرانجيه، وكل فرد من الشخصيات يشكل جواباً لهذا السؤال. يصبح المرء كركدنًا لأنه عنيف، مغرور، ويصبح كركدنًا "لأنه يساير عصره" أو لأنه فاشل وتابع، أو لأنه يشعر بالضيق من سحته، ويصبح المرء كركدنًا لأنه يحاول تزيير الشر، أو لأنه يتذبذب بين الرفض والتأييد، ويصبح المرء كركدنًا نتيجة الغواية والإغراء، أو من منطلق "جمالي".

مقابل الشخصيات التي تجمدت في قوالب، بيرانجيه وحده يتغير، يتغير على إيقاع الحركة الدرامية نفسها. سكير ظريف ذو فكر خيالي، لا مبال بالحياة،

وشيناً فشيناً يكتسب التماسك والصلابة ويظهر على وجه التقريب، بمظهر البطل في نهاية المسرحية. أما وقد غيّر تحول جان تغييراً جذرياً فإنه شعر بمسؤوليته، بل بذنبه، وألقى على نفسه تبعه أخطاء الآخرين وتبنى أفكارهم وحججهم. لقد استعاد في المونولوج الختامي أفكار جان ودودار وديزي. لقد تحمل مسؤولية الإنسانية جمعاء.

ناقل الفيروس: اللغة.

مثلاً تنتشر الفئران مرض الطاعون كذلك تنقل اللغة فيروس الكركنة. هناك بعض الصور الشعرية في المشهد الغرامي، لكن اللغة غالباً ما تكتسب شكلاً متخفياً، وتؤلف التفاهات نسيج الأحاديث كلها: "يا للتهذيب الفرنسي الأصل، وليس كما نرى في شباب اليوم...." "كان قطي نظيفاً جداً، كان يتبول في نشارة الخشب..." "لم يكن ينقصه سوى الكلام..." مبادئ من يجهدون أنفسهم في التفكير ما هي إلا سخافات وها هو جان يردد أفكاراً عامة مبتذلة: "كلما شرب المرء زاد عطشه"، "مزيدياً من الإرادة بحق الشيطان... يجب أن تكون على دراية بمشكلات اليوم.. كن على علم... بدلاً من أن تنفق كل ما يتوفر لك من نقود على المشروبات الكحولية..." كما أن الحكم والأمثال التي يرددها بوتار ماهي إلا لآلئ من نفس المياه: كل الصحفيين كذابون... أنا، لست من سكان الجنوب... الكليات، الجامعة، إنها لاتساوي المدرسة الابتدائية..."

ليست المسافة طويلة ما بين البلاهة واللغو، إذ بالمحافظة على الشكل الجامد لفكرة عامة يكفي تغيير كلمة واحدة: "مأنوع الكركدن الذي ليس له سوى قرن واحد؟"

يمكن للامعقولية أن تولد من اجتماع الضدين أو من غموض ناتج عن ثمائل الأصوات: "أنت تحلم واقفاً ١- أنا جالس- واقف أو جالس نفس الشيء -هناك بعض الاختلاف على كل حال". "كنت بجوار صديقي جان!... كان هناك أشخاص آخرون -أقسم أنك لاتدري ما تقول".

لا تكتسب اللغة خطورتها من زيفها بل من عملها المتقن إلى حد الإفراط ومن آليتها... من آليتها الذاتية. يرى يونسكو في المنطق تلاعباً بالألفاظ يقتل الفكر الحقيقي.

اللغة موجودة خارج الحياة لكنها قادرة على خنقها. تدعي اللغة أنها تنظم

المعرفة والعمل وتحدد العدالة والأخلاق... "لها وجوه متعددة كما يقول الشيخ". وفي هذا الصدد فإن المشهد الرباعي الذي يتقاطع فيه حديثان - حديث جان وبيرانجي وحديث رجل المنطق مع الشيخ ليس هزلياً فقط بل إنه يبين أن الحياة الناعمة القاسية، "الثقيلة الخفيفة" المتناقضة المزدوجة، لا علاقة لها مع آلية المحاكمة المنطقية. يقول جان لبيرانجي: "لقد ناقضت نفسك، فهل الوحدة تثقل عليك أم هي الكثرة؟ تحسب نفسك مفكراً لكنك تفنّد المنطق تماماً". صحيح أن بيرانجي يبرهن بطريقة رديئة لكنه يشعر أنه على صواب.

المنطق خطير لأنه يقيم الدليل على أي شيء، على أن الكلب قط، وأن لسفراط أربع قوائم... أو على أن الكركدنة هي المستقبل والتقدم. المنطق يقتل العفوية، يحول الحياة إلى حركات وإيماءات ويجعل من التفكير تكيّفاً نفسانياً؟ إنه يجمع الأشكال البراقة التي تخفي الغرائز الجنسية والعنف والتعطش للقتل وجزات الأم بيبا.

"... عمل متكامل..."

استغلّ يونسكو في هذه المسرحية جميع إمكانيات المسرح: التمثيل، الديكورات، الإكسسوارات، الإضاءة.

غالباً ما يكون تمثيل الممثلين مستقلاً عن النص. يبدأ الفصل الأول بحركات صامتة بين صاحبة البقالة وربة البيت؛ وما كاد جان يستقر حتى أخرج من جيوبه أدوات الزينة كأنه حاوٍ يخرج الأرناب من قبعته، وينتهي الفصل الأول باستعراض؛ هذه المشاهد هي التي تعطي الفصل الأول طابعه الضاحك. يبدأ الفصل الثاني بـ "لوحة حية" تمهّد للنقاش الذي يليها. يبرز هرب بيرانجي، الذي يلاحقه جان، غرابة الموقف؛ ومشهد اللوحات والصور في نهاية الفصل الثالث هو أيضاً حركات صامتة تساعد على تطوّر الحدث الدرامي.

يبرز تغير الديكور التهديد المتعاطم الذي يضغط على بيرانجي: ساحة عامة، ثم مكان عمله، ثم غرفة صديقه، وأخيراً غرفته هو؛ الشر يطارد بيرانجي في أمكنة تزداد صميمية بالتدريج. إضافة إلى ذلك، فإن هذا الديكور يتهدّم، جزئياً، في الفصل الثاني تحت وطأة الكركدن، أمّا في الفصل الثالث فإنه ينهار تماماً تحت ضرباتها. آنذاك يصبح بيرانجي عاجزاً عن الدفاع.

استخدام الإكسسوارات قضية تهّم المخرج بمقدار ما تهّم المؤلف. يمكن أن

بتخيل استعمال أقتعة تمثّل الكركدنات، كما يمكن تقديم المسخ الجسدي الذي يتعرض له جان: يذهب إلى الحمام ويعود عدة مرات وفي كل مرة يكبر القرن على جبهته ويزداد اخضرار بشرته. إمكانيات أخرى للإخراج توحى بتحول داخلي بحث: "هذا الإحتمال أصعب؛ لكن عندما ينجح هذا التحول، خصوصاً الأخلاقي، يغدو الأمر مقلّماً. ومن الغريب أنه عندما لا تُستخدم الإكسسوارات تصبح المسرحية سوداء، وأكثر مأساوية، أمّا في حالة إستخدامها، تصبح المسرحية هزلية ويضحك المشاهدون. لقد اختار بارو التفسير الهزلي لأنه يعتقد أن أشد المسرحيات مأساوية في فرنسا هي المسرحيات الهزلية واستشهد بمسرحيات مولير: طرطوف، كاره البشر، البخيل^(١١).

مهما كانت طريقة الإخراج فهناك عملية تكاثر. والطريقة هي موضوع المسرحية بالذات كما أنها إحدى الوسائل الدرامية. هناك مطابقة هزلية بين تكاثر الخرافات وازدياد عدد الرجال الذين اسمهم جان: في اللوحة الثالثة، كل الناس اسمهم جان وكما رأينا كل الناس اسمهم جاك أو روبير أو اميديه.

مسرحية "ملتزمة".

لمسرحية الكركدن مغزى تاريخي قبل كل شيء. "تهدف المسرحية إلى وصف انتشار النازية في بلد من البلدان" كما كتب يونسكو^(١٢) لقد نفذ جان لوي بارو استعراض الكركدنات على إيقاع أناشيد ومارشات من استعراضات الجيش النازي. ترسم المسرحية صعود النازية في أوروبا اللامبالية أو المتواطئة معها. هنالك المكر والإغراءات التي تسبق استخدام القوة، وردود الفعل المتناقضة الصادرة عن بوتار، الإعجاب العاطفي لدى ديزي، فضول عالم الحشرات عند دودار، رعب بيرانجييه، الواقف وحيداً ضد الجميع، هذه مشاعر تراود الشهود والمركّبين والضحايا في تلك المجزرة الدامية. الأقوال المأثورة التي يرددها جان عن الإنسان المتفوق والأخلاق الطبيعية التي يدعو إليها تصدر أصواتاً شبيهة بأصوات الأحذية العسكرية الضخمة وتؤدي إلى إقامة "نظام جديد" وجهه الآخر "ليل وضباب" nacht und nebel. لمسرحية الكركدن مغزى أبعد من التاريخ، ففيروس الكركدن لا يظهر فقط بصورة الصليب المعقوف إذ أن يونسكو يتناول هنا دعوة الأم بيبا بالنقد اللاذع. المسرحية هجوم عنيف على

^(١١) محاورات مع كلود بونفوا ص ١١٩.

^(١٢) مجلة الفنون، كانون الثاني ١٩٦١.

الإيديولوجيات التي تخلق الهستريا الجماعية. الكركدن هي "المثقفون الإيديولوجيون وأنصاف المثقفين أتباع الموضة الدارجة"^(٣٧) الذين يبرزون بطرائق شبه منهجية عقليتهم كتابعين. الكركدنات هي العبيد المولعون بالإخلاص للرئيس، للقائد، للحامي. إنهم بناء الديانات الجديدة وأولئك الذين تسكرهم الخطب، وتعميهم الإستعراضات البراقة الخادعة، الذين يسترون الواقع البغيض بدخان البخور وهتافات التأييد. الكركدنة هي التعصب الذي "تقع شعوب كاملة دورياً فريسة له".

يعالج يونسكو في مسرحية الكركدن مسائل معاصرة بوضوح أكبر مما رأينا في "قاتل بلا أجر". عام ١٩٥٨ بنشأ خلاف بينه وبين كينيث تينان من جريدة الأوبزرفر الذي كتب، رغم إعجابه بجرأة وتقنية يونسكو: "مسرح السيد يونسكو لأذع، محرّض، لكنه يبقى تسليية هامشية"^(٤١) فهل كانت مسرحية الكركدن رداً على هذه الانتقادات؟

نعم. دون أدنى شك. لكنها خصوصاً امتداد طبيعي للبحث الخلاق الذي بدأه يونسكو. الإنسان "فرد" له وساوسه ومخاوفه الصحيحة، وهو أيضاً كائن ضمن مجتمع، خاضع لتأثيرات الجماعة، منغمس في الأحداث الراهنة. الدوافع البيولوجية، الرغبات، الأحلام، تتلون دائماً بلون العصر. إذ بعد جاك وشوبير واميديه ها هو بطل يونسكو يخرج عن نطاق العائلة والزوجين ل يواجه مشاكل الحياة الاجتماعية. بأسلوب مختلف يمضي الالتزام في "الكركدن" في نفس اتجاه مسرحية ارتورو أوي^(٥٠).

يدافع بيرانجييه عن عالم يحترم حقوق الإنسان، عالم مازالت كلمات: حضارة، حرية، صداقة، حب، تحتفظ فيه بمعناها، عالم إنساني على وجه العموم.

لكن هذه النزعة الإنسانية غير مقنعة، فبيرانجييه يعطي انطباعاً أنه يكرر أفكاراً جاهزة، يرتك في تقديم براهينه، يخلط بين المذاهب لدرجة يمكن اتهامه بالتشبث بالماضي ورفض التطور؛ بل ربما كان رافضاً للمغامرة الإنسانية. لكن رفض مدلول التاريخية لا يعني... رفضاً كلياً للتاريخ وللتطور. أكثر من ذلك، لا يريد يونسكو من خلال براهين بيرانجييه، أن يقارن بين منهجه الشخصي وبين

^(٣٧) المصدر السابق.

^(٣٨) راجع يونسكو أمام النقد في آخر الكتاب.

^(٣٩) لُدمت مسرحية ارتورو أوي Arturo لأول مرة في فرنسا في ٨ تشرين الثاني ١٩٦٠.

المناهج التي يهاجمها: "إذا كنت أضع إيديولوجية جاهزة مقابل إيديولوجيات أخرى جاهزة، تربك العقل فلا أكون فعلت شيئاً سوى استبدال نظام من الشعارات الكركنية بنظام آخر ذي شعارات كركنية"^(١).

لهذا السبب فإن المسرحية تعتبر، إضافة للصراع بين الإستبدادية والفردية، عن طريقة في اختبار الذات واختبار العالم. مغزى المسرحية مغزى وجودي، فخلف نزعة بيرانيه الإنسانية هناك إنسانيته الخاصة، ورفضه لذلك الموقف ناتج عن حدس وغريزة: "أنا أشعر أنك مخطيء" كما أن رغبته، في خاتمة المسرحية، في أن يصبح كركناً رغبة غير عقلانية. عاش بيرانيه الصراع بين غريزة التجمع وغريزة الحرية: "إن العزلة تضغط علي والمجتمع يضغط أيضاً". تظهر مسرحية "الكركدن" إن ثمة قوى غامضة تكبل اللاشعور عند كل فرد، وإنه يواجهها بردود أفعال مختلفة.

إن نزعة محاكاة الآخرين والحاجة في أن يبقى المرء متميزاً يتقاسمان كل شخص، ويسيطران على الحياة بالتناوب؛ وهكذا يتضح فقدان الحل في هذه المسرحية تساءل يونسكو في "ملاحظات وملاحظات مضادة" عن نجاح المسرحية! "عرضت مسرحية الكركدن في ألمانيا أكثر من ألف مرة حتى الآن، وعرضت مئات المرات في أمريكا وفرنسا، وعرضت مرات كثيرة في انكلترا و إيطاليا وبولونيا واليابان والدول الإسكندنافية وتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا وهولندا، الخ... أذهلني نجاح هذه المسرحية. هل يفهمها المشاهدون فهماً صحيحاً؟ هل يرون فيها ظاهرة التضخم المشوه المخيف؟" صحيح أن المسرحية تتهم الجمهور وتدين نزعات القطيع والغرائز القاتلة لدى الجماعات والجماهير، لكنها توقف أيضاً لدى المشاهد الميل الفطري إلى الإستقلال. ثم يضيف يونسكو: "في الوقت نفسه الذي يكون المشاهدون فيه مؤهلين للتكلم، هل يكونون كلهم أيضاً، وبشكل أساسي، وفي أعماقهم من نزعة فردية، هل يكونون أرواحاً متفردة؟"

فكر نقدي وتجارب في الأسلوب

تشكل سنوات ١٩٥٨-١٩٦٢ في إبداع يونسكو فترة تأمل وسنوات أزمة. أسلوب "الكركدنات" ونجاحها، والتخصيص شبه الرسمي لـ "صالّة تنلقى معونة" أدّى إلى "تبدّل في التحالفات" بين النقاد، بعض الذين انتقصوا من قيمة أدب يونسكو في الماضي راحوا يهنئونه ويفرحون لنجاحاته مثلما تفرح الأسرة بعودة الابن الضال؛ وبالمقابل فالنقاد الذين ساندوه منذ الساعة الأولى أدانوا مسرحية "الكركدن" باسم "المغنية الصلعاء".

شهد يونسكو كثرة التفاسير والانتقادات، وسجل تناقضاتها، ووضع النقاد وجهاً لوجه مع بعضهم ولم يؤيد أحداً منهم. استرجع يونسكو في محاضرة ألقاها في السوربون، في شهر آذار ١٩٦٠، ونشرها في كتاب "ملاحظات وملاحظات مضادة" تحت عنوان: "كلام حول كلام الآخرين"، استرجع على مدى سنوات، شروحات "أكاديمي من نزعة إنسانية وانطباعية". زمن الطبيعي أن يكون الناقد الانطباعي أقلّ انسجاماً "من غيره". "فيما يتعلّق بمسرحيتي الأولى "المغنية الصلعاء"، قال ذلك الناقد، منذ سنوات عديدة، وبمناسبة تقديمها، إنها لا تستحق أكثر من هزّ الأكتاف، وفيما بعد، وبعد أن شاهد مسرحية أخرى "الكراسي" على ستيديو الشانزليزيه، كتب أن المسرحية تذكره بقصة لأناتول فرانس لكن دون خيال ولا إبداع ولا فكر، ولختتم مقالته قائلاً إنه لا يفهم كيف أن المؤلف الغني بالخرابة والظرف، الذي كتب "المغنية الصلعاء" الناجحة، يقدم على كتابة مثل هذه المسرحية الهزيلة الباهتة". تابع يونسكو محاضراته بعملية "مونتاخ" للانتقادات المتناقضة حول مسرحية الكركدن، وفي تلك المحاضرة نجد كل القرحة التي رأيناها في "مسرحية الما". حدّد يونسكو فنّه المسرحي في مجموعة مقالات: تجربة المسرح (١٩٥٨) مقال عن الطليعة (١٩٥٩) المؤلف ومشاكله (١٩٥٨) كما أجرى مقابلات وألقى محاضرات وكتب مقدّمات... هذا جهد يهدف إلى توضيح الأمور لصاحبها أكثر من كونه طريقة يحدّد المرء فيها موقفه من الآخرين؛ وفي عام ١٩٦٢ جمع يونسكو هذه المقالات النقدية في كتاب

"ملاحظات وملاحظات مضادة"، كما جمع قصصه القصيرة في كتاب "صورة الكولونيل".

يبدو أن التأمل دفع يونسكو للعودة إلى المسرح الخالص. كتب استكشافات مبنية على بعض الأساليب أو الآليات التي كانت تخدم المغزى في المسرحيات الناجحة لكنها هنا للمتعة فقط.

في استكشاف "مشهد رباعي" الذي كُتب عام ١٩٥٦ وقُدّم في السنة نفسها في مهرجان سبوليت، يتنافس ثلاثة رجال: ديون، دوران، مارتان للفوز بامرأة.. يطلبون منها أن تختار وينتهي المشهد بعراك شامل تفقد السيدة خلاله قبعته ومحفظتها وثيابها وذراعيها ونهديها وإحدى ساقيه...

إن استكشاف "تعلّم المشي" عام ١٩٦٠، هو الأساس لباليه للإيهار. تحاول ممرضة أن تعلم شاباً مشلولاً المشي خطوة خطوة ثم يتحول البطلان إلى راقصين. أثناء الحركات الباهرة يرتفع الشاب عن الأرض ويرتقي سلماً من نور. قُدّمت هذه البالية فرقة فرانسواز ودومينيك على رقصات من تصميم ديريك مندل وموسيقى إيفان مالنيك.

* أما الغضب (١٩٦١) فهو سيناريو فيلم يعالج فكرة العنف. اللقطات الأولى -وهي سلسلة من المشاهد المؤثرة- تعرض جميع أشكال الطيبة البناءة والانسجام الكوني، لكن ذبابة تسقط في صحن حساء تسبب شجاراً عائلياً، وشجارات عائلية، وحريقاً، وعصياناً، وثورة وحروباً. آنذاك تعلن "مذبة التلفزيون الساحرة" بابتسامة حلوة: "سيداتي، سادتي، بعد عدة لحظات ستحلّ نهاية العالم" وتكون الصورة الأخيرة صورة "قطر" ذري.

أما "تخريف ثنائي" التي نشرت في آذار ١٩٦٢ وعُرضت في نيسان على مسرح سنديو الشانزليزيه ولعب الدورين الأساسيين فيها انطوان بورمي وتسيلا شيلتون فإنها خصام عائلي حول تماثل أو عدم تماثل السلحفاة والحلزون؛ وهل من المناسب فتح النافذة أم إغلاقها، الخروج من البيت أم البقاء فيه... الخلفية الصوتية لهذا الخصام أصوات صدى مضخمة لضوضاء تمرد، وهدير رشاشات وانفجار قنابل، وصراخ جرحى، وحشجة قتلى. أخيراً تنزل، من السقف الذي خرّفته القنابل، وعلى أطراف حبال، أجساد بلا رؤوس ورؤوس بلا أجساد لمساجين نُفّذ فيهم حكم الإعدام.

"اللغز" وهي مسرحية كتبت عام ١٩٦٢ وقُدّمتها المركز المسرحي في الجنوب الغربي عام ١٩٦٥، ثم أعيد تقديمها في السنة التالية على مسرح تياتر

دوفرائس. عند رفع الستارة نرى امرأة باكية في ثياب النوم تستقبل صديقاً يرتدي ملابس سوداء:

- المرأة: هيا يا صديقي العزيز، أخبرني بسرعة.

- الصديق: لأدري كيف أعلن لك ذلك .

- المرأة : لقد فهمت.

- الصديق: كنت أعرف النبأ منذ مساء البارحة، لم أرغب أن أخبرك بالهاتف لكنني لم أستطع الانتظار أكثر، اعذريني لأنني جعلتك تغادرين سريريك لأخبرك مثل هذا النبأ.

- المرأة: لم يستطع التخلص من ورطته! يا للمصيبة! حتى اللحظة الأخيرة كنا نتعلق بالأمل.

"السيد" -وهو مدرس في الجامعة، دكتور بمرتبة الشرف من جامعة امستردام، ومن الكليات السرية لدوقية اللكسمبورغ العظمى، رئيس لجنة التحكيم التي تعطي شهادة الاستاذية، حائز على جائزة نوبل ثلاث مرات، الأكاديمي... "السيد" رسب منذ فترة قصيرة في شهادة الدراسة الثانوية^(١).

اغتاظ "السيد" جداً وقرر أن يطلب إلغاء الإمتحان، يخبر رئيس الدولة وهو من رفاقه.

- الاكاديمي: [...] آلو الرئاسة... الرئاسة... صباح الخير ياآنسة، أريد أن أتحدث مع الرئيس. معه شخصياً... معه بالذات... آلو! جول؟ هذا أنا... كيف...كيف؟ لكن ما هذا الكلام يا صديقي العزيز... لكن، اسمعني... آلو...

- الزوجة: أهذا هو؟

- الاكاديمي: (للزوجة) اخبرسي (في الهاتف) أنت تمزح يا صديقي العزيز... أنت لا تمزح... (يضع السماعة).

- الصديق: ماذا قال؟

- الاكاديمي: قال... قال.. لا أريد أن أتحدث معك بعد الآن. لقد منعتني أمي من مخالطة المتخلفين في الصف، ثم سكر الخط؟

أخيراً، في هذه الفترة نشرت "البیضة المسلوقة" في آذار ١٩٦٣ ضمن دفا تر -نيو- بارو. كتب يونسكو عنها نصين : الأول عبارة عن سيناريو على

^(١) تخيل يونسكو هذه المسرحية انطلاقاً من حلم راوده دائماً.

طريقة الأفلام الدعائية والآخر مونولوج قصير هو المحصلة السخرة لتحضير بيضة مسلوقة^(٢).

لكن عام ١٩٦٢ هو عام مسرحيتي "الماشى في الهواء" و "الملك يموت".

"الماشى في الهواء"

تعرض مسرحية "الماشى في الهواء" التي كُتبت صيف ١٩٦٢، بيرانجيه على المسرح من جديد. لقد صار بيرانجيه كاتباً مسرحياً، له زوجة، جوزفين، وابنة، مارتا، وهو ذاته اسمه هريير، أما بيرانجيه فهو لقبه، تجري الأحداث في انكلترا، انكلترا "تمودجيه" حقيقية أكثر مما هي طبيعية، في مقاطعة جلوسستر، ذات يوم أحد.

يصور الديكور بيتاً ريفياً جميلاً وسط مرج يشرف على الوادي. يتنزه الانكليز في مجموعات عائلية. لقد هرب بيرانجيه من فرنسا وجاء ليستريح وربما ليكتب^(٣). يصل صحفي فيعترف له بيرانجيه بياسه: يشعر أنه غير قادر على الكتابة ولم يعد يعرف إلى أين ينتهي الأدب، فكل ما يمكن أن يقال قد قيل ومع ذلك في الشيء الأساسي لم يقل بعد.

يلي ذلك مشهد من عالم الأحلام إذ ترى جوزفين والدها الذي قُتل في الحرب يعود إلى الحياة من جديد، وتذكر أن الموت خسارة لا تعوض.

ترمي إحدى الطائرات الألمانية المتخلفة عن الحرب الأخيرة قنابلها وتدمر البيت الريفي الجميل. يخرج بيرانجيه سليماً من بين الأنقاض ليسمع جوزفين تؤنبه على إهماله وكسله: "كان بإمكانك أن تشتري بيتاً أكثر متانة بدلاً من هذا الكوخ الكرتوني الذي انهيار عند أول قذيفة [...] لم تكن تتنظر حجة أفضل لتقطع عن الكتابة". تتحدث جوزفين بعد ذلك عن الحلم الذي يقض مضجعها

^(١) أكمل يونسكو السلسلة وكتب استكتشك لم تنشر بعد لكنها عرضت في أغلب الأحيان: "عند أسفل الجدار" "زيارة المستشفى" "المستقل" "وكالة السفر" "صدمات" كرس اللغة الفرنسية للأمريكيين وهو دليل على التوائب والتشويبات اللفظية.

قصة لصوص "تمالغ طريقة استدلال لا جدوى منها، "ليديوان" فكرة تالفة" شجرة جوز الهند المحترقة" عبارة عن صور شعرية واستشهادات أدبية. "عند الطبيب" تتحد في أوعا غريبة من الأمراض: المرضى الذين يرون كل شيء أحمر، المرضى الذين يتكلمون من شعرهم، المرضى الذين يقسمون شعرهم أربعة أقسام، المرضى الذين تنمو سيقانهم من عند الرقبة، المرضى الذين ينمو الشعر على باطن الكف، الخ....

^(٢) كما حدث ليونسكو عام ١٩٥٧ إذ كتب مسرحية قُتل بلا اجر" في لندن في شهر آب.

فيشرح لها بيرانجيه قيمة الأحلام والمنعطفات السريّة الحسيّة التي تتكشف فيها. "لو كنا نعيش دائماً في حالة الوعي الثاقب الذي نكون فيه في الحلم لما اس طعنا الإستمرار في الحياة".

ثم تُبعث الحياة في المشهد والديكور فيها هو بيرانجيه وجوزفين ومارتا يتنزهون ويتأملون المنظر الجميل: السماء الزرقاء، النور، النهر الفضي، الذي تمخره الزوارق الصغيرة، التلفريك الأحمر المنساب على حبله...

أما مجموعات الإنكليز فإنها تتحدث عن الحياة اليومية وعن بؤسها. تولّف نثف الأحاديث المتناثرة فلسفة في الحياة والموت وتمزج الحنين مع الحسرات، يهيمن على ذلك كله حكمة تدعو إلى الخضوع والإستسلام.

أثناء هذا المشهد يظهر مرات عديدة "القادم من ما وراء العالم Antimonde". يشرح بيرانجيه أن ذلك القادم يعيش في الناحية الأخرى من ذلك الجدار اللامرئي المعتم الذي يجتازه المرء دون أن يدرك ذلك.

لا تؤمن جوزفين، وهي المتشككة المرتابة، بالظواهر الخارقة: "هؤلاء القادمون ماهم سوى صور أوجدتها تخيلات الرياح" لكن يظهر فجأة الجسر الفضي الذي يربط بين طرفي الهاوية، مكللاً بالنور وسط منظر يزهو بالبهاء.

في غمرة الفرح، يكتشف بيرانجيه من جديد قوى منسيّة. أمّا وقد انتشى باليقين، ما هو يتوهج ويرتفع فوق الأرض وسط دهشة المتنزهين. انبهرت مارتا ومعها الولد الإنكليزي الصغير، اغتاظت جوزفين وخافت القضيحة، أمّا جون بول فقد رأي في الحادثة خطراً على صناعة الطائرات، بينما يؤكد بيرانجيه أن من الطبيعي أن يطير الإنسان عندما يكون سعيداً، أما شقاء الإنسان فهو في نسيان هذه القوة:

- بيرانجيه: ماذا سيقول الناس إذا نسي المرء السباحة والمشي والوقوف والجلوس؟

- جون بول: الجلوس يكفي لتحقيق سعادتي، أحب الوقوف أيضاً، أو النوم منبطحاً لا يغطيني سوى إليتي.

فجأة يدق بيرانجيه كعبه بالأرض ثم يطير ويختفي.

يُظلم المنظر وتخرقه بروق دامية. تُشعر جوزفين، وقد بقيت وحيدة بالخوف، وتفترسها الكوابيس.

ثم يستعيد الديكور إضاءاته المألوفة، ويعود بيرانجيه، مرهقاً، لا يسمع

التصفيق الذي قوبل به، ولا يتناول الأزهار التي تقدّمها له بنت صغيرة؛ فنظراته لا زالت تعبّر عن صور الرعب التي رآها في "ماوراء العالم"؛ وعلى سؤال "ماذا رأيت ياسيدي في الناحية الأخرى؟.. ماذا شاهدت؟ "يجيب: " رأيت... رأيت أوزات... (وزات الأم بيبا، دون شك). يصف أرتال المحكومين بالإعدام على المقصلة، والجنادب العملاقة، ورؤساء الملائكة المخلوعين، والمعذبين... إنه يوم القيامة، لكن المستمعين يجدونه خالياً من أية أصالة وينصرفون واحداً بعد آخر ولا يبقى سوى جوزفين ومارتا، ويتابع بيرانجييه رؤاه، يصف، يروي، بينما تهدر موسيقى جوالة "مفرحة بشكل حزين"، وتقرقع المتفجرات "كأنه الرابع عشر من تموز في انكلترا،" هاويات لا قرار لها، إلقاء القنابل، إلقاء القنابل وهاويات بلا قرار تتفتح على سهول قاحلة، مدمرة منذ زمن بعيد [...] ثم، يأتي الجليد بعد النار اللانهائية، وتأتي النار بعد الجليد، صحارى من الجليد، صحارى من النار تهجم على بعضها وتأتي نحننا... تأتي نحننا".

الحلم محرّك درامي

تألف المسرحية من فصل واحد، إذن لا انقطاع في سير الحركة، ومن ناحية أخرى تلتزم بدقة بالقصة القصيرة التي استخدمت أساساً لها، وهي عبارة عن سلسلة متتابعة من صور الأحلام. لكي يخلق يونسكو تطوراً درامياً إنطلاقاً من فكرة غير مسرحية يجري مقابلات بين الحياة والحلم، بل بين مختلف أشكال الأحلام.

تطلق مسرحية "الماشي في الهواء" من حلم فيه صمود وارتقاء وقد أشار يونسكو لكلود بونغوا^(١) أنه مارس حلم الصعود والطيّان كنوع من التخيل ووسيلة للتحرر العاطفي الشعوري.

يعبّر هذا الحلم، في رأي يونسكو، عن الحبور المادي والتوازن بين الجسد والروح وانسجام الكائن مع العالم. إنه يتوافق مع مشاعر وأحاسيس واضحة: "تمتليء رنتاي بهواء أخف من الهواء العادي.

تتصاعد الأبخرة إلى رأسي، بالفرح الإلهي... [...] أنا ثمل من اليقين!". من الغبطة ومن تجربة الفرح.

حلم الصعود (الطيّان ثم السقوط) يرسم منحنى الحركة الدرامية لكن

^(١) محاورات مع كلود بونغوا ص ٣٨

مجموعة من الصور النهارية والليلية تغني هذه الفكرة الأساسية، فالأحداث بين الناس تبين بؤس المسرات وتؤكد الخيبة في الحياة، كذلك أن كوايس جوزفين وبيرانجييه تميظ اللثام عن عالم الجريمة والألم، وما بين هاتين النظرتين للواقع، تنشأ حالات متشابهة.

شعر وسخرية

يعتمد إيقاع المسرحية على تنوع الحوارات، كما أن التبذل في الأسلوب يؤدي إلى تبذل في اللهجة من شخص لآخر ومن مشهد إلى مشهد. جون بول سوقي، فظ، والمتزهدون الانكليز لا يكفون عن الثثرة، على نقیض ذلك تكثر الصور في اللغة عندما يصف بييرانجييه صور اندهاشه أو رعبه؛ أو عندما تتحدث جوزفين عن الوحدة والموت، إنها شاعرية النور أو العشوائية التي تضاعف معاني الاستعارات.

غالباً ما تكون التصريحات مباشرة جداً بحيث أن يونسكو يبحث في السخرية عن قناع يستر حياءه، كأن يسخر المتزهدون الانكليز من بييرانجييه، أو أن تتوقف القصة الخيالية ويتطرق الحوار إلى الواقع الحقيقي. وأن يشد الولد الغيور جدائل البنث الصغيرة التي تغني وتزغرد فتبقى باروكة بين يديه: "نعم، فابنتنا الصغيرة هي المغنية الصلحاء الصغيرة" كما تقول الأم. أما بخصوص الصور، يخاطب الممثل الحاضرين في الصالة: "أسود كالثلج في لندن..." وعندما يتحدث بييرانجييه عن "المحاسبة المتعددة العوالم" أو عندما يفسر ظهور واختفاء الأشياء فإنه يقول أمام شجرة أودغل: "هيا، أنتما الإثنان، هناك خطأ في الحساب... لقد أخطأ المحاسب... أو المسؤول عن الإكسسوار!"

مسرحية تحتاج إلى آلة

مسرحية "الماشى في الهواء"، إضافة إلى التلاعب باللغة، تحتاج إلى آلة وتكنولوجيا، فطيران بييرانجييه أكثر تعقيداً من طيران اميديه، إضافة إلى أنه يتطلب من الممثل موهبة كبيرة في الإيماء^(٥). لا يتم الحصول على جو الأحلام من خلال قماش التول الفضفاض أو عن طريق ظهور الخيالات والأشباح، بل عن طريق حضور واضح وتقديم الأحداث الخارقة بشكل واضح جلي. لقد ألح

^(٥) عرض جان، لوي بارو كل موهبته عندما أدى هذا الدور.

يونسكو على فكرة أن الأحلام غالباً ما تكون "واقعية" أما في رؤى الكوابيس فإن الشخصيات تبدل سحنتها وتغدو غريبة بشعة.

أخيراً، تلعب الإضاءة دوراً هاماً. شلال النور المتساقط على الجسر الفضّي، وتدرّج اللون الرمادي، والظلمة التي تخترقها البروق، والحرائق، تترجم حالات شعورية لدى الشخصيات، إنها تعبّر عن الفرح والحزن والقلق.

العالم ما وراء العالم.

"يجب أن لا يكون لدينا سوى فكرة واحدة، وهدف واحد: تحقيق بهجة الآخر" كما كتب يونسكو في "يوميات في فتات". مشكلة العلاقات مع الآخرين هي الموضوع الأساسي في مسرحية "الماشّي في الهواء". يحلم بيرانجييه بعالم من اللطف والركة لا يكون الموت فيه شرّاً. يقول ذلك إلى مارتا التي قدّمت الأزهار إليه: "لا أقوم الحركات الرقيقة اللطيفة.

أه! لو كان كل الناس مثلك! سيعيش الإنسان في عالم من النعمة، وستغدو الحياة ممكنة، وبمقدور المرء مواجهة الموت بهدوء، دون ألم..."

تجسّد مارتا الحب والثقة. إنها معجبة بأبيها إعجاباً لا حدود له^(١). أما جوزفين الغيورة نوعاً ما، فقد لفتت نظر البنّت لذلك: "ليس لأنه والدك مفروض عليك أن تقبلي كل ما يقول دون تفكير!"

جوزفين شخصية معقّدة، يذكّرنا عنفها وحذّتها بمادلين في "ضحايا الواجب" ، أو "اميديه". توبّخ بيرانجييه في كل مناسبة، لكنها في الحقيقة تحبه، تحب لطفه وظرفه، و "حماقته": "على كل حال، من الأفضل أن يمزح، وعندما لا يتغوّه إلاّ بالحماقات فذلك يعني أنه حزين". هذه الرقة الخرقاء تكشف ارتباط جوزفين ببيرانجييه وحاجتها الماسّة في أن تكون محبوبة، آمنة، كما أن تلك الرقة تفضح خوفها من أن تهجر، وجبها للسيطرة الذي سرعان ما يبلغ حدّ الحيرة واليأس.

تعكس المشاعر المعقّدة لدى بيرانجييه وجوزفين ومارتا العلاقات العائلية فيما بينهم، أمّا الشخصيات الأخرى فإنّها تطرح مسألة العلاقات الاجتماعية.. تتقلنا الحركة في المسرحية من رسم عالم نهاري إلى رسم عالم الأحلام ثم إلى صورة ما وراء العالم. العالم الأول ليس سوى الظاهر، والآخران هما الحقيقة. المتنزهون المطمئنون هم بشر برأس أوزة، وهم طوابير المحكومين بالإعدام،

^(١) انظر ماورد سابقاً في كلام جان كوت عن "الثلاثي يونسكو".

المشاعر الحقيقية هي المشاعر التي تعبر عنها شخصيات الكوابيس: يعلن الصحفي أن الصداقة ما هي سوى "القناع لضعفنا، وللكرهية المكبوتة الخجولة". جون بول مسلح بسوط أو بندقية آلية...

ما وراء العالم ما هو سوى العالم الذي نعيش فيه، نحن مهددون بطغيان "الخنازير والقرد"، بالمقصلة والسكاكين. لهذه الصور، في رأي يونسكو، دلالات واضحة جداً، إنها تبين "ببساطة ما يجري في نصف الكون، وأن النصف الآخر لا يريد أن يرى بسبب التعمية واللامبالاة والمواقف المسبقة: هنالك عشرات الملايين من الناس مهانون، أذلاء، والرعب يقيم في نفوسهم، وهنالك الطغيان، والسلطات التي صارت مجنونة، وباختصار، ثمة نهاية للعالم تحدث كل يوم..."^(٧).

تفضح مسرحية "الماشي في الهواء" من جديد، وبعدها رأينا في "قاتل بلا أجر" و"الكركدن" إيديولوجيات العنف والدكتاتوريات. لكن "نبوءة الشقاء"^(٨) لم نسمع. يقول بيرانجييه: "لا يصدقني أحد، كنت أعرف حق المعرفة أنه لن يصدقني أحد [...]. حتى لو كانوا صدقوني، حتى لو كانوا صدقوني..." ويقول يونسكو^(٩): "لم يفهم النقاد الباريسيون، باستثناء البعض أمثال كانتير، لرمارشان، غوتيه، شيئاً من هذه القصة رغم بساطتها العظيمة".

يجب الاحتراس من إرجاع مغزى المسرحية إلى الرغبة في الجدل والمناظرة فالملاحظة التي أبداها يونسكو يجب أن لا تؤخذ حرفياً؛ وإن العلاقات بين العالم و"ما وراء العالم" معقدة جداً كما قلنا من قبل.

أدب:

"الماشي في الهواء" هي أيضاً مسرحية عن الأدب. يحدّد يونسكو فيها أن للإبداع معارضة دائمة. لا يستطيع الكاتب قبول العالم كما هو، وكما يسير، لا يستطيع قبول النظام القائم ولا قبول "معنى التاريخ". انتصار أية إيديولوجية يبرز ثغراتها، والجرأة الفكرية تكمن في الجهد المبذول لإعادة طرح قضية العالم وقضية الذات: 'هل سأستطيع تجديد نفسي؟ مبدئياً نعم، مبدئياً نعم، إذ أنني لا أوافق على سير الأحداث'.

^(٧) محاورات مع كلود يونغوا ص ٧٤.

^(٨) محاورات مع كلود يونغوا ص ٧٤.

^(٩) للمصدر السابق.

لهذا السبب ليس للكاتب رسالة واضحة محدّدة، كما يقول بيرانجييه، إذ أن إيصال الرسالة يعني تكريس الوضع الراهن وإدانة الماضي والتهاويل للحاضر، وهذه أمثلة تتقيد بالأعراف المقررة "المقاهي وإدارات التحرير تجمع بمثأدين متتورين أوجدوا حلولاً لكل مسألة.

إنهم يتبعون الموضة الدارجة، لا شيء أسهل من الرسالة الاوتوماتيكية..." لا يعرف الكاتب مسبقاً ماذا سيكشف: "أمل أن يكون ما وراء رسالتي الظاهرة شيء آخر، شيء لا أعرفه بعد، لكن ربما سيكشف... من تلقاء نفسه... في الخيال..."

الأدب إذن هو عدم رضى - "الحقيقة موجودة في نوع من العصاب" واستقصاء فيما وراء الظواهر. يتساءل بيرانجييه: "ما العمل لكي يكون الأدب استقصاء نافعا؟" تجيب المسرحية إذ تضع البحث على مستوى الحلم وفوق الواقع. مرة أخرى أيضاً يوحد يونسكو في فنه ما بين النظرية والتطبيق.

"الملك يموت"

يبين كتاب "يوميات في فترات" مدى الإغراء الذي يمارسه الموت على يونسكو. ربما لم يكن الاشمئزاز سوى الوجه الآخر للافتتان. كان يونسكو قد كتب من قبل في مقالته عريان في عام ١٩٣٤ (nu en 1934) كان آنذاك في الثانية والعشرين "إنني أخاف الموت. أخاف أن أموت ذلك لأنني أرغب، ولا شك، في الموت دون أن أدري. أنا خائف إذن من رغبتني في الموت". هل كتب يونسكو مسرحية "الملك يموت" في شهري تشرين الأول والثاني عام ١٩٦٢ ليتخلص من هذا الخوف؟ كتبت المسرحية بسرعة: "كتبت مسرحية "الملك يموت" خلال عشرين يوماً. كتبت أولاً خلال عشرة أيام متواصلة.

مرضت آنذاك وأصابني رعب هائل، وبعد عشرة أيام أخرى علودني المرض ودام خمسة عشر يوماً. عدت إلى الكتابة، وخلال الأيام العشرة التالية أنجزت المسرحية" ^(١١) عرضت المسرحية على مسرح الأليانس فرانسييز في ١٥ كانون الأول ١٩٦٢ من إخراج جاك موكلير.

يبين الديكور صالة العرش "شبه مهذمة، شبه غوطية"، يعلن حارس يرتدي درعاً ويحمل حربة دخول الشخصيات: صاحب الجلالة الملك بيرانجييه الأول،

^(١١) محاورات مع كود بونخواص ٩٠.

صاحبة الجلالة الملكة مرغريت زوجة الملك الأولى، صاحبة الجلالة الملكة ماري زوجة الملك الثانية "الأولى في قلبه"، جوليت مديرة القصر وممرضة أصحاب الجلالة، وأخيراً العالم الكبير طبيب الملك الجراح عالم البكتريا الجلاد العالم الفلكي في البلاط الملكي.

كل شيء يتداعى في مملكة بيرانجيه الأول. الأراضي تبور، الجبال تميد، الشمس تشرق متأخرة، أرض الوطن تتقلص وتخلو من السكان: لم يبق فيها سوى ألف مواطن من العجزة. في قصر الملك جهاز التدفئة معطل، والبقرة جف ضرعها، الغبار وخيوط العنكبوت تغزو المكان، وعلى الجدار ظهر "شرخ لا يرجى ترميمه" هذه العلامات لاتخدع، بيرانجيه الأول يجب أن يموت.

يظهر الملك، التاج مائل على رأسه، حافي القدمين، يئن من وجع الروماتيزم لكن لا يدرك حقيقة الموقف، لكي يشغل نفسه يقرّر الاهتمام بشؤون القصر والمملكة، لكن المهندس المعماري الرسمي توارى عن الأنظار، والوزراء انطلقوا إلى الصيد ليطعموا الشعب، ومدرسة الصنائع انهارت في هاوية. لم يعد الحارس يطيع إلا مرغريت، ماري فقدت صوابها. لقد قدّم الملك الدليل على عجزه فالزمن لا يعود أدراجه. علامات أخرى تنذر: لقد خارت قواه، وراح يترنح في مشيئته، وتاجه يتدحرج على الأرض، وصولجانه يسقط من يده... آنذاك يتمرّد ويثور، يعلن خوفه من الموت يبحث عن حجب وأعداء.

- الملك: مثلي مثل طالب يتقدّم للإمتحان دون أن ينجز وظائفه، دون أن يحضر درسه...

- مرغريت: لا تقلق

- الملك: ... مثل ممثل لم يحفظ دوره عشية العرض الأول، فينسى وينسى وينسى. مثل خطيب يدفع إلى المنصة دفعا ولا يعرف الكلمة الأولى من خطابه، ولا يعرف إلى من يتوجّه بالكلام، إنني لا أعرف هذا الجمهور ولا أريد معرفته، وليس عندي ما أقوله له. باللهالة التي أنا فيها!

- الحارس (معلناً): الملك يلتمح إلى حالته!...

- مرغريت: باللهال!

- جوليت: إنه يؤذ أن يتسكع ويتنزّه خلال عدة قرون بدلاً من أن يذهب إلى المدرسة.

- الملك: كم أحب الإعادة.

- مرغريت: ستتج في الامتحان، ليس هناك من يعيدون السنة.
يرفض الملك أن يموت ميتة كريمة فيطلب العون من شعبه، ين، بيكي،
يتظاهر أنه يعاني من كوابيس لكن جنبه يسيطر عليه. استبدل عرشه بكرسي
المشلولين؛ وتواجه وصولجانه بسخاتة صغيرة وغطاء، كان بوده أن يكون
رضيعاً، طفلاً لكنه ليس مخادعاً: يا للحسرة. لا يمكن للمرء أن يغش!
يمر بيرانجيه في آخر لحظات التمرد ثم يستسلم.. يتحدث عن الحياة كأنها
ذكرى، يستمع إلى شكاوى الخادمة التي أثارت اهتمامه للمرة الأولى لأنه لم يعد
ملكاً.

- الملك: حدثيني عن حياتك، كيف تعيشين؟
- جوليت: أعيش عيشة بائسة يا صاحب الجلالة.
- الملك: لا يمكن للمرء أن يعيش عيشة بائسة. هذا تناقض.
- جوليت: ليست الحياة جميلة.
- الملك: إنها الحياة.

جوليت والحارس يرويان ماضي الملك: لقد سرق النار من الآلهة،
واخترع أول طائرة، واكتشف أمريكا، ووضع مخططات برج إيفل، أخدم وأشعل
البراكين، أوجد المحيطات، كتب الإلياذة والأوديسة، شكسبير كان هو، كان يتمتع
بجميع المزايا، والعيوب. تاريخه هو تاريخ البشرية، هو تاريخ الأرض، إنه
إنسان، إنه إله: "إنه الملك".

شعور أخير يسيطر على بيرانجيه هو كراهية مرغريت، ثم يتداعى كل
شيء ويزول. القصر يتهدم.. بيرانجيه لم يعد يتعرف على المحيطين به، لم يعد
يرى ولا يسمع ولا يحس. يتلاشى القصر، وتخفي ماري والحارس وجوليت
والطبيب. يبقى بيرانجيه وحيداً مع مرغريت "الملكة التي تفعل كل شيء".

من الآن فصاعداً ستفقد مرغريت بيرانجيه عبر المكان اللامتاهي. تحل
خيوط الحياة المتشابكة، تفك آخر العقد، نكتم الضجيج، تخنق الصدى الأصم
الصادر عن الأحلام، تفتح قبضته المضمومة التي ما تزال تقبض على قليل من
تراب، على مملكته كلها.. تقوده إلى عرش الأبدية والعدم؛ ثم تخفي. ملك
الموت ينجز عمله: "اصعد، اصعد، أعلى، أعلى أيضاً، اصعد، أعلى أيضاً،
أعلى، أعلى... استدرّ نحوي، انظر لي، انظر من خلالي، انظر إلى هذه المرأة
الخالية من أية صورة؛ ابقّ منتصباً... اعطني ساقيك، ساقك اليمنى، ساقك

اليسرى... ناولني إصبغاً؛ ناولني إصبعين... ثلاثة... أربعة... خمسة...
الأصابع العشرة. دغ لي الذراع الأيمن، الذراع الأيسر، الصدر، الكتفين،
البطن... كما ترى، لم تعد قادراً على الكلام وقلبك ما عاد بحاجة إلى الخفقان
ولا داعي لأن تتنفس إنها حركة لا جدوى منها أبداً، أليس كذلك؟ تستطيع أن
تحتل مكاناً".

فكرة ملحاحة

فكرة الموت فكرة متكررة باستمرار في مسرح يونسكو: القتل الذي يختم
مسرحية "الدرس" وأحلام شوبير، والجثة في مسرحية "إميديه" والقتل المتكرر
في مسرحية "قاتل بلا أجر". الكلمة الأخيرة التي يقولها بيرانجييه للصحفي في
مسرحية "الماشى في الهواء": "أريد أن أُنفى من الموت" لكن في مسرحية "الملك
يموت" هذه الفكرة هي المسرحية كلها، المقصود هو الموت في شموليته، يقول
يونسكو: "هذه المسرحية محاولة في تعلم الموت"^(١١).

ملك يموت. لقد فكر يونسكو، ولا ريب، بأولئك الملوك المخلوعين الذين
يعيشون في ذاكرته: الملك لير، الملك ريتشارد الثاني. إن مصير الملك يروي
تاريخ البشر: "عندما مات ريتشارد الثاني، كان ذلك يعني موت كلّ عزيز
عندي، بل أنا من مات مع ريتشارد الثاني. لقد جعلني أدرك جيداً الحقيقة الأزلية
التي ننساها عبر الحكايات والتواريخ، تلك الحقيقة التي لا نفكر بها، الحقيقة
البسيطة، المألوفة جداً، أنا أموت، أنت تموت، هو يموت"^(١٢). الملك لير أو الملك
ريتشارد الثاني هما كل واحد منا، وكذلك بيرانجييه الأول. إن كان اختيار
شخصية الملك نتيجة بحث جمالي، إلا أن له قيمة رمزية أيضاً. الأبهة الملكية،
ديكور القرون الوسطى، لهما، بالتأكيد، طابع شعري راسخ، ويتمّ التذكير بـ
"الدرس الرهيب" الذي يقدّمه موت الملوك إلى جميع الناس في كلّ الأزمان. كل
إنسان يمتلك، عند ولادته العالم والمكان والزمان: الإنسان هو ملك. عندما يصل
إلى عتبة الموت، ويفقد كل شيء يصبح ملكاً مخلوعاً.

من خلال الموضوع الذي تعالجه يتضح أن مسرحية "الملك يموت"، هي بلا
ريب، المسرحية الكلاسيكية الأولى ليونسكو. كتب جان جاك غوتييه بمناسبة
عرضها: "نعم، إنني أعلن وأكرر: إنها مسرحية إنسانية، غنية، جيّدة البناء،

^(١١) محاورات مع كلود بونخواص ٩١.

^(١٢) تجارب في المسرح.

والتأليف، تمتاز بشاعرية كبيرة.. إنها مسرحية موجهة ومضحكة أيضاً، إنها مأساة ملهية على الطريقة الشكسبيرية^(١٣).

شعائر الموت

تصف المسرحية فترة الإحتضار أو بالأصح مراحل التنازل والاستسلام إذ أن الإحتضار هو معركة ضد الموت، أما في المسرحية فليس هناك من صراع بل قبول بالقدر. يجب أن يموت بيرانجييه، وعلامات الموت لاتتخذ. موته، إذن، ليس مأساوياً؛ لكنه محزن. موت الملك تمثيلية جميع مراحلها معروفة مسبقاً وتلتزم بالزمن المحدد: "هذا التراجع وهذا اللغف والدوران... كان ذلك متوقعاً، وهو جزء من البرنامج" كما قالت مرغريت.. كانت المسرحية تحمل في الأصل عنوان "الاحتفال" أو "الشعائر".

لا تنقسم المسرحية إلى فصول بل هي حركة متطورة متناغمة مع المراحل المتتالية من القلق إلى التمرد إلى الخضوع. تستغرق هذه "الشعائر" ساعتين، ولكي يؤكد هذه الاستمرارية فإن روبرت بوستيك الذي قدّم المسرحية في بروكسل تخيل استراحة غير متوقعة: تأبط الحارس حربته وأوقف الممثلين وهم يؤدون أدوارهم. اجتاز المنصة وأعلن للجمهور: "سيداتي، سادتي، استراحة ربع ساعة" وبعد الاستراحة، ارتفعت الستارة عن الممثلين وهم جامدون في مواقفهم وحركاتهم التي كان الحارس قد أوقفهم فيها.

يشكّل هذا التطوّر قضية سيكولوجية دقيقة. قبل وصول الملك، كانت الشخصيات الأخرى تحدّد علامات الموت وتستعدّ لتأدية "الشعائر".

كان بيرانجييه في البداية أعمى وأصمّ. إنه يتهمّ، ثم ترافقت عودة الوعي بالغضب والتمرد، ثم صار اليأس المرحلة الأولى من الإذعان، ويشير الحنين إلى بدء مرحلة الصفاء والصحة: آنذاك صار الحديث عن الحياة بصيغة الماضي، وأخيراً حلّ النسيان، والدخول إلى عالم الموت.

صوّر يونسكو الإحساس بالموت من خلال انقلاب حادّ في المنظور ولم يصوّر مشهد الموت؛ فهو لم يقدّم لنا الملك الذي ينهار بل العالم الذي يختفي. لقد تلاشى كل شيء عندما انطلق الإحساس عند بيرانجييه: "أما زال يتنفّس؟ سألت مرغريت: نعم يا صاحبة الجلالة، أجابت جوليت، إنه مازال يتنفّس، بما أننا

^(١٣) جريدة الليجارو ٧ كانون الأول ١٩٦٦.

هنا". موت الإنسان، هو قبل كل شيء موت العالم بالنسبة للإنسان.

الشخصيات: مملكة.

يفسّر بناء المسرحية الشخصيات إذ أن لها قيمة مزدوجة: قيمة الفكرة وقيمة الوظيفة.

تمثّل الشخصيات العالم: إنهم مملكة بيرانجيه، كما أنهم حياته الصميمية أيضاً، يصوّر الحارس الحفلات الرسمية في البلاط الملكي، كما أنه المتحدث الرسمي الذي يثير الضحك، وهو أداة السلطة، يعلن الحرب عند الحاجة. جوليت هي ربّة البيت وميدة البلاط والمرضة، وفي نهاية المسرحية تصبح جوقة الناس البسطاء، تجسّد حكمة الخضوع والاستسلام. "تنازل إذن، بما أن الواجب يحتم ذلك" والوفاء الحزين للملك العجوز، الطبيب - الجالد- الفلكي يجسّد الغرور والخداع والوقاحة والتعطش للأمجاد. إنه أقوى من الملك لأنه يتمتع بالقوة السحرية دون أن تقع عليه أية مسؤولية.

تمثّل الملكتان حياة الملك الخاصة، فماري تجسّد الحب كله، وسحر الحياة، والفرح الذي لا يفكر في البعيد، وفشل الأوهام؛ أما مرغريت فهي الحكمة والعقل والنظام: زوجة شرعية وأم قاسية، مكروهة بصمت، وصية تفرض عليه على الملك، ولجبه، وعلى العموم تصوّر الملكتان وجهي الحياة الإنسانية: الضرورات الاجتماعية و "الحب المجنون".

إضافة إلى هذه القيمة الفكرية فإن للشخصيات مهمّة تؤديها ألا وهي دورها في تنفيذ تلك "الشعائر". عليها أن تعلم الملك، أن تقوده، أن تساعد. إنها موقف أمام الموت، أما بيرانجيه فيرى فيها "الآخرين"؛ أولئك الذين لا يموتون. الحارس مشاهد لا مبال. جوليت بسبب تعاطفها وصبرها، تساعد الملك على الخضوع، وتعرض له صور اندهاشه الأخيرة أمام الحياة، ماري هي العجز. أما الطبيب فقد اكتشف في هذا الموت أنه غير قادر على منعه أو الإسراع فيه. مرغريت تأمر بالبلاء في تنفيذ الشعائر وتديرها حتى نهايتها.

الشخصيات كلها لا وجود لها إذن إلا من خلال دورها مع بيرانجيه. ليس لها مصير شخصي، تختفي عندما لا يعود الملك يراها لكنها ستظهر من جديد بعد وفاته. بيرانجيه -تارة يدعو للشفقة وتارة للسخرية، ضعيف وجبان، مضحك وكريه، أناني وظالم، لكنه قادر على استعادة الصحو والوعي- بيرانجيه هذا

عقدة من الرغبات والمخاوف، من الحسرات والآمال. إنه إنسان.

كتابة منظّمة.

لأنجد في مسرحية "الملك يموت" تدميراً للغة ولا استخداماً آلياً لها، كما لا نجد كلاماً خيالياً غير مألوف. الفكرة ليست حليماً، والكتابة ليست "آلية" أبداً. إنها كتابة دقيقة متأنية "كلاسيكية" كما قيل.

في حوار مألوف بشكل عام، تحتل فيه الكلمات الواضحة حيزاً كبيراً، يتدفق الشعر من استحضار مشاهد يومية يعبر عنها بمفردات شائعة: "مأروع ذلك. تفتحين محفظتك، تدفعين الثمن، يردون لك الباقي، تجدين في السوق أغذية من مختلف الألوان، نباتات خضراء، كرزاً أحمر، عنباً ذهبياً، باذنجاناً بنفسجياً... كل ألوان قوس قزح!... أمر خارق لا يصدقه العقل، إنها حكاية من حكايات الجن".

الشعر هنا اندماش، وفي موضع آخر سحر. تؤلف الشخصيات جوة وتأخذ اللغة شكل الصلاة.

- جوليت: أنت أيتها الذكريات...
- الحارس: أنت أيتها الصور القديمة...
- جوليت: يا من لم يعد لك وجود إلا في الذاكرة...
- الحارس: ذكريات ذكريات الذكريات [...] نحن نستدعيك.
- ماري: أنت أيها الضباب، ابق أيها الندى.
- جوليت: أنت أيها الدخان، أنت أيتها الغيوم...
- ماري: أيتها القديسات، أيتها الحكيمات، أيتها المجنونات، هيا إلى مساعدته لأنني لا أستطيع مساعدته.
- جوليت: ساعدته
- الملك: أنتم يامن فارقتم الحياة في سرور، يا من نظرتم إلى الموت مواجهة، يامن شهدتم نهايتكم الخاصة...
- جوليت: ساعدوا الملك.
- ماري: ساعدوه جميعاً، ساعدوه، أوتسل إليكم...
- على نقیض ذلك، تنفجر الشتائم بكلمات سوقية، مخالفة لتعاقب الأحداث،

كلمات من بيئة القرون الوسطى. تتفجر الأيام الجميلة، انتهت الولايم العامرة، انتهت حفلات التعري؛ انتهى كل شيء! لقد وجدت سطوة مرغريت تعابير مقتضبة: "لاتتوحي. أكرر لك ذلك، أنصحك به وأمرك به".

سخريّة "الشعائر" والتحكّم بالحياة والموت، ثمّ التعبير عنهما من خلال التلاعب بالألفاظ، يكرر الحارس كلمات الملك المؤثرة بصداها المضحك:

- أنت تموت لشأن يتعلّق بالدولة.

- لكن الدولة هي أنا [...]

- الملك: إنني أموت فليمت كل شيء، كلاً، ليبق كل شيء، كلاً، ليتمت كل شيء ما دام موتي لا يستطيع أن يملأ الأكوان! ليتمت كل شيء، كلاً، ليبق كل شيء.

- الحارس: يريد صاحب الجلالة الملك أن يبقى كل الباقي.

- الملك: كلاً، ليتمت كل شيء.

- الحارس: يريد صاحب الجلالة الملك أن يموت كل شيء.

أخيراً، إن إعادة تمثيل المسرحية، تأخذ بالصبيان أحياناً، الزمن المخصص للعرض من أجل أداء إيداعي. "ستموت بعد ساعة ونصف. ستموت عند نهاية العرض". يحطّم هذا التراكب في الأزمنة وهم مشابهة الحقيقة لكنه يضيف على موت الملك طابعاً حتمياً لا مفرّ منه، لأن الحدث المعروف، وهو الاحتضار، يخضع لضغط زمن حقيقي، هو مدة المشهد.

بحث انطولوجي.

مسرحية "الملك يموت" هي تأملات حول الوضع الإنساني. سيطرة فكرة الموت على الإنسان هي نسيج المسرحية، وهذه المشاهد المتتابعة تعبّر عن جميع مراحل وداع الحياة: نسيان الذكريات، فقدان الأحاسيس، إنه للإقتلاع، إنها النهاية. لقد تساءل يونسكو عن "الانتقال" عن "الامتحان الذي لا يرسب فيه أحد".

لكن خوف بيرانجييه ما هو سوى الخوف من وداع العالم. لم يتساءل، ولم تتساءل الشخصيات الأخرى عمّا بعد الموت. لم تقل مرغريت لماذا يموت الإنسان بل كيف يموت. يطلب الحارس "العدم العظيم" عند انتهاء "الشعائر"، وبعد أن تمّ العبور أصبح كل شيء صمتاً، فراغاً، غسقاً.

ولا يتضمن هذا البحث الانطولوجي أية أفكار لا هوية. يونسكو أكثر من فيلسوف وأكثر من مؤمن وما هو يكتب كتابه الشاعر المندش، المدرك لألوان العالم، ولمذاق الحياة.

هل وجد يونسكو ما يبحث عنه عندما كتب هذه المسرحية؟ لقد اعترف كلود بونغوا أنه كان يريد أن يتخلص من قلق يعيش فيه منذ الطفولة.

لكن تحليل الظاهرة لم يؤد دور التعويذة التي تنقذه وما هو يتساءل مرة أخرى عن جدوى الأدب^(١٤). لقد أعلن بيرانجييه ذلك إلى المحيطين به: كلمات الألم والموت لم تسعفه إلا في تركيب عدة جمل: "إنني أموت، هل تسمعون، أريد أن أقول إنني أموت، ولا أستطيع قوله، إنني لا أفعل شيئاً آخر غير الأدب.

"العطش والجوع"

تصوير الزهد في الحياة والتعبير عن كيفية التخلي عنها: هاتان الفكرتان الواردتان في مسرحية "الملك يموت" تطرحان جميع التساؤلات عن مغزى الحياة.

وعن الوضع الإنساني إجمالاً، وفي محاولة للإجابة على تلك التساؤلات كتب يونسكو مسرحية "العطش والجوع" عام ١٩٦٤. عُرضت المسرحية لأول مرة في دوسلدورف في الأول من شباط ١٩٦٥ من إخراج ك. ه. ستروكس، أما في فرنسا فقد عُرضت على مسرح الكوميدي فرانسيز في ٢٨ شباط ١٩٦٦ من إخراج جان ماري سيرو، وقام بالأدوار الأساسية فيها: روبير هيرش (جان) كلود وينتر (ماري مادلين) ميشيل إيتستيجري (الأخ تاراباس). قال المؤلف للنقاد ف. شاتيون: "سئلت إن كان تقديم المسرحية على مسرح الكوميدي فرانسيز يشكل منعطفاً في مؤلفاتي ونشاطي. فيما يخصني ليس هناك ثمة منعطف، المسألة فقط مسألة توسيع وتكبير، فمن المعروف أن صالة التياتر فرانسيز أكبر باثنتي عشرة مرة من صالة لا هوشيت. إن كان هناك من منعطف فإنه يتعلّق

^(١٤) إذا، لم تساعدني الكتابة إبدأ، ربما ساعدت آخرين مثل الشاعر الروماني العظيم إيون فيليبا الذي ترجم المسرحية إلى اللغة الرومانية. كان إيون شيخاً تقدّم به العمر، مصاباً بمرض خطير، عندما حاول ترجمة المسرحية. اشغلتني ترجمتها ثلاث شهور أو أربع، وخلال هذه الفترة كان في فترة الاحتضار تقريباً؛ وقد أجزّ الترجمة قبل وفاته بأربع أيام أو خمس. إذ كان قد رغب في تلك الترجمة وهو يخمّ أنه سيموت قريباً، وإذا كان قد استطاع إنجازها لمن المحتمل جداً أنها ساعدته في أواخر أيامه. (ص ٩٢).

بالكوميدي فرانسيز التي اختارت نصاً ومخرجين لم تطالبهم بتغيير أسلوبهم". رغم هذا التصريح فإن مسرحية "العطش والجوع" تشكل تطوراً في أسلوب يونسكو مثلما تشكل منعطفاً بالنسبة "للدار رفيعة الشأن".

لا تنقسم المسرحية إلى فصول بل إلى "حلقات ثلاث" ثلاث أحلام منفصلة: "الهروب" "الموعد" "القذاس الأسود في المنزل المريح".

مارتا، التي نراها في المهد عند بداية المسرحية، تظهر عند نهايتها وقد بلغت السادسة عشرة، لكن هذه الإشارة خادعة فالمسرحية تتحدد خارج حدود الزمن، وتجري أحداثها في ديمومة من عالم الأحلام.

عند رفع الستارة، نرى جان وماري- مادلين وقد عادا إلى شقتهم القديمة، شقة كما نرى في الكوابيس، معتمة، باردة، جدرانها مغطاة بالزواحف والعفن "غارقة حتى نصفها في الماء والوحل". يفكر جان بالهرب أما ماري مادلين فسعيدة لأنها تجد هنا الماضي كله: الأثاث العتيق، ورق الجدران الباهت، الجيران القدامى، الأصدقاء القدامى، العواطف الثابتة، ألوم صور الناس "منذ ألف عام"، ذكريات من جميع الأزمنة. هذا الماضي الذي يتجذر الحاضر فيه، السعادة في تناول البد، المهد الذي تغفو مارتا فيه، ذلك يكفيها، ولا تحلم أحلاماً أخرى: "سنضع قفلاً جديداً للباب، قفلاً له مفتاح ضخم، يغلق جيداً، وندعمه بمرتاج، فنكون في مأمن من اللصوص والمصائب".

يتغذى جان من الأمل، إنه ظمآن لما سينبجس عن قريب، جائع لما يفتقده: كل التوقعات، كل الأضرار.

فجأة تدخل العمة اديليد وتجلس على الأريكة العتيقة، سيدة ضخمة، مشردة، تتشخ بخمار طويل، تضع قبة ريش، تزين بمجوهرات مزيفة. راحت تتكلم، تخرّف، تهذي. إنها مجنونة أو على الأصح "كانت" مجنونة إذ أنها توفيت منذ زمن بعيد لكن ذكراها وظيفها يؤججان الندم وعذاب الضمير.

أشعلت ماري مادلين النار في المدفأة. تظهر في ألسنة اللهب امرأة تحترق وتستغيث وهي تمدّ ذراعيها. ذكرى أخرى وندم آخر. لم يجد جان في نفسه الشجاعة ليلقي بنفسه في النار وينقذ المرأة؛ وأمام الشعور بالذنب والذكريات المؤلمة تنصّب ماري- مادلين جان بالقبول والخضوع والاستقرار في الشقة.

في مونولوجين متقاطعين -لأن الحوار بينهما ينقطع تدريجياً- تتحدث ماري- مادلين عن السعادة التي تعيشها في الزمن الحاضر وعن حلوة العادات

ثم تردد الحب- اليقين: "أحبك، تحبني، نحبها، نحب بعضنا حباً جماً. ستكون معنا دائماً؛ حتى لو سافرت إلى الطرف الآخر من العالم، حتى لو تصورت أنك وحيد، فأنا معك، وسأكون معك..." يتحدث جان عن التمرد والهروب، عن الجري إلى طرف العالم، يتحدث عن تسلق القمم وعن البلاد التي لا يموت فيها الناس: "لا أريد أن أكون مثلهم، لن أغوص مثل الآخرين، لن استسلم. مصيري ليس مصيرهم؛ ووجودي في مكان غير هذا المكان".

تنتهي هذه الحلقة بلعبة الاستخفاء، يختفي جان ثم يظهر من جديد وراء الأثاث وفي الكواليس. تشعر ماري-مادلين بالقلق ثم بالدعر فتترنم ببعض التعاويذ والسحر: "من قلبك، من قلبك، لن تستطيع انتزاع الحب، لن تستطيع انتزاع الحب من قلبك، لن تستطيع انتزاعه، لن تستطيع انتزاعه، لن تستطيع انتزاعه...". يعود جان على أطراف أصابعه وينزع من قلبه وردة الحب، وردة النسرين، ويمسح قطرات الدم التي تحولت إلى لآليء، ويتعد ويخت صوته ويتلاشى. تركع ماري-مادلين قرب مهد طفلتها. آنذاك يتلاشى الجدار وتظهر حديقة رائعة ينتصب فيها سلم فضي يضيئ طرفه الأعلى في عنان السماء.

يتم "الموعد" على شرفة معلقة في الفراغ. لقد سار جان قروناً عبر بلاد رطبة، في مستنقعات، تحت المطر... لقد جاء من قبل إلى هذه الشرفة وعرف فيها الفرح والسعادة؛ وما هو يعود من جديد محملاً على جناح الفرح نفسه. تهجم عليه كل ذكريات السعادة فيشرح ذلك إلى حارسي المتحف الموجودين معه.

سيبدأ كل شيء عمّا قريب، سيبدأ كل شيء من جديد. إنه ينتظر المرأة التي واعدته، المرأة التي ستعود إليه بعد أن قطعت، هي الأخرى، الروابط التي تشدّها إلى الماضي. هو لا يعرف اسمها وليس وثقاً من مكان الموعد ومن زمانه؛ لكنه يعرف أن عليه أن يلتقي معها لأنها المسكن واللقاء. ستعلمه الفرح ومتعة الحياة، ستعيد له الزمن الضائع وسوف يتابعان الطريق معاً.

تمرّ الساعات.. الوقت ظهر، الساعة الواحدة، لقد انقضت فترة ما بعد الظهر وما هو الغسق يغطي صفاء السماء. يتذكر جان الألم القديم ويشعر أن جراحه تنزف من جديد: "اوه، أبها الحارسان، كنت أسكن مرتاحاً في اللامريح. اسمعاً محدث لي. أردت الهروب من الشيخوخة، أردت الهروب من التورط، وما أنذا أبحث عن الحياة، أبحث عن الفرح. لقد سعيت إلى تحقيق أحلامي فما

وجدت سوى العذاب. كنت مختيراً بين راحة البال وبين الهوى، فواحسرتاه، لقد اخترت الهوى. لم أكن مدركاً لما أفعل، مع ذلك كنت آمناً، متحصناً في حربي وحنيني وخوفي وندمي وقلقي ومسؤوليتي. الخوف من الموت كان درعي الأقوى. لقد كنت في أمان. كان ذلك كله بمثابة جدران تحيط بي؛ وما أنذا مُعرّض للجراح. انهارت الجدران وما أنذا في نار الحياة الحامية؛ في يأس الضيق. أردت الحياة فانقضت عليّ الحياة بكل قوتها".

بعد أن عانى من "العطش والجوع" يعود إلى بحثه من جديد. ينطلق على الطرقات لغزو العالم لكنه يجد الطرقات ولا يجد العالم، يمضي إلى اللقاء باحثاً عن النهارات والأماسي والليالي، عن أنوار وألئ تاجه.

تجري أحداث الحلقة الثالثة "القُدّاس الأسود في النزل المريح" في قاعة الطعام في نزل أو دير؛ قصر قديم هو أيضاً مدرسة أو مستشفى، لكن القُضبان الكبيرة عند المدخل تذكر بالسجن، جدرانه سمكة كجدران القبر.

وصل جان تعباً، قد شاخ. طلب السماح له أن يستريح، استقبله راهب يرتدي جبّة لكنه لا يحمل أية علامة دينية، إنه الأخ تارا باس "المكلف بأمر الزوار"، يرافقه ثلاثة رهبان آخرين يثيرون الشكوك، يقرؤون سلوكهم وأجوبتهم على وجه راهب آخر، أخرس جامد، كبير بشكل غير طبيعي، إنه "الأخ الرئيس".

غسل الراهب قديمي جان ووضعوا المناشف الدافئة على وجهه وقدموا له خمرًا وخبزاً ليروي ظمأه ويسكت جوعه. شكرهم جان لكنه تساءل في نفسه وهو قلق قليلاً إن كان سيستطيع تسديد الثمن. قال الأخ تارا باس: "لا تشغل فكرك في ذلك، إنه لن يكلف كثيراً [...] ومع ذلك يسعدنا لو تخصص لنا قليلاً من وقتك الآن". لقد دفع جان ثمن ذلك حياته إلى الأبد.

طلب الراهبان بعدئذ من جان أن يروي مغامراته، لم ترض حكايته طُموحات الإخوة الذين راحوا يسجلون بعض الملاحظات. وجد الأخ عالم النفس أجوبة جان متوسطة المستوى "بل دون المتوسط".

قرأ الأخ تارا باس علامات عدم الرضى على وجه الأخ الأعظم فنُزِر "اختباراته" وتحوّل المشهد إلى تحقيق "نفسي بوليسي" وراح جان الخائف المضطرب يفتش في ضباب ذاكرته عن صور منسية دون أن يدري أي ثمن يعطيها أولئك الذين يستمعون إليه ويحاكمونه.

انتهى الاستجواب. شكر تاراباس جان وقال له: "لقد سجل الأخوة ملاحظات عما قلت وأعطوك علامة على ذلك" ثم اقترح عليه مشهداً تربوياً، إنه "تمثيلية التربية بواسطة إعادة التربية". إنه مشهد "إزالة التسمم الفكري والتخلص من الاستلاب". "تخيل أن بيننا رجلين قاسيا من بعض الصدمات التربوية، أو من عملية بناء تشويهية بصورة تدريجية، إذا جاز لي استخدام هذا التعبير. أما وقد وصلا إلى المكان الذي هما فيه، فعليهما أن يسافرا من جديد لكن في الاتجاه المعاكس. يجب على كلٍ منهما أن يتعلم المعنى المضاد، هذا، بكل وضوح، عملية "غسل دماغ".

يتم إحضار مهرجين في قصصين هما تريب المؤمن بالله وبريختول الكافر الملحد. يقوم تاراباس بدور الأخ المربّي.. ينقسم الرهبان إلى قسمين؛ رهبان في مسوح سوداء ورهبان في مسوح حمراء. إنهم جمهوران يتظاهران كلٌ حسب الايديولوجية التي يؤمن بها. يتم إحضار قدر من الحساء وبعد يومين يتم "التخلص من الاستلاب" ويتبادل المهرجان عقائدهما: تريب يكفر وبريختول يردد الصلاة جاثياً. مشهد لا يغتفر للارتداد عن العقيدة. الحقائق تزول، الايديولوجيات تنهزم أمام الجوع، وكل قيمة تتلاشى. يضيف الأخوة الباقون ساديتهم الشخصية إلى قسوة تاراباس: يمتدّون المغارف ويعيدونها، يتظاهرون بالصمم، يلحّون على إنكار فكرة محدّدة. أمام هذه المهزلة البغيضة، ينتقل جان، وهو الشاهد المشارك فيها، من الضحك إلى الخوف. ينتهي المشهد فيقترح تاراباس على جان أن يعرض عليه البقية إذ أن ما رآه هو الحلقة الأولى من مسلسل من ثلاثين حلقة: "... في الحلقة التالية، كما أعلنت الشخصية التي قمتُ بتمثيل دورها، سيتمّ علاج الرجلين من التسمم بالحرية، كما يتمّ فضح، واعذرني لاستخدام هذه الكلمة المبتذلة، نعم يتمّ فضح فكرة إطلاق سراح المساجين، بل يتمّ فضح الحرية نفسها..."

أراد جان أن يتابع سفره. عطشه وجوعه لم يرتويا. مازال يحنّ إلى "انهيار لا يوصف"، يحلم بمتابعة بحثه لكن الأخ تاراباس يذكره أن الناس يتبادلون الواجبات، إنهم "أخوة" يتبادلون الخدمات، يجب على جان -وقد أصبح الأخ جان- أن يفي دينه: "يجب أن تفعل شيئاً فلا أحد مُعفى من الخدمة الاجتماعية. لا نثق، سنقرّر بدلاً عنك. مادام الجميع يأكلون ويشربون، ومادما لا نفعل شيئاً سوى ذلك، من السهل أن نجد لك عملاً، نرجوك أن تقوم بتقديم الطعام إلى هؤلاء الأخوة الجالسين حول المائدة..."

كم من الوقت سيستغرق تقديم الطعام؟ سألهم جان كم ثانية، كم دقيقة، كم ساعة...؟ لمعرفة ذلك راح الأخ المحاسب يكتب أرقاماً على سبورة سوداء. زاح يرصف الأرقام التي تحدّد زمناً جهنمياً. بدأ جان بإحضار أطباق الطعام والأباريق، بليقاع متسارع، إلى طاولة الإخوة. آنذاك، وفي الناحية الأخرى من قضبان بوابة النزل، ماري-مادلين وقد عادت شابة، ومارتا الصبيّة الحلوة، تظهران في جنات عدن، حيث يلمع السّلم القضي وقد أنقذهما الحب.

نسيج مرگب.

تمزج المسرحية "العطش والجوع" طبقات الوعي: التجربة النهارية، التأمّلات، الهلوسات، الحلم، تتداخل فيما بينها. حلم البيت الذي يغرق، ذكريات القيو المعتم الذي ماتت فيه والدة يونسكو، صورة إحدى خالاته، منظر المرأة وسط أسنة الذهب. بدلاً من أن يجمع هذه العناصر على مستوى واحد من الوعي، فإن يونسكو يبرز الطبقات المختلفة.

يعرض يونسكو العودة إلى البيت القديم وكأنها كابوس ممتدّ بفعل التجربة النهارية: "هذا هو كابوسي. كابوس منذ زمن بعيد، منذ أن كنت طفلاً صغيراً. يحدث كثيراً أن أستيقظ صباحاً فأشعر بغصة في حلقي، بعد أن أكون حلمت بهذه المساكن المخيفة الغارقة حتى منتصفها في الماء، ونصفها الآخر يكسوه التراب، المملوءة بالوحل"، أما المشهد الذي تظهر فيه العمة اديلبيد فهو حلم داخل الحلم، حضورها غير مادي كما أن جان يلاحظ أن الدم الذي يسيل من جراحها لا يشبه الدم العادي أبداً. في الحلقة الثانية، المرأة التي ينتظرها جان لا وجود لها إلا بالنسبة له، وفيه. إنها غياب حاضر. وفي الحلقة الثالثة، يمثل تطور الحدث انتقالاً من الحلم الجميل إلى الكابوس: استقبال الأخ جان يلقه الغموض، ويتحوّل حب الفضول عنده إلى تحقيق، كما تتحوّل ملهاة المهرجين إلى تمثيلية سادية وينتهي الحوار إلى تكرار آلي وكأنه حلم مكبوت.

هذا النسيج الذي يشدّ الواقعي إلى غير الواقعي يلغي فكرة الزمن: تستغرق رحلة جان ستة عشر عاماً، بل عدة قرون، كما أن خدمته في النزل المريح تستمر إلى الأبد أو عدة ثوان فقط. ليست الحلقات الثلاث فصلاً متتابعة في الزمن، كما أن المنطق الذي تتمّ على أساسه ليس تسلسل الأحداث تاريخياً. تنتظم الصور مثل مجرة في الفضاء، كما أن الذكريات "التي حدثت منذ ألف عام" والآمال البعيدة جداً تتحد وتتجمّع في الحاضر، وهذه الصور الأكثر تطوراً، أو

الأكثر ترابطاً مما رأينا في "ضحايا الواجب" و "إمبيده" هي أكثر غنى أيضاً بالمعاني والدلالات.

الحب وصعوبات الوجود

في مسرحية "العطش والجوع" قطبان يتحكمان بالحقل المغناطيسي للصور: الحب وصعوبة الحياة.

تطرح الحلقة الأولى قضية الحب بين الرجل والمرأة، ترى ماري- مادلين الحب على أنه ارتباط بالماضي. تقود جان إلى بيت الذكريات، تفتح ألبوم الصور ويكفي وجود جان ومارتا لتتحقق سعادتهما؛ إنه حب مغلق، قائم على الإمتلاك. تريد أن تكون النور الأوحده والحرارة الوحيدة في بيت لا هاتف فيه، ولا يمر ساعي البريد عليه أبداً، إنه حب مصبوغ بعاطفة الأمومة بمقدار ما هو مصبوغ بالعاطفة الزوجية^(١٥).

لكن جان يرى في هذا الحب قبراً، لن يقدر أن ينسى العالم: "إنكما تحتلان مكاناً كبيراً (في قلبي) لكن الكون أكبر وما ينقصني أكبر بكثير". لكن هذا الحلم في المطلق يحرمه من تذوق السعادة الراهنة. عندما سافر جان تخلى من أجل الأبدية عن ماري- مادلين ومارتا، والبوابة التي تفصله عنهما أغلقت إلى الأبد.

تعالج المسرحية موضوعاً آخر مرتبطاً بالحب هو الإحساس بالعالم. يذكر جان جميع أشكال وأسباب صعوبة الحياة: يذكر منها الفشل، ورفض اليقين الهزيل والرضى المحدود؛ يصف القبح، ويتحدث (خلال مشهد الهلوسة في الحلقة الأولى) عن وطأة الندم، يجب أن يعوّض الهرب عن عدم رضاه، أن يخلصه من شعوره بالذنب، وفي الحقيقة، تحت هذين الإحساسين يختبئ تسلط فكرة الموت: "(بلزمني) بلاد تحرّم قوانينها الموت. عندما يدخل المرء إلى هذه البلاد يطلب منه أن يوقع على تعهد بأن لا يموت".

مع ذلك ليس الموت المادي هو الشر الأوحده، العقل مهتد أيضاً، في مشهد المهرجين لا يقل التكرّر للمبدأ المأ عن ألم الجوع.. تولد الوحشية من إذلال الآخرين، فالعار الذي لحق برتيب وبريختول^(١٦) يركد إلى جان والأخوة وسائر

^(١٥) من المدهش أن نقارن أقوال ماري- مادلين مع اعترافك يونسكو في يوميت في فئات ص ١٥، ١٦٣، ١٦٤.

^(١٦) يمكن أن نلاحظ في هذا الإسم تعويراً لإسم برتولد بريخت.

المشاهدين، إن تسطيح القيم شكل من أشكال السقوط.
لا يستحضر جان الإحساس بالكمال والإفتتان والنشوة إلا على أنها حالة
غير واقعية، ذكرى مفعمة بالحنين، أو أمل لا يُطال. الفرح والنور مثلهما مثل
الحب المجنون، يصوران الفردوس المفقود.

تقنية طيّعة.

شخصيات مسرحية "العطش والجوع" من تلك الشخصيات التي تظهر في
الأحلام: ماهي إلا انعكاس إحساس الحالم. سمة واحدة تحدد كلاً منها، تصوّر
تلك الشخصيات رغبة ما أو عقبة محدّدة. تخلق حول جان جواً من الصراع،
ولا وجود لها إلا لتيسّر له تحقيق قدره كما يراه في الحلم.

ماري -مادلين هي التورط والإنزلاق الذي ينتزع جان نفسه منه، أما
حارسا المتحف-السجن فهما الجمود الذي يقابل التجوال. يؤدي تريب وبريختول
لعبة الإنكار التي تتحوّل إلى استسلام جان. يفضح الأخ تاراباس، المحقق
الجلاد والمحلل النفسي، الأفكار الدقينة التي يؤمن بها جان.

يمثّل الأسلوب المتطور عودة إلى التقاليد "الأدبية"، عودة إلى كتابة دقيقة
ومحكمة. في الحقيقة، تخضع اللغة إلى تراكم فكر الأحلام، لكن الصور، من
حيث الشكل والمضمون، صور معقّدة غنيّة جداً بالمعاني، أكثر مما هي نقل
مباشر للحلم، كما رأينا في مسرحيتي "ضحايا الواجب" و "اميديه" .. المفردات
والإستعارات، وبناء الجملة تضاعف المفاهيم وتخلق تعابير شعرية: "من ظلال
الماضي، اصنع ليلاً مريحاً، الحاضر شمس إذا أردت، والمستقبل سماء لا
زوردية[...]" اجعل من الفشل استراحة واسترخاء، ومنذ الصباح، تمنى المساء
الذي ينشر السكينة: سوف يأتي.. في الليل، احلم بمهرجان الفجر...؛ "عينان من
ضباب... نظرة عميقة ضاحكة جاهزة غائبة، لونها بلون الأحلام، نظرة لطيفة
مثل مياه نهر فاتر في عزّ الصيف..."

تترجم اللغة جميع أشكال الحلم عند جان. لغة شعرية عندما تعبّر عن
الرعب والجمال، مفككة عندما يستعصي الحلم على اتخاذ الأشكال المتعارف
عليها. نجد، آنذاك، كما وجدنا في حكاية شوبير، مختلف مظاهر العبث: التعداد
الفوضوي الذي لا نهاية له، وتجميعات إيحائية مجازية أو صوتية: "رأيت أعمدة
من الخشب، أعمدة ملهى ليلي، نعم، أعمدة كنيسة، أعمدة بيوت، أعمدة

أعمدة....' عندما يجمد الحلم في نهاية المسرحية تتخلع اللغة في إلقاء رتيب لأرقام يرددتها الأخ المحاسب وترددها خلفه جوقة الرهبان: "... واحد، سبعة، ثلاثة، ستة، تسعة، ثمانية، واحد، سبعة، تسعة، ثمانية، واحد..."

مع ذلك، نشعر ببعض ملامح الفكر الواعي في سخرية بعض المقاطع: يهاجم يونسكو الإيديولوجيات ويستعزى بها من خلال الإفراط في استخدام اصطلاحاتها: الإستلاب، التقويم، الصدمة النفسية، قابلية التعب، التشكل التدريجي المشوه...

الديكور والإخراج يوحيان أيضاً بعالم الحلم: تتميز الحلقة الأولى بالهلوسات، كظهور العمة اديليد، والمرأة في السنة اللهب.

أما ديكور الحلقة الثانية فإنه غير واقعي، وفي الحلقة الثالثة غامض وملتبس؛ فلا يدري المشاهد حقيقة النزول، هل هو دير أم سجن أم مشفى أم مدرسة... تعبر الأنوار والظلال عن الخوف من الغوص وعن غبطة اليقين... المشاهد التي يشارك فيها جان تبدل شخصيته، ففي نهاية الحلقة الأولى، يذوب في الأشياء، وفي الحلقة الثالثة يكون الخبز والخمر، عندما يقول للأخ تاراباس، دون أن يتوقف عن تناول الطعام: "إنني أعاني من فراغات في الذاكرة منذ زمن بعيد" وفي المشهد الأخير تكون الحركة الآلية كافية لفرض صورة الكابوس.

البحث عن المطلق.

مغزى مسرحية "العطش والجوع" واضح من العنوان.

تصوّر مشاهد المسرحية المتنوعة، أو ترمز، إلى شتى أشكال العطش والجوع. شهية الحارسين هي التي تشم رائحة الحساء وفي فمهما طعم الخمر؛ أما الجوع الذي يعاني منه تريب وبريختول فهو العذاب الذي يذلل، إنه جوع جان عندما يصل إلى النزول؛ إنه الجوع الناتج عن مجموعة من الرغبات؛ إنه الحب المجنون؛ إنه الأمل الذي يفوق العالم اتساعاً ورحابة؛ إنه البحث الذي لا يرتوي عن المطلق.

انطلق يونسكو في هذه المسرحية من تجربة وجودية، تجربة الغيبوبة العابرة؛ لكن ليس الهدف منها العثور على الدوافع البدائية كما رأينا في مسرحيات "جاك" "ضحايا الواجب" "اميديه". من خلال المعاناة الدائمة للعطش والجوع يشعر جان بغياب من نوع آخر. يذكرنا بحثه بالتدريبات التي كان

يمارسها الصوفيون. إنه يرفض كلّ أسباب الذلّ والإنحطاط: يرفض التشفي، يرفض الإمتلاك الذي يذل. إنه يبحث عن موضوع رغباته خارج حدود الزمن والموت. المرأة التي يحلم بها جميلة كالأرض الموعودة.

ماري-مادلين، التي استعادت شبابها، نجت من السقوط والموت، وفي النهاية يتوّد بهته إلى أسفل السلم الفضّي.

تحاول المسرحية إذن أن تكشف معنى وهدف الحياة. من مسرحية "الإمتثال" إلى مسرحية "العطش والجوع" اقتفى يونسكو خطّ السير الذي كان قد حدّده في كتاب "يوميات في فتات": "يمثل الاستكشاف الحاسم للقلب الإنساني بداية الطريق في حياة الإنسان، لكنّ هذا الاستكشاف لا يكون حاسماً إلا إذا أدّى حقاً إلى بداية الطريق، إذ أن هناك استكشاف عقيم لا يؤدي إلا إلى تعذيب الذات، إلى اليأس، إلى إرباك وتشويش أكثر تعقيداً [...] يجب على كلّ امرئ أن يجد طريقه بنفسه" (ص ٩٥). تتحدث مسرحية "العطش والجوع" عن تجربة عدم الرضى دون أن تشير إلى "الطريق" لكنها تشير، مع ذلك، إلى تأملات من مستوى الوجد.

"الحقيقة والكمال لا تتحققان إلا من خلال زواج السماء والأرض [...] يجب أن تصعد الأرض إلى السماء، كما كتب يونسكو، فهل يمثّل السلم الفضّي طريق هذا الارتقاء؟.

"لعبة القتل"

انقضت خمس سنوات بعد مسرحية "العطش والجوع" طبع خلالها يونسكو جزأين من مذكراته، غنيين بالإعترافات، كما تميّزت تلك السنوات بأفكار وانطباعات جديدة عن الخلق والإبداع في "محاوراته مع كلود بونغوا" و "اكتشافات" وفي عام ١٩٦٩ أنهى يونسكو كتابة "الوباء" أو "لعبة القتل". عُرّضت المسرحية في دسلدورف في كانون الثاني ١٩٧٠ ثم عُرّضت في باريس في أيلول من العام نفسه^(١٧).

تعرض اللوحات المتتالية مدينة مثل باقي المدن في زمن غير محدّد. يوم الأحد، على ساحة المدينة، عند ساعة القدّاس، تأخذ الأحاديث والثرثرات سيرتها المعتادة: تتحدث ربّات البيوت عن شراء الأغراض، ويتحدث المتنزهون عن

^(١٧) نُفِيت مقاطع من "الوباء" من إذاعة نراتس كولتور في ٢١ شباط ١٩٧٠.

غلاء الحياة، والسياسة، وهموم الأسرة و "غزو القمر"، والأخلاق المتعالية^(١٨) والإرتكاس "اللاشرطي" .. فجأة يموت طفل رضيع في عربته: يتيبس، يصبح لونه ضارباً للبنفسجي، وتُحفظ عيناه. هلع، غضب، شجار، عنف، أطفال آخرون وبالغون وعجزة يموتون بنفس الأعراض.

مرض غامض يلفّ الكرة الأرضية ويعود بشكل دوري ويضرب أكثر المدن سعادة في أسعد لحظات تاريخها.

ينتشر الوباء بسرعة، ويزداد "بسلسلة هندسية". يتم اتخاذ الاحتياطات اللازمة مثلما فعلت المدينتان الشهيرتان في الزمن القديم: برلين وباريس. يقوم الجنود بحراسة الأبواب ولم يعد أحد قادراً على الدخول أو الخروج. يتم تجنيد حفارين إضافيين ومفتشين محلفين لإستقصاء آثار العدوى، ونساء مفتشتات لزيارة البيوت.

يُوجّه نداء إلى المتطوعين "ابلغوا بعضكم عن بعض" .. تُرسم إشارة صليب أحمر على البيوت المصابة ويُحجر على سكانها، وكل من يدخل إلى بيت مشبوه لا يعود بإمكانه الخروج منه. تُحظر التجمعات العامة والتسكع والإحتفالات والتسول واجتماع أكثر من ثلاثة أشخاص. ثم يُعلن منع التجول.

في هذه المدينة التي تعيش تحت الأحكام العرفية نرى نتائج المرض: دمار مادي وانحلال أخلاقي. ساعة الموت هي ساعة الحقيقة أيضاً. لا يستمر المشاعر أي احتشام أو احتراش. يموت المرء كما هو في أعماق نفسه.

في بيت لم يصله الوباء، يتم تكديس المواد التموينية ومضاعفة الاحتياطات: "حواجز عازلة وقلوب كتّيمة". يعيش المرء كي ينجو وسط هذا الرضى الأناني يضرب الموت ضربته.

في إحدى العيادات يلتقي كاتبان بعد فراق دام عشرين سنة؛ يتحدثان عن الصداقة. قال أحدهما: "الصداقة أقوى من جميع الإيديولوجيات..." يرّد الآخر: "الصديق شخص يفكر كما أفكر..." ويستمر الحديث. فجأة يموت أحدهما. يطمئن الطبيب نفسه ويرفض الإعتراف على أن المرض يمكن أن يصل إلى عيادته.

في "الأحياء العالية" يطمئن الناس أيضاً. تتفق مجموعة من المدعوين على أن الوباء، وهو وليد للبؤس والردّيلة، لا يمكن أن يصيب سوى الأحياء

^(١٨) المتعالي transcedental (عند كائنات، صفة للمعاني أو المبادئ التي يعتبرها خاصة بالفكر وحده والتي يدعوا بها باطنية أو ذاتية طبقت في حدود التجربة الململ)

المنخفضة... يُصعق أحد المدعويين ويموت.

المرض ينتشر والمشاهد المرعبة تتكاثر ولم يعد في مقدور الحفارين دفن جميع الأموات فالجثث تنكس في كل مكان.

في عمارة شعبية يلتقي زوجان بعد أن باعدت بينهما احتياطات الأمن. استطاع الزوج أن يجتاز حاجز الجنود ليلاً، مثل صدى قريب، هناك زوجان آخران. استطاعت المرأة أن تعود من الريف دون أن يراها أحد. ثنائيات يتحدثان، بانسجام، عن الحب وسعادة اللقاء وشموس المستقبل. لكن القلق من الحاضر يستمر وتظهر أولى علامات المرض؛ فالأول لم يستطع اجتياز حاجز الجنود إلا ليشهد موت زوجته، ولم ترجع الأخرى من الريف إلا لتفقد زوجها إلى الأبد. عندما ينتشر "الوباء" لا يكون الحب "أقوى من الموت".

في مكان آخر تستعد امرأة وابنتها لحضور حفلة راقصة. الأم لا مبالية، تريد الحياة والتمتع بالحياة فلا تفكر إلا بزيتها؛ أما الصبية فقلقة مضطربة، تسمع حشرجة الجيران، ثم تشعر بضيق وآلام فظيعة، ثم تموت. تصبح الأم الطائشة الأنانية أمًا حزينة.

يضرب الموت الجيش أيضاً حيث لم تجد الإحتياطات نفعاً، الأهواء والغرائز تنفلت: سرقات واغتصاب وقتل. يجمع الجيش الجرائم بقوة النار، تضاف ضحايا هذه الأحداث العنيفة إلى ضحايا الوباء.

التمرد يعلو هديره، اجتماعات سرية تُعقد، ويعلن خطيب شعبي "الرفاق" أن المرض أصاب ثلث السكان. مائة وتسعون ألف قتيل، مائة ألف مريض في المستشفيات أو في البيوت. يجب معرفة الأسباب وفصح المسؤولين عن الوباء.

من المستفيد من الوباء؟ يعالج الخطيب الموقف بموضوعية وتاريخية، يكشف أسراره بإدخاله ضمن سياق جدلي وقد دحض برشقة من الأيمان المغلظة اعتراضات "رفيق- معارض" وقاد المتظاهرين إلى دار البلدية. لكن الجنود كانوا هناك. لعلعت البنادق للرشاشة، لقد قُتل الخطيب.

اجتماع سري آخر: اجتماع للمتدبرين. خطيب مفوه يعلو المنصة؛ يردد أقوال القدماء ويرسم صورة "مجتمع جديد" يعد بالثورة ضمن حدود القانون و "السعادة من خلال ازدهار مجتمع استهلاكي مُعدل". يقترح تدابير مبتكرة وتغييرات عميقة: انفتاح اقتصادي ضمن الاستقرار النقدي، تحسين مستوى حياة العمال، حماية رجال الصناعة وتوسيع هامش منفعتهم، تطوير علاقاتها، زيادة

الإعانات العائلية وإعانات التقاعد، تخفيف الأعباء الضريبية. ثم يوضّح الخطيب السبب في أن البلدية مسؤولة عن جميع النكبات ويدعو المستمعين لموازنة مشروعه والتصويت له. ينتهي الاجتماع على نشيد المارسييلز الذي غُذِلَ بما يناسب الموقف.

سندخل إلى مقلع الحجارة

عندما يغادره أصحابه الحاليون...

لكن ذلك كله لا يحدث من انتشار الوباء. يستعيد زوجان حياتهما، فيتذكّر القارئ مسرحية الكراسي. المرأة ترى الحياة رائعة: "كل لحظة من الحياة تسحرني... كل يوم بالنسبة لي هو يوم آخر... عند كل فجر يُولد العالم من جديد...". أما الرجل على العكس، يعاني من الحياة على أنها كابوس: "كل شيء مخيف. إنني أعاني من السأم والقلق...". لكن المرأة تموت. هناك أناس يستفيدون من المرض: القوّالون يجدون فيه مواضيع للهجاء، وحفّارو القبور ماعادوا يخافون من البطالة... إنها فرصة انتقام الفقراء: في مخزن كبير مات أصحابه نهبت البائعات الملابس وتعاركن مع الوريثة...

هلك نصف السكان. أخيراً تلاشى الوباء وصار في الإمكان أن تُولد السعادة من جديد، لكن، يشبّ حريق هائل...

تقنية متجدّدة.

عندما كتب يونسكو هذه المسرحية كان يحلم بقصة "يوميات الطاعون" لدانييل دوفو، ورواية "الطاعون" لألبير كامو إذ وجد في هاتين القصتين موضوعاً وصوراً ومواقف.... يمكن الاكتفاء بهذه الإشارة دون الحديث عن التأثير وإلا فإننا نواجه تأثيراً سلبياً وردّ فعل رافض. تختلف تقنيات المسرح عن تقنيات القصة، وبيتد يونسكو كثيراً عن منطلق كامو الأخلاقي عندما يفسّر الأحداث.

فالمغزى في مسرحية "لعبة القتل" والمغزى في "الطاعون" متعارضان.

لأنجد في مسرحية "لعبة القتل" عقدة ذات تغيرات فجائية متعددة ولا نجد تطوراً يحقق حيويته من خلال موقف متغيّر. المشاهد المتتالية مشاهد مستقلة، يعرض كل مشهد موقفاً خاصاً، والرابطة الوحيدة التي تجمع بينها هي الموت. لوحات متتابعة لصورة جدارية ينقل تتابعها تجاوراً في المكان. "لعبة القتل"

عرض مسرحي وليست دراما.

لا تشكل الحلقات الثلاث من مسرحية "العطش والجوع" تسلسلاً زمانياً ، لكنها تصوّر ثلاث طرائق "الحياة في العالم" وهنا يذهب يونسكو إلى أبعد من ذلك. إنه يرفض "الشكل" الدرامي، يرفض التقاليد الثابتة، يرفض الحدث الذي تتشكل عقده من أزمة ما، ويتطوّر حتى يصل الذروة، ثم تتحلّ العقدة من خلال تغيير أساسي في الموقف الأولي.

هذا الطرح الجوهرى الجديد للعمل يعدّل من دور الشخصيات التي فقدت وظيفتها الدرامية ولم تعد أكثر من موقف في مواجهة الوباء، إنها عيّنات، نماذج. منذ ذلك الحين لن نراها تنتقل من مشهد إلى آخر. بل لم يعد هناك شخصية يحدّد وجودها المستمر بوضوح وحدة المفهوم أو وحدة النظرة إلى العالم مثلما رأينا من قبل في مسرحيتي "قاتل بلا أجر" و "العطش والجوع".

هذه الطريقة في معالجة الزمن والشخصيات تؤدي إلى حدوث تعديلات على أشكال الحوار. لم يعد الحوار في خدمة الحدث، ولم يعد وسيلة للاتصال، ولم يعد يوضّح أفكار المؤلف: ليس هناك تبادل حقيقي ولا اعتراف ولا فصاحة ولا غنائية. الحوار يشير إلى المواقف، إنه حوار وصفي، للكلمات فيه نفس المهمة التي تؤديها بقع الألوان على اللوحة.

ردود قصيرة، كليشيهات، كلمات مبتذلة متراكمة تستخدم قوالب "اللغة" اليومية، تصف التصرفات الممكنة أمام الحياة وأمام الموت. يتعرّف المرء على ما رآه من قبل، ويكون أحياناً على اتصال مباشر بالأحداث الراهنة: يلجأ يونسكو إلى طريقة الإصااق (كولاج) ويستعير شعارات من خطب السياسيين وزعماء النقابات المعروفين، وعبارات من مقابلات صحفية مع 'رجل الشارع'... يضرب الأمثلة ثم يجعلها تنكمش فتعطي السخرية آنذاك للواقع مغزاه. هذه الطريقة الساخرة تجعلنا نفكر بالقوللين: هنا يؤكد يونسكو أيضاً تصحيحه على أن ينقل إلى المسرح أشكال الاستعراض التي يمكن أن تبدو غريبة عنه: الميوزيك-هول، والكاباريه...

تعبير عن "اللامعقول"

في مسرحية "لعبة القتل" نجد من جديد جميع المسائل التي واجهها يونسكو.. يعرض كل مشهد موضوعاً أو يصف سلوكاً: إنها فرصة للتفكير

والتساؤل عن الصداقة والحب، عن الاندهاش من الحياة والخوف من الوجود، عن الإبداع الأدبي، عن الإضطرابات السياسية، عن طغيان الإيديولوجيات، عن الطموح، عن العنف...

الوباء، وهو القاسم المشترك بين المشاهد كلها، يحقق وحدة الأسلوب؛ ومن خلال التهديد الذي يعلنه يصبح أسلوباً للكشف عن الوجدان. لقد أبدى انتونان ارتو الملاحظة التالية عن الطاعون: "أصاب الطاعون المجوس وهم نيام فأيقظ فساداً كامناً ودفعهم فجأة إلى أكثر التصرفات تطرفاً..."

كان ارتو يشبه المسرح بالطاعون تصوّر مسرحية "لعبة القتل" انتصار القوى السوداء: أمام الموت تسقط الأقنعة كلها: الخوف، الجشع، الأنانية، القسوة، كلها تظهر دون مواربة؛ وكذلك الكرم والحب، فأولئك الذين يحبون الحياة حقاً يعرفون كيف يموتون دون خوف، وهذا ما اعترف به بيرانجييه إلى مارتا في مسرحية "الماشي في الهواء".

تقدّم كل لوحة فكرة خاصة لكن المسرحية تكتسب مغزاهما من الموت. الموت مائل أمامنا، حاضر دون تبرير أو انقطاع. إنه الطاعون أو النار، وكل قوة من تلك القوى السوداء الكامنة في العالم أو في الإنسان تولّد الموت. يضرب الموت عشوائياً، فهو ليس عقوبة إذن كما أنه ليس وعداً:

لا أحد يرى فيه معبراً إلى عالم آخر أو تسامياً إنه يحيل كل عمل إلى عبث وكل جهد إلى سخريّة. إنه التساؤل الأكبر "ما الفائدة؟". ما الفائدة من الصداقة والحب والذكاء؟ ما الفائدة من الكراهية والطموح؟ ذلك كله لا فائدة منه.

لكي تكتسب الحياة معنى لابدّ من الشفاء من الموت، وهذا ما قاله جان إلى ماري-مادلين في "العطش والجوع" وهذا ما شرّحه بيرانجييه للصحفي في "الماشي في الهواء": "أنا مشلول لأنني أعرف أنني سأموت قريباً".

في "لعبة القتل" لا توضح أية شخصية فكرة الكاتب لكن المسرحية تخرض هذه الفكرة بوضوح: يسلب الموت من الحياة كل قيمة، والقدر لا معنى له، والوضع الإنساني "لامعقول"

يتناول يونيسكو إذن في "لعبة القتل" المواضيع الكبرى التي عالجها في مسرحه مع محاولة لتجديد الأساليب والتقنيات. من خلال هذه الاستمرارية في رؤية العالم، هل يمكن اعتبار هذه المسرحية نقطة انطلاق نحو أسلوب جديد؟

٢- العروض المسرحية

- ١٩٥٠- ١١ أيار، على مسرح نوكتامبول، المغنية الصلحاء، إخراج نيكولا باتاي. قام بالأدوار: نيكولا باتاي (السيد مارتان) كلود مانسار (السيد سميث) سيمون موزيه (السيدة مارتان) بوليت فرانتز (السيدة سميث) اوديت باروا (الخادمة) هنري-جاك هوي (رجل المطافئ).
- ١٩٥١- ٢٠ شباط على مسرح بوش-مونبارناس. الدرس. إخراج مارسيل كوفوليه. قام بالأدوار: مارسيل كوفوليه (المدرس) روزيت زوشيلي (التلميذة) كلود مانسار (الخادمة).
- ١٩٥٢- ٢٢ نيسان على مسرح نوفو لانكري. الكراسي. إخراج سيلفان دوم ديكور جاك نويل. قام بالأدوار: تسيل شيلتون (السيدة العجوز) بول شوفالييه (السيد العجوز) سيلفان دوم (الخطيب).
- ١٩٥٣- خلال شهر شباط على مسرح كارتييه-لاتان. ضحايا الواجب. إخراج جاك موكلير، ديكور رونييه أليو. قام بالأدوار: تسيل شيلتون (مادلين) ج-ر شوفار (شوبير) جاك موكلير (الشرطي) ج. آلريك (نيكولادو) بولين كامبيش (السيدة).
- في الأول من أيلول، وعلى مسرح لاهوشيت عرضت سبع مسرحيات قصيرة: صبيّة للزواج-معرض السيارات- هل تعرفونه؟- الزكّام في الحلم- ابنة الأخ المتزوجة- المعلم- الحرارة العظمى (وهي اقتباس عن كاراجيالي). إخراج جاك بولييري. ديكورات جورج آتينكوف، تمثيل ج لوفلون، كلير أوليفيه، جاك بولييري.
- ١٩٥٤- ١٤ نيسان على مسرح بابليون، اميديه أو كيف تتخلص منها؟ إخراج جان-ماري سيرو. ديكورات جاك نويل. موسيقى بيير بارو. قام بالأدوار: لوسيان ريمبورغ (اميديه) ايفون كليش (مادلين) بيير لاتور، جان مارتان، دومينيك دولان، جان لاتور، جان دافيد.

١٩٥٥- نشرين الأول، على مسرح لاهوشيت، جاك أو الإمتثال، إخراج روبير بونستك. ديكرات جاك نويل. قام بالأدوار: جان- لوي ترانتينيان (جاك) كلود تيبو (جاككين) ج. بوتان (والد جاك) تسيلاشيلتون (أم جاك) بول شوفالييه (جذ جاك) مادلين داميان (جدة جاك) رين كورتوا (روبرت) كلود مائسار (الأب روبير) بوليت فرانتر (الأم روبير).

- ١٥ نشرين الأول. اللوحة. قام بالأدوار: بيير لوبرو (السيد الضخم) بول شوفالييه (الرسام) تسيلاشيلتون (أليس) مادلين داميان (الجارّة).

- في فنلندا عُرضت "المستأجر الجديد" باللغة السويدية من إخراج فيفيكا باندر.

١٩٥٦- ٢٠ شباط، على ستيديو الشانزليزيه، مسرحية ألما القصيرة أو حرباء الراعي، إخراج موريس جاكومون. ديكور بول كوييل. الموسيقى التصويرية مختارات من القرن السابع عشر، قام بالأدوار: موريس جاكومون (يونسكو) كلود بيبيلو (بارتولوميو الأول) آلان مونييه (بارتولوميو الثاني) بير فاستا (بارتولوميو الثالث) تسيلاشيلتون (ماري).

١٩٥٧- ١٠ أيلول على تياتر دوجوردوي. المستأجر الجديد، إخراج روبير بونستك. ديكور سينييه. قام بالأدوار: بول شوفالييه (السيد) ماريز باييه (حارسة البناية) جريم اللرايت وكلود مائسار (الحمالين).

١٩٥٩- ٢ آذار، على مسرح ريكاميه. قاتل بلا أجر. إخراج جوزيه كواغليو ديكرات جاك نويل. قام بالأدوار: كلود نيكو (بيراتجيه) جان - ماري سيرو (المهندس المعماري) نيكول بونسكو (داني) فلورانس بلا (حارسة البناية والأم بيبا) نيكولا باتاي (ادوار) جاك سودري، هوبير دولاباران، جاك ديخور، جاك هيرلان، فيليب كيلرسون، جيرار داريو، ميشيل البرتون.

في مهرجان سبوليت عُرضت مسرحية "مشهد رباعي" باللغة الفرنسية. ٦ نشرين الثاني، على مسرح دوسلدروف عُرضت مسرحية "الكركدن" إخراج ك. هـ. ستروكس وقام بدور بيراتجيه كارل ماريا شيلي.

- ١٩٦٠- ٢٢ كانون الثاني على تياتر دوفرانس. الكركدن. إخراج جان-لوي بارو. ديكورات جاك نويل. موسيقى ميشيل فيليبو. تمثيل: ج. ل. بارو، ولیم سابا تيهيه، ماري-هيلين داستيه، نيكول يونسكو، جين مارتل، جان مارتان، روبير لومبار، جان باريديس، ايف اركانييل، سيمون فالير، ميشيل بيرني، جابريل قطان، ريجيس اوتان، سيمون باري، ماريوس بالينو، مارك هلفورد، فرانسواز دوبري.
- نيسان، على مسرح الأيتوال. باليه تعلم المشي. موسيقى مالك، تقديم باليه باريس الحديثة (فرانسواز ودومينيك).
- ٢٨ نيسان. على مسرح رويال كورت تياتر في لندن. الكركدن. إخراج أورسون ويلز. أدى دور بيرانجيه لورانس أو ليفيه.
- ١٩٦٢ نيسان. على ستيديو الشانزليزه. تخريف ثنائي. إخراج انطوان بورسييه. ديكورات جاك نويل. قام بالأدوار: تسيل شيلتون (هي) ايف بونو (هو). على مسرح المدينة الجامعية مسرحية المستقبل في البيض إخراج جان-لوك مانيريون.
- ١٥ كانون الأول. على مسرح الأليانس فرانسيز. الملك يموت. إخراج جاك موكلير. ديكورات جاك نويل. موسيقى جورج دولورو. قام بالأدوار: تسيل شيلتون (مرغريت) رين كورتوا (ماري) روزيت زوشيلي (جولييت) جاك موكلير (بيرانجيه) مارسيل كوفوليه (الطبيب) مارسيل شامبيل (الحارس).
- ١٩٦٣ - ٨ شباط. على مسرح تياتر دوفرانس. الماشي في الهواء. إخراج جان-لوي بارو. ديكورات جاك نويل. موسيقى جورج دولورو. تمثيل: ج-ل بارو، مادلين رينو، جان باريديس، دومينيك اردن، لويس ماسون، سابین لودس، روبير لومبار، جين مارتل، دومينيك سانتارلي، اليس رايشن، ماري-هيلين داستيه، ريجيس اوتان، ميشيل بيرتي، سيرج لان، هنري جيلابر، اندريه باتيس.
- ١٩٦٥ على مسرح المركز المسرحي في الجنوب الشرقي. اللغزة.
- ١٩٦٦ شباط. على مسرح الكوميدي فرانسيز. العطش والجوع. إخراج جان-ماري سيرو. ديكورات جاك نويل. توزيع الأدوار: روبير

هيرش (جان) جاك ايرز (تريب) جان- بول روسيون (بريختول)
ميشيل ايتشيغري (الأخ تاراباس) رونييه كاموان (الحارس الأول)
لويس ايمون (الأخ الأعظم) كلود بروسيه (الحارس الثاني) سيمون
اين (الأخ الثالث) ميشيل بيرناردي (الأخ الثاني) جاك موري (الأخ
المحاسب) أني ديكو (اديلاييد) كلود وينتر (ماري- مادلين)
جيرالدين فالمون (مارتا)، في شهر شباط على مسرح تياتر
دوفرانس إعادة لمسرحية الثغرة من إخراج جان- لوي بارو.

شهر أيار. على مسرح بوش- مونبارناس. عند أسفل
الجدار، درس في اللغة الفرنسية للإمريكيين. إخراج انطوان
بورسييه. ديكورات اوسكار غاستون. تمثيل مارك دوديكور، كلود
جينيا، ج. ك. بويون، ايف الونسو، كليردوهاميل، اندريه هارتمان،
كانون الأول، على مسرح لا پرويزير. مشاجرات وصراعات (زيارة
المستشفى، المستقبل، وكالة السفر، البيضة المسلوقة، صدمات)
إخراج جورج فيتالي. ديكورات باس. الممثلون الأساسيون ميشيل
كالابرو، نيكول غيدن، كلود جينيا، ماكس فيال.

تشرين الأول. على مسرح الابسيدويل. اسكتشات لم تعرض من قبل
وإعادة لبعض الاسكتشات القديمة: التحيات، مشهد رباعي، البيضة
المسلوقة، درس في اللغة الفرنسية للإمريكيين، عند الطبيب، شجرة
جوز الهند المحترمة، قصة لصووص، الثغرة، الصبية تتزوج، حدث
قبل ذلك، المعلم.

- ٢٢ كانون الثاني. على مسرح دوسلدروف في ألمانيا. الوباء أو
لعبة القتل.

١١ أيلول. عُرِضت في باريس على مسرح مونبارناس.

١٩٦٩

١٩٧٠

مسرح العنف

اللغة نظام للإتصال لكنها أيضاً طريقة للبحث ووسيلة للتعبير عن الواقع. الفلسفة والعلوم والرسم والموسيقى والأدب، هي لغات مختلفة وكل واحدة منها تكشف الواقع أو تؤسسه.

ليس من مهمات الأدب إذن إبراز فكرة مجردة مسبقة. الكاتب لا يشرح ولا يعلم، إنه يبحث، ومن خلال تساؤلاته تبتثق حقيقة جديدة توضحها اللغة. لكن في الوقت نفسه، يطرح الكاتب للمناقشة النظام الذي يستخدمه، ومثلما يتأمل الفيلسوف في الفلسفة، ومثلما ينتقد العالم تصورات العلم، يفكر الفنان في فنه والكاتب في كتابته.

تمثل الكتابة، في الوقت نفسه، استكشاف المحسوس والتعبير عنه، وطرح الأشكال الأدبية على بساط البحث من جديد. لكي يخلق الكاتب العالم المنسجم مع رؤيته فإنه يبحث عن أشكال جديدة. الخبرة الجديدة لاتوضع في دنان عتيقة، وهكذا فإن صيرورة الأدب تتميز بتدمير الأشكال الجامدة المتحجرة المرتبطة بمناهج بالية مهجورة وهذا التدمير يقود إلى تطوير أشكال قادرة على التعبير كل مرة عن رؤية جديدة للواقع.

لاتشد أعمال يونسكو عن هذه القاعدة وهنا تكمن أصالته وقيمه.

التحليل التطوري اللغوي للمسرح يكشف هذه الحركة المزدوجة، السلبية، والإيجابية: رفض القواعد والأشكال التقليدية، تأكيد رؤية شخصية جديدة للعالم من خلال لغة جديدة وتقنية أصيلة مبتكرة.

لقد ولدت منذ زمن ليس بالقصير...

ولم أتوصل بعد إلى فهم ما حصل لي،

وقد بقي لي قليل من الوقت لأفهم مالم أفهمه حتى الآن. وأعتقد أنني لن أبلغ ذلك المسعى (يومييات في فتات).

١ - من التجربة الحية إلى دنيا الوهم.

يعتبر العالم الخيالي للكاتب عن "وجوده في العالم". الصور والوجوه التي تصدر عن الأحلام تنقل حالات عاطفية، في مسرح يونسكو، تسمح الثوابت، والإعدادات، والعلاقات المتبادلة بتحديد هذا العالم الوهمي. تجسد الشخصيات، تحت مختلف الأنظمة، بعض الوجوه الأسطورية وتشكل الصور حزمة من الخطوط وتألّف لمنظر داخلي؛ كما يكشف بيئة الحوارات وثوابت النحو حيوية الفكر؛ وتعترف الديكورات والإكسسوارات بوجود تصورات خادعة من أحلام وهلوسات؛ العناصر الدرامية كلها توضع في خدمة بحث الكاتب واستكشافه لخفايا النفس البشرية كل مسرحية إذن هي "تحليل ذاتي".

"حالتان أساسيتان من الوعي تشكلان أساس جميع مسرحياتي: أحياناً تتفوق حالة على الأخرى، وتارة يمتزجان. هاتان الحالتان الأصليتان من الوعي هما حالتا الخفة والثقالة؛ الفراغ والحضور الزائد، الشفافية غير الواقعية للعالم وقتامته، النور والظلمات الكثيفة"^(١٩). عالم يونسكو الخيالي يعبر إذن عن مسألة وجودية مزدوجة: الألم من الوجود والدهشة من الوجود. إنه عالم مربع ورائع في أن معاً.

عالم مخيف.

"إننا نعيش كابوساً مخيفاً" كما قال بيرانجيه للصحفي في مسرحية "الماشى في الهواء" ولكي يكون الأدب على مستوى الحياة يجب أن يكون ألف مرة أشد هولاً وأكثر شراسة". إدراك مرور الزمن وتسلط فكرة الموت وحسد السقوط والخطأ تجعل من "الحياة في العالم" جحيماً. "في داخلي يوجد الجحيم". يضيف هذا الإنتطباع ملامح الكابوس على مسرح يونسكو.

مشاهد من الجحيم.

غالباً ما يكون الجو المسرحي "الديكور" مكاناً مغلقاً: فخاً أو سجنًا، الشخصيات محاصرة فيه. العجوزان في مسرحية الكراسي في برجهما على الجزيرة، أميديه في شقته الموصدة الأبواب دوماً، المستأجر الجديد وسط أثاثه،

^(١٩) أنا ومسرحياتي ١٩٥٤ (في ملاحظت وملاحظات مضادة).

جان في البيت الذي يغوص أو في النزل المريح. مكان مغلق، قبر. الخوف يطفو ويبرز. قالت ماري-مادلين: "يظن أن هذا البيت قبر، لماذا يضع نفسه في مثل هذه الحالة؟ كل البيوت قبور". من ديكور إلى آخر نجد الجدران التي تعشعش في أحلام يونسكو والتي تحدث عنها في "اليوميات"^(٢٠): جدار من الوحدة، جدار من اللآلئ، جدار من البكاء، جدار يمنع معرفة المكان، معرفة الآخرين، معرفة الإنسان لنفسه، جدار يثور المرء عليه، يضربه بقبضته، ينطحه برأسه، لكن دون جدوى".

"كلما ابتعد المرء كلما غاص أكثر" كما كانت تقول ماري، صاحبة المزرعة في لاشابيل اننوينز^(٢١). عالم يونسكو هو عالم التفهق والانزلاق إلى الأعماق: في غرفة جاك كما في قصر بيرانجيه يتداعى كل شيء: الأثاث الأعرج، السلام المتخلخلة، الجدران المتداعية. كل شيء ينهار. الشقوق والصدوع تنتشر في كل مكان، فراغات في الذاكرة، هاويات في الزمن، حفر هائلة تبتلع مملكة الملك العجوز. "شوارع كاملة، مدن كاملة، حضارات كاملة تم ابتلاعها"^(٢٢).

هذا الغوص إلى الأعماق يمثل بالنسبة للشخصيات "نزولاً إلى الجحيم". لقد استحال جاك بعد امتثاله لرغباته إلى معيار ونموذج. شوبير يغوص، ينزل درجة درجة عائداً إلى ماضيه، بيرانجيه يركع تحت سكين القاتل، جان يتوارى خلف الزهد وإنكار الذات. لقد وجد المنهج الأخلاقي أو النفسي تجسيدا له في اللعبة المسرحية: صور حركية، قليلة حقاً، لكنها معبرة، تترجم الخطأ والذنب، والسقوط والندم.

وراء المكان المسرحي، وراء بوابة السجن والنوافذ الدائرية الصغيرة في البرج، أو الشقوق في القصر، ماهي أشكال وألوان العالم؟ في ذكريات شوبير أو جاك، في أحلام أميديه ومادلين وجوزفين، في وصف ما وراء العالم، تسيطر صور الغروب، صور الليل الذي تملؤه البروق والحرائق، خليط من جليد ونار: "أشواك من نار! نيران مدبية، نيران من جليد.... إنهم يغرزون دبابس من نار في لحمي"^(٢٣). في مسرحية "الملك يموت" "الأحواض تتوهج" وفي قاتل بلا أجر هناك "أزهار من نار، أشجار مشتعلة": "رأيت قارات كاملة، جنات من نار" كما

^(٢٠) انظر يوميات في فترات ص ١١٠-١٢٧-١٩٦-٢١٢-٢٤٠.

^(٢١) ربيع ١٩٣٩ ص ١٧٧.

^(٢٢) السطح والجوع.

^(٢٣) أميديه.

قال الماشي في الهواء. منذ مسرحية المغنية الصلعاء يظهر رجل الإطفاء، وتعلم مدام سميث "رجل الإطفاء هو كاهن يستمع إلى الاعتراف أيضاً".

في نور شمس سوداء ينبثق منظر جامد: هضبة جرداء تحيطها الجبال العارية مثل الأسوار؛ دروب وعرة ملأى بالحجارة السير فيها عذاب أليم: "تشبث بالصخور، أنزل، أتعلق بالأشواك، أزحف على أربع... أه! لا أحتمل المرتفعات... لماذا يتحتم علي أن أتسلق الجبال باستمرار؟"^(٢٤). في مكان آخر هناك بحيرة شاطئية أسنت مياهها وامتألت بوحل المستنقعات العفن. وفي مكان آخر أيضاً "الأرض تنشق... الجبال تميد، محيطات من الدم... من الطين. من الدم. من الطين..."^(٢٥). في كل مكان نجد الأشواك والنباتات الملتفة والأغصان التي تجرح الوجه. ذئاب، ضفادع، أفاعي، بنادق، رشاشات، حراب وسكاكين، عصافير ميتة، أطفال موتى، أرتال من المعذبين والشهداء، رجال ذوو وجوه مربعة ورؤوس أوز وكركدن. من مسرحية إلى أخرى، تجد هذه المواضيع الملحة، وهي السند الخيالي لذلك الطابع "المخيف" للعالم.

وجوه أسطورية

تسيطر على هذا الكابوس صورتان. تتخذ الصورة الأولى أسماء: مدام سميث، جاكين، روبرتا، مادلين، جوزفين، مرغريت، ماري-مادلين، أو بكل بساطة "هي" الأم، الزوجة، الأخت، الحبيبة، الخادمة، الملكة، "التي تفعل كل شيء". إنها المرأة، الغواية، مصيدة الجحيم.

أما وقد التفتت نحو الظلام وشدها الليل فإنها ترشد شوبير: "إلى الأسفل، إلى أسفل. إلى أسفل [...] لاتنهض يا حبيبي [...] انزل، انزل يا حبيبي [...] توغل في الظلمات أكثر يا حبيبي [...] هيا، انزل... إلى أسفل، إلى أسفل دائماً...". يصبح صوتها شجياً ونداؤها نداء الرغبة، فالغوص غواية وإغراء: "انزل... انزل... إذا كنت تريدني!" وعلى ترنيمة روبرتا يهيم نداء الجنس "لدي ماء في ثغري. إنني أغوص..." عني بيت من فخار وطرادة دائمة... هناك زبد وذبابات ضخمة وصراير وبق وطفاد. تحت أغشية ندية نمارس الحب... نمثل السعادة! ألفك بذراعي مثل أفعى، بساقي اللدنيتين. توغل وتغوب" صور ساحرة كريهة لمذات جسدية هي المسكن وهي القبر.

^(٢٤) ضحايا الوجل.

^(٢٥) الماشي في الهواء.

تمثل المرأة أيضاً الوفاء للماضي. جوزفين وماري-مادلين تلغيان الحاضر، توقفان الزمن. جان مدفوع رغماً عنه: "أنت تأخذيني بيدي بينما أحلم بما لا أدري، تسأليني أن أحضر فأجيب نعم، وفكري شاردي في مكان آخر. تحضريني إلى هذا المكان وتجعليني أستقر في هذا البيت، تجعلينا نستقر بينما خيالي شاردي. فجأة، عندما أثوب إلى رشدي أدرك أنني هنا حيث قررت أن تأتي بي، إلى نفس المكان الذي كانت كوابيسي قد حذرتني من العودة إليه". المشاعر الفاترة، العادات، اللياقات، "ما يحدث وما لا يحدث"، الحب المحاصر، تؤلف عالم المرأة الساكن.

سلام وحلاوة. استسلام، قبول بجميع الحدود وخاصة الموت: "لا تحاول أن تطير عالياً جداً" كما قالت جوزفين. لقد سلبت مرغريت الأمل من الملك: "الحالم ينسحب من حلمه" وماري-مادلين تتحدث عن الخضوع "سريعاً أو بطيئاً، ما أهمية ذلك؟ ساعة أو عشر دقائق، عام أو أسبوعان، ماذا يهم؟ سنصل إلى النهاية على كل حال"

المرأة ربة منزل لا تكل. تنكس، تفسح الغبار وبيوت العنكبوت، ترتب، تصف فناجين القهوة، تحب النظام. "النظام: إنه مرتبط بلوائح القانون الذي لا غنى عنه، القانون المفيد". وقد بينت مادلين لشوبير أن القانون يخلق المواطنين الصالحين والضمان الصافية، على هذه الأسس يخدم القانون مخططات الأسرة (روبرتاً) والموت (مرغريت) وتساعد مادلين المفتش وعندما يضع الاستجواب شوبير في مواجهة الخطر تظمن إلى أن ما تفعله قانوني، بل إنها تحل محل الشرطي.

إلى جوار "الأم-الزوجة" الوجه الأسطوري الآخر في هذا العالم المخيف هو وجه "الأب". في الحقيقة لا يظهر الأب سوى مرة واحدة كشخص محدّد: ذلك في مسرحية الأمتال حيث يلعب دوراً ثانوياً جداً. لكنه يلوح تحت قناع الشرطي، الراهب-الجلّد، الطبيب-عالم الفلك، المهندس، قائد الشرطة، المحلل النفسي، المدرّس، الحارس، المحقّق، وهذه كلها وجوه للسلطة الظالمة القمعية. التوافق بين هذه الشخصيات على المستوى النموذجي ملموس في مسرحيتي "الملك يموت" و "العطش والجوع" كما أن هذا التوافق واضح جليّ في تحولات "صحايا الواجب".

"الأب" حب كبير ممزّق: "لقد جعلتني أتصالح مع الإنسانية، لقد ربطتني مع التاريخ برباط لا فكاك منه [...] لقد أحسنت صنعا بإنكاري، من حقك أن تحمر

خجلاً مني، استمّ ذاكرتي، أنا لا أحقد عليك، ما عدتُ قادراً على الكراهية..."
لكن الأب يمثل قوة قمعية في أغلب الأحيان.

الإستجواب قاس في ضحايا الواجب ويصبح "قضية" مسرحية العطش والجوع. لقد نال الأخ تاراباس الإرتداد عن المبدأ ولم يكتف بمجرد الاعتراف. المرأة تطالب بالاستسلام والمحقق يجبر الفرد على الإنكار والوجود.

مع ذلك فإن هذا الأب - الشرطي القمعي ما هو سوى مؤتمن على سلطة تتجاوزهُ. يمكن أن يكون هو نفسه متقلباً، متلعثماً (المدرّس، الشرطي) تتبع ثقته من السلطة التي يتمتع بها. المدرّس يحتفل: إنه ينصرف إلى طقوس الدكتوراه العامة" ويشعر الشرطي أنه "جندي ملتزم بالطاعة" ويقرأ الأخ تاراباس عذاب المهرجين ومصير جان على وجه الأخ الأكبر. للسلطة مقامها في "مديرية الأمن" المكان للحصين. السلطة كيان مستقلّ إنها تسمّى: القانون، الواجب، الاجتماعي، المعرفة، الأخلاق، الإيديولوجيات...

لا بد من طرح السؤال حول طبيعة هذه القوة المطلقة التي يخضع لها الجميع ضحايا وجلّادون. الدكتوراه العامة، الإمبراطور، قائد الشرطة، الأخ الرئيس... مَنْ هو "السيد"؟ في المسرحية التي تحمل هذا العنوان السيد هو "الرجل دون رأس". هل ستكون السلطة التنتة السامة هي الفراغ؟

وهل سيكون الوعد الأوحدهو العدم؟ وهل الغياب هو الرسالة التي ينقلها المطلق؟ إن ما يطلبه الحارس في "الملك يموت" هو العدم الكبير.

عالم رائع.

ليست الوحشية الانطباع الوحيد عن الحياة. العالم رائع أيضاً. يقول الماشي في الهواء: "لايستطيع الأدب أن يعرض سوى صورة باهتة جداً، مُصغرة جداً للوحشية الحقيقية وللواقع الرائع أيضاً". الحياة المشرقة، الغرابة التي تنبثق تحت خطواتنا، الدهشة من الوجود تظهر بجلاء في العالم الخيالي ليونسكو.

صور خرافية.

مقابل صعوبة الحياة المتمثلة في الثقالة والسقوط ينتصب فرح الحياة الذي تترجمه الخفة والطيران. يتم التعبير عن غبطة الشخصيات بحركة ارتقاء، وبلم إيكار المتجدّد. بعد هبوط شوبير إلى المتاهة يصعد من جديد في نور أبهى من

الشمس، يتسلق الجبل، يغدو خفيفاً، ويشعر بالقدرة على الطيران؛ وإذا ما سقط وارتدى. أخيراً في سلة الأوراق فإن اميديه يطير على جناح حلمه: "في أقدامنا أجنحة.. أرجلنا أجنحة... أكتافنا أجنحة... لقد تمّ التخلص من النقل..". الماشي في الهواء يفسّر الأمر: "الطيران حاجة لا يمكن للإنسان الإستغناء عنها" وهي عمل من أعمال الإيمان، والارتقاء الذاتي هو^(١٦) تعبير عن الفرح. على شرفة معلقة بين السماء والأرض كان جان على موعد مع السعادة.

عالم النعمة هو مجال أنيري، إنه شرفات معلقة، معابر، جسر فضي، إنه السماء على رحابتها. النور يغمر حدائق المدينة المشعة، سُلّم جنات عدن، إنه ينير وقد تضاعف مرات كثيرة: هناك شمسان، ثلاث سماوات في مسرحية الملك يموت، أربع شمس في العطش والجوع. السماء زرقاء زرقاء غير حقيقية، الهواء أكثر خفة، أكثر نقاوة، يمكن شربه مثل مياه شفافة: في الليل، يبدل ضوء القمر شكل الحدائق. قال اميديه: "انظري يامادلين جميع أشجار الأكاسيا تلمع. أزهارها تتفتح، إنها ترتفع نحو الأعلى. لقد تفتّح القمر وسط السماء وأصبح كوكباً حياً. طريق المجرة من حليب فوار. عسل، نجوم كثيرة، شعور طويلة، طرقات في السماء، سواقي من الفضة السائلة، أنهار، مستنقعات، بحيرات، محيطات وكلها من النور الملموس..."

في هذا العالم من الشفافية والنور لم تعد البيوت المصنوعة من زجاج سجوناً، الجدران لا مرئية، الطبيعة تزهو في ربيع دائم: هناك وديان، حدائق مسحورة، نوافير، شلالات مياه، مهاد من ورود وزنابق. هناك "كنائس هي حمامم"، وهناك أجراس، رقرفة ينابيع، أناشيد، حلقات رقص... تُولف هذه الصور عالم اميديه أو بيرانجيه. إنها سراب ولا شك لكن المشاهد اليومية هي أيضاً مشاهد "مذهلة خلابة" لمن يعرف النظر، يكتشف اميديه، وقد اعتزل خمسة عشر عاماً، الساحة الصغيرة، ويسأل الملك جوليت: "هل لاحظت أنك كنت تستيقظين كل صباح؟ الاستيقاظ كل صباح... يولد المرء في العالم كل صباح".

صورة حلم

في هذا العالم من الاندهاش يشرق وجه الحبيبة: داني، ديزي، ماري. الأمل في الحب يحرر من الخوف والألم، بل يشفي من الموت. يقول اميديه: "الحب

^(١٦) levitation : رفع الجسم بقوة الإرادة وحدها.

ينظّم كل شيء، إنه يغيّر الحياة". لو عرف اميديه ومادلين كيف يتبادلان الحب لما بقي اللثة أية قيمة. لقد استعاد بيرانجيه الرغبة في الحياة" بفضل ديزي: "إنك تخلصيني من عقدي [...] معك لن يبقى لدي أية مخاوف" لو عرف الإنسان الحب لا استطاع أن يموت دون أسي، أن يموت بسلام" كما يقول الماشي في الهواء. لقد شرحت ماري للملك: "الحب مجنون. إذا عرفت الحب المجنون، إذا أحببت بانديفاع، إذا أحببت حباً مطلقاً فإن الموت يهرب. إذا أحببتني، إذا أحببت كل شيء فإن الخوف يتلاشى. الحب يحملك، وأنت تترك نفسك فيتركك الخوف. العالم وحدة تامة، وكل شيء يُبعث من جديد والفراغ يصبح امتلاء".

لكن أمل ماري لاجدوى منه إذ أن الحب يسقط أمام صعوبات وقسوة الحياة. داني ضحية القاتل، ومادلين الثانية لم تعرف السعادة وديزي تتخلى عن بيرانجيه لتلحق بالخراتيت. ماري تعاني من قهر مرغريت. لقد تساءل يونسكو عن أسباب هذا الفشل. إنه يتساءل في "مذكرات في فتات" إن لم يكن ما ندعوه حباً هو في أغلب الأحيان غيرة أو مجرد رغبة في امتلاك الآخر. كما لو كان شيئاً. الحب الحقيقي عطاء: "الحب. هذا يعني أن تترك نفسك تحب. هو الموافقة على أن تكون ملكاً للآخر، هو إنكار الذات، هو قبول أن يتصرف بك الآخر قليلاً أم كثيراً؟. يظن يونسكو، ربما لأن الغرب يجهل هذا التنازل، أن الحب المطلق، "الحب المجنون" لا وجود له.

في النهاية، هل الحبيبة شيء آخر سوى الإنتظار والحلم؟ في العطش والجوع لم تأتِ إلى الموعد. وجودها الوحيد كان فقط استدعاء وتساولات جان: "هل تصعد الدرجات؟ هل أسمع وقع خطواتنا؟ أم أن ذلك ليس سوى خيال الخيال؟ أم أنه سوى ورقة؟ أم هي الريح؟ أم ارتعاشة الرغبة؟ أم أنه ليس سوى لهات ألمي؟".

وجدان ممزق.

بين هاتين التجريبتين تنقسم الشخصية الأساسية وتونس: جاك، شوبير، اميديه، بيرانجيه، جان... إنها تشعر أن الحياة رهيبة ورائعة في آن واحد.

هذه الشخصية، وقد توزعت بين الرغبات والأمال، تنمرّد على الرتبة والعار والخوف... يجسد جاك تمرّد المراهقة: "عندما ولدت، لم أكن بعيداً عن الرابعة عشرة من عمري... والطفل الذي تحدثت عنه سمير اميس ثار في وجه الشر: "أنتم تقتلون العصافير! لماذا تقتلون العصافير...".

لقد تنوّق شوبير لحظات من الغبطة أمّا اميديه وبيرانجيه فقد عرفا الحب المجنون، ومضى جان بحثاً عن المطلق، وانطلق الطفل "صافقاً خلفه الباب". طار اميديه وبيرانجيه وفرّ جان، على أطراف أصابعه" كما يحدث في لعبة الإستخفاء. لكن التمرد الفردي لا ثمرة له. جان يعترف بخضوعه، وشوبير يسقط في السلّة، والماشي في الهواء ينزل مرعوباً، وبيرانجيه يستسلم للقاتل، ويستسلم الملك لمرعريت، وجان يخضع لسلطة الأخ تاراباس ولم يعد يفكر إلا بماري-مادلين ومارتا. اميديه هو الوحيد الذي مضى بسرعة ولم يرجع، لكنه لم يفعل ذلك قصداً: "ماكنت أريد أن أهرب من واجباتي... إنها الريح؛ أمّا أنا من أردت ذلك! لم يحدث ذلك قصداً!... لم أقبل ذلك براءة حرة...".

من هذا المنظور، يظهر أن الأمكنة والمناظر التي يُوحى بها، حتى الأشخاص أنفسهم (على الأقل أولئك الذين يجسّدون التصورات الخادعة الملحاحة)، ليس لها وجود خاص بها. إنها تعكس أفكار وغرائز ووساوس الشخصية الرئيسية. هذه العلاقة مع العالم واضحة بشكل خاص في مسرحية "الملك يموت". ظهور الأشياء والأشخاص على المسرح ما هو سوى إدراك بيرانجيه لها، وتختفي الأشياء والكائنات حالما لا يعود الملك يراها أو يفكر بها، فهي ليست سوى انعكاس لعالم داخلي.

الشخصية الرئيسية هي إذن المحرق الذي تلتقي فيه جميع الأشعة. تمردها، سعادتها، فشلها، إحساسها، تتوضّع في عالم الخيال الذي يحيط بها. العرض الذي تقدّمه كل مسرحية هو إذن تساؤل الكاتب عن نفسه، هو استكشاف لأغوار النفس. إنه تساؤل أيضاً عن الآخرين إذ أن يونسكو الممزّق بين ذكرى فردوس مفقود إلى الأبد وبين الأمل في أرض موعودة لم تطأها قدم قط، يدرك أنه يجد من جديد إحساساً عالمياً: "عندما أعبر عن وساوسي الكبرى فإنما أعبر عن أعماق إنسانيّتي، إنني ألتقي عفويّاً بكل الناس فيما وراء جميع حواجز الطبقات الشعبية والنفسيات المختلفة. إنني أعبر عن وحدتي وألتقي بجميع المتوحدين، فرحي في الحياة ودهشتي من الوجود مشتركان بين جميع الناس"^(٢٧).

الأسئلة التي طرحها الكاتب على نفسه، والأجوبة التي أعطاها لم تأخذ أبداً شكل المفاهيم: "هذه الأسئلة وتلك الأجوبة هي أشخاص مسرحية"^(٢٨). ليس المسرح برهنة وإثباتاً لكنه مسرحية، فما العمل كي تصبح البيئات ذات مغزى؟..

^(٢٧) مقال عن الطليعة.

^(٢٨) المؤلف ومشاكله.

يتساءل الكاتب عن الأشكال ويحدّد منه المسرحي.

٢ - مسرح ضد المسرح:

مجدالات:

لكي يستكشف الواقع ويعبر عن العالم الذي يعيش فيه، لم يجد يونسكو في مسرح ما بعد الحرب أشكالاً ملائمة تفي بالمرام. لم يشعر بميل إلى المسرح: "كنت أقرأ مؤلفات أدبية ودراسات. كنت أذهب إلى السينما برغبة وكنت أستمع من وقت لآخر للموسيقى. كنت أتردد على المعارض الفنية، لكنني لم أذهب إلى المسرح أبداً [...] لم أكن أشعر فيه بأية متعة، ولم أشارك فيه"^(٢٩). تعتبر مسرحية: "المغنية الصلعاء"، بطابعها الساخر إعلان حرب على مسرح الأربعينات.

لقد ذهب يونسكو أبعد من ذلك: بدا له أن الكلاسيكيين ضعفاء سقماء: موليير لا يعنيه، بحكاياته عن البخلاء والمنافقين والمخدوعين، كورناي، بكل صراحة، يستمني، ربما لا نحبه (دون أن نؤمن به)، إلا من قبيل العادة [...] شيلر لا يطاق. مسرحيات ماريفو تافهة، كوميديات موسيه هزيلة، مسرحيات فيني غير صالحة للتمثيل. المآسي الدامية التي كتبها فيكتور هيجو تضحكنا حتى القهقهات. مهما قيل عن لابيخ، هناك صعوبة في أن يضحك المرء من مسرحياته الكوميديّة. دumas الابن ذو نزعة عاطفية مضحكة في "عادة الكاميليا". والآخرون! أوسكار وايلد؟ سهل. أبسن؟ ثقيل الظل. سترندبرغ؟ أخرق [...] جيروود ولا يصل إلى الجمهور وكذلك مسرح كوكتو يبدو لنا سطحياً مزيفاً [...] بيراندلو تمّ تجاوزه....^(٣٠) يبقى إذن اسخيلوس وسوفوكليس وشكسبير وبعض المسرحيين الآخرين أصحاب التأثير على الجمهور. "عبر القرون هناك عشرون كاتباً مسرحياً... ثلاثون في أحسن تقدير". هذا يدعو للاطمئنان!

لم يتوقف يونسكو عند حدود هذا التجريح. إنه يبدي اعتراضاته ويبرر لعناته. يأخذ أولاً على المسرحيين نزوعهم البالي لتغليب وجهة النظر النفسية

^(٢٩) تجربة المسرح.

^(٣٠) تجربة المسرح.

على ما عداها. لقد بُنيت الشخصيات الكلاسيكية على أسس ليس لها أية قيمة علمية: نظرية الأوهام، تضيف الرذائل والفضائل كما فعل مولير أو راسين تم على أساس تبسيطي من وجهة التحليل النفسي. بيراندلو. الذي اعتمد على مفهوم الشخصية المفتتة، عبّر بطريقة غامضة وريئة عما أوضحه العلم بشكل أفضل. لم يكن خطأ المسرح في محاولته الشرح والتوضيح، فليس في الإمكان إلا أن يكون مقتضباً في شروحاته إذ سرعان ما تسبقه تطورات علم النفس.

يدين يونسكو من ناحية أخرى فكرة العقدة لأنها ستخضع حتماً إلى قوالب جامدة، كما أن قصص الحب التي تحتوي معاكسة أو خيانة، والتي تنطوي على تعقيدات، وإشكالات، وعلى تبادل في المواقف والأدوار، وعلى مفاجآت مسرحية، إنما تؤلف على الدوام، المخطط ذاته، ولا يمكن لها أن تأخذ منحى آخر، ذلك أن جميع العناصر في إطار الحب، من أجل أن تبدو مقبولة يجب أن تخضع إلى نهج موصوف بالمعقولة والمنطق مطابقة للواقع. وعلى العموم فإن العقدة تعبر دائماً عن حلّ اللغز ولذلك استنتج شوبير أن المسرح كان دائماً وأبداً مسرحاً بوليسياً منذ سوفوكليس حتى مسرح البولفار مروراً بأعاجيب القرون الوسطى وتراجيديات القرن السابع عشر، "وهي مسرح بوليسي راق". لكن في هذا العام الذي تسيطر عليه قوى غير منطقية، تبدو العقدة مزيفة وتفقد مغزاها كله.

يهاجم يونسكو "الواقعية" بشكل عام لأنها تقضي في تحليلها للشخصيات إلى دراسة نفسية سطحية وتحرم الإنسان من بعده الأساسي وهو العمق. العقدة الواقعية تبقى على سطح الأشياء ولا تصل أبداً إلى ديناميكية الواقع الحقيقية. إن التمثيل "الطبيعي" لدى الممثلين "عش فاضح"، إنه يدمر الوهم ويعيق الحلم الذي يمدّ الواقع إلى ما فوق الواقع. الديكور الواقعي ليس، في أفضل الحالات، سوى رسم خداع يعطي وهم الحقيقة. ثم يضيف يونسكو أنه إذا ما نظرنا إلى الواقعية بهذا الشكل ستكون واقعية متخلفة، تخنق الخيال وهو وحده القادر على سبر المجهول. إنها لا تكتشف شيئاً وتخسر الواقع في نهاية المطاف. الأشكال المستخدمة ماهي إلا اتفاق مع تقليد وتقليد بأعراف لا يؤمن بها أحد. إنها تنهض على فواعد وعلى نظام من القيم، وعلى رؤية عن العالم صارت قديمة بالية،...، يفقد بها المسرح كل أهميته وكل معناه.

هذه الواقعية التحتية تدفع الأدب ليغدو مجرد توضيح للفكر العلمي أو الفلسفي أو السياسي. ينطلق الكاتب من مذهب، والعمل الأدبي يؤكد، يوضح،

ليُشرح. إنه يستخدم الدراسات النظرية استخداماً مزدوجاً، وفي ذلك خرابه، "بدلاً من الذهاب لمشاهدة التجسيد المسرحي لهذه السياسة أو تلك أفضلُ قراءة جريدتي اليومية أو الاستماع لأحاديث مرشحي الحزب الذي أنتمي إليه"^(٢١).

"ليس المسرح لغة الأفكار، عندما يقبل أن يكون مطبوعة للأيديولوجيات لابد أن يبسطها. إنه يسهلها بشكل خطير، يجعلها أولية، يحط من قدرها. يصبح المسرح ساذجاً، لكن بالمعنى الرديء للسذاجة؛ وكل مسرح إيديولوجي مُعرض لخطر التحول إلى مسرح للتوجيه"^(٢٢). ضمن هذه الحدود لا يكون الكاتب أكثر من مربّب، أو أسوأ من ذلك، يكون غوغائياً إذ يخدم الأيديولوجيات المنتصرة، وتحت شعارات الثورة، والتمرد يخفي تبعية لا خطر منها. "المسرح ذو الرسالة"، كما يخيل ليونسكو، هو الشكل الأكثر تعبيراً عن هذا الموقف الديماغوجي. إنه يدينه في مناظراته مع كينث تينان، وفي مقالاته ضد أوزبورن وميلر وسارتر، وفي الاتهامات التي كرّرها مراراً لبريخت؛ وفي الأفكار والتهكمات والكاريكاتور التي رأيناها في مسرحيات: "ضحايًا الواجب"، و"مسرحية الماء"، "الماشية في الهواء"، "العطش والجوع".

هذا الهجوم الذي شنّه يونسكو، العنيف غالباً، الظالم أحياناً، المتناقض قصداً، يوضّح مايرفضه في المسرح، ويحدد الأشكال التي يودّ تدميرها، إنه الوجه الآخر لفنّه المسرحي.

فنٌ سحري:

المقالات التي جُمعت في كتاب "ملاحظات وملاحظات مضادة"- وخصوصاً "تجربة المسرح"، مقال عن الطليعة"، "حديث عن مسرحي"، "المؤلف ومشاكله"- ومحاوراته مع كلود بونفوا، وكتاب "اكتشافات" والهجاء الذي ورد وفي مسرحية الماء، والأفكار المتناثرة في مسرحياته، مثل أفكار شوبير ونيكولا دو، وأميديه، وبيرانجييه؛ ذلك كلّهُ يوضّح تصوّر يونسكو عن المسرح؛ ومن تطبيق تلك الأفكار يستمد مبادئ "نموذجه الداخلي".

إن عناوين المسرحيات هي تكثيف لها. عمل بها يونسكو لكنه أعاد تحديد مفاهيمه، "مسرحه الطليعي" رجع إلى التراث، "مسرحه المضاد" أراد أن يكون

^(٢١) تجربة المسرح.

^(٢٢) تجربة المسرح.

كلاسيكياً، و"مسرحه في اللامعقول"، له بُعد انطولوجي.

"المسرح فنّ من أقدم الفنون"^(٣٣) إنّه في الأصل مثل جميع الفنون الأخرى، احتفال ديني وممارسة للسحر والتحاويز. تقديم الأساطير يلغي الزمن، والمشاركون في الاحتفال ينفذون الفعل الافتتاحي لنشأة الكون والوجود، أمّا الأساطير الجديدة التي يفرزها كل عصر وكل ثقافة فإنّها تستعيد بنية النماذج الأولى الثابتة. المواقف المتعارضة التي تنشّط اللاوعي لدى الأفراد. والتحويلات العميقة في النفس البشرية لا تظهر إلى النور إلّا تحت صورة حكاية أسطورية. المسرح هو مكان "التجلي". إنّه ميتافيزيقي وانطولوجي، ليس له معنى إذا لم يؤثّر، إذا لم يُقلّق. لكي يوقظ الجمهور الغارق في السلبية، يجب على المسرح المضاد أن يكون تحدياً، وفضيحة ودماراً لمسرح التسلّيات؛ ومن هنا يستطيع العثور على رسالته الأولى.

المسرح هو مجال الخيال والحلم. الذكاء أسير المفاهيم، إنّه يدمج المنطق وتسلسل الأحداث. الفكر - الحلم - وحده قادر على إيجاد روابط حقيقية وديمومة حقيقية، وهو الوحيد القادر على مساءلة الواقع وكشف معانيه؛ هو وحده يستطيع أن يردّ إلى المسرح سلطاته المفقودة.

يصوّر الكاتب المسرحي الوضع الإنساني في استمراريته: "كان الناس يموتون من الحب منذ مائة عام، وكانوا يموتون أيضاً خوفاً من الموت، كما يحدث اليوم"^(٣٤). لكن كل عصر يعطي للمشاعر، للمخاوف، للهوسات، أشكالاً نوعية محدّدة؛ والكاتب المسرحي "ملتزم" بالضرورة بعصره، وعليه أن يعبر عن خلاله عن حالة "خارجة عن الزمان" يتعذّر وصفها. المسرح ليس من زمنه إلّا بشرط أن يكون غير مرتبط بالزمن الحاضر. وإذا ما أراد بكل بساطة، "أن يكون من زمنه فمعنى ذلك أنه قد تمّ تجاوزه"^(٣٥).

ليس المسرح، لا راهناً، ولا معزولاً عن الزمان، إنما هو في التاريخ، ويتجاوز التاريخ. "في نهاية المطاف، أنا لا أخشى أبداً من التأكيد أن الفن الحقيقي الذي يسمونه فن الطليعة، أو الفن الثوري هو الفن الذي يقدّم نفسه على أنّه فن غير مرتبط بالحاضر من خلال تصديده الشجاع لعصره. أمّا وقد كشف هذا الفن عن عدم ارتباطه بالحاضر فإنه يعود إلى ذلك الرصيد العالمي المشترك

(٣٣) تجربة المسرح.

(٣٤) "محاورات" في كتاب "ملاحظات وملاحظات مضادة".

(٣٥) مقال عن الطليعة.

الذي تحدثنا عنه، وباكتسابه الصبغة العالمية يمكن اعتباره كلاسيكياً، ومن المعروف أن الصفة الكلاسيكية يجب أن تكون خارج حدود الجديد، ومن خلال الجديد الذي يجب أن تكون مشبعة به^(٣٦).

يستعير العمل الأدبي مواد من الواقع لكنه يستمد قيمته ومغزاه من ترابطها والتحامها. "العمل الأدبي ذو تنظيم عضوي، أقصد أنه جهاز عضوي، بحسب هذه النظرية، يكون العمل حقيقياً، ويمتزج الفن بالحقيقة"، كما كتب يونسكو في مقالة "المؤلف ومشاكله". في المسرح، هذه البنية هي التابع الديناميكي للصور المسرحية. بنية لا تعسف فيها لأنها تخضع إلى قوانين الحياة نفسها. يجد الكاتب للعمل المسرحي في ذاته نفسها الصور والرسوم الخيالية الدائمة العميقة^(٣٧) للعمل المسرحي.

إن منحني المسرحية البسيط والحاسم يتشكل عند يونسكو من التجربة المزدوجة للغبطة ولصعوبة الوجود للارتقاء والسقوط. يتبع تسلسل الصور المسيرة المأساوية، أو يتبع الحركة المضحكة لميكانيكية غير منتظمة. إن حدة الأفعال تعطي للتمثيلية توتراً لا يُحتمل أحياناً. وإن الاستخدام العلمي لهذه الوسائل يحقق للمسرح بنيته الراسخة وسحره.

بما أن المسرح تعبير عن الحياة، يجب عليه، كما يرى يونسكو، أن يمزج مختلف الألوان: "لم أفهم أبداً الفرق الذي يورده الناس بين المأساوي والمضحك"^(٣٨).

لكن، رصف الألوان إلى جانب بعضها البعض، لا يكفي في نظره. لا يتم التعبير عن العالم، بربط العقدة المؤثرة مع المشاهد الهزلية، الأبطال النبلاء مع الأقنعة الغريبة، من دون خلطها، هذا ما فعلته الدراما الرومانتيكية، مثلاً. الواقع، هو وحدة كاملة، فمسرحية الفارس، إذا ما وصلت إلى ذروتها تكشف عن المأساة، والحدث اليومي مستهجن، أو خيالي، والطابع الغنائي مخيف. إن عالم القسوة يحتفظ ببعض الزوايا الرقيقة اللطيفة، "والهزلي، باعتباره حدى اللامعقول، يبدو لي باعثاً على اليأس أكثر من "المأساوي". المضحك لا يقدم حلاً. أقول: "مثيراً

^(٣٦) مقال عن الطليعة.

^(٣٧) إذا كان يونسكو يرى في بيراندلو كاتباً تم تجاوزه بسبب معالجته النفسية فإنه من ناحية أخرى معجب بـ "ميكانيكته المسرحية". الغزيرة المسرحية الصافية هي التي ألفت بيراندلو حتى اليوم. (تجربة المسرح). بيراندلو، أسألكنا جميعاً، كما قال.

^(٣٨) تجربة المسرح.

للقنوط" لكنه، في الحقيقة، أبعد أو أقرب من اليأس والأمل^(٣٩).

٣ - نقاط التلاقى:

يحمل "المسرح المضاد" لدى يونسكو بصمات التصورات السريالية ونظريات انتونان ارتو، كما يؤكد، هو نفسه، هذه الرابطة، ويبرز أهمية حركة جذدت صورة العالم واشكال التعبير: "شهدت بداية هذا القرن، حوالي عام ١٩٢٠، على وجه التحديد، وحركة طليعية عالمية عريضة في جميع مجالات الفكر والنشاط الإنساني وقد حدث انقلاب جذري في عاداتنا الفكرية"^(٤٠). لقد كتب عن بروتون بشكل خاص، وقال: "لقد أعاد اختراع الأدب".

الرواد الثلاثة.

تمّ التعبير عن الثورة الفكرية في المسرح بمحاولات أوردها يونسكو في محاولاته مع كلود بونفوا: "... فيليب سوبو، ربما دينو، أو تزارا، أو بيكاسو (الرغبة الممسوكة من الذيل)، أو فيتراك... لكن هناك جاري بشكل خاص".

لقد حطّم جاري، عدو التقاليد، أصنام عالم في مرحلة التفتّخ، آلهة مجتمع جاهز مسرور، لقد أنكر حقيقة الإنسان عندما خلق أوبو؛ صورة ذلك المجتمع المثنجة، تلك الشخصية الكريهة القاسية التي فقدت إنسانيتها خلال محاولاتها الشاقة لأن تكون إنسانية، نموذج الشرارة المادية والمعنوية، ربما تأثرت به وأنا أجعل من أبطالها مسوخاً أو أجعل منها كركنات^(٤١)، كما يقول يونسكو.

طرح جاري من جديد مسألة التقاليد المسرحية من خلال إنكاره للزمان والمكان، ومن خلال آلية سير الأحداث في مسرحية بلا عقدة، والجرأة في استخدام لغة وعرة مفككة، والحماس والعنف، الذي نعتز عليهما عند دُمي مسرح العرائس، ولا واقعية الميلودراما الشعرية والمبتذلة في آن واحد. كتب يونسكو^(٤٢): "المقصود إخفاء بعض الأشياء البشعة علناً ولا يمكن فهمها، تلك الأشياء التي ترحم المنصة دون فائدة، وفي الدرجة الأولى الديكور والممثلين".

^(٣٩) تجربة المسرح.

^(٤٠) مقال عن الطليعة.

^(٤١) محاورات مع كلود بونفوا، ص ١٩٠.

^(٤٢) من لا جدوى المسرح إلى المسرح، ميركور دوفرانس، أيلول، ١٨٩٦. عرضت مسرحية أوبو ملكاً عام ١٨٩٦.

لقد رأى بروتون في مسرحية أبو ملك "المسرحية الكبرى في الأزمنة الحديثة فيها نبوءة ودعوة إلى الانتقام".

بأسلوب مختلف تماماً تجدد "الدراما السريالية"، أثناء تريز ياس "لابولينيير". فضيحة "أبو ملكاً" وتطرح أيضاً مسألة الأشكال الدرامية^(٢٧). يسود في هذه المسرحية دون تطرف، لكن الحركة، ومعالجة اللغة، واستخدام الإيماء وأساليب السيرك^(٢٨) ترسم مسبقاً صورة المسرح المضاد في الخمسينات. تكتسب مقدمة المسرحية، مع فاصل زمني يبلغ أربعين عاماً قيمة بيان عام:

"من العدل أن الكاتب المسرحي [...]"

[....] لن يهتم بعد الآن بالزمان

ولا بالمكان

عالمه هو مسرحيته

وفي داخلها الله الخالق

الذي يتصرف على هواه

الأصوات الحركات الخطوات الأجسام الألوان

ليس هدفها الوحيد

تصوير ماندعوه شريحة من الحياة

إنما العمل على إظهار الحياة نفسها في حقيقتها الشاملة".

"أخيراً فإن مؤلفات فيتراك محاولة للتجديد تثير الاهتمام. في مسرحيته "أسرار الحب"، (١٩٧٧)، ينقل إلى المسرح بدعة الكتابة الآلية، وفي مسرحية "فيكتور" أو الأطفال يستلمون السلطة، يسخر من القيم والأخلاق البرجوازية، لقد قابل الجمهور بفتور عنف هذه المسرحية الساخرة^(٢٩).

لكن نقد فتراك الساخر توقف فجأة بلا نتيجة لأنه هاجم الأفكار ولم يهاجم

^(٢٧) عرضت المسرحية على مسرح موبيل عام ١٩١٧، وفي عام ١٩١٨ قدم أبو لينير مسرحية "لون الزمن".

^(٢٨) إضافة إلى ذلك يبدو أن اهتمام زوج تريز ياس لتجديد السكان، إذ أنجب بإرادة حرة تماماً ٤٩٠٤٩ ولداً، يعلن عن فكرة مسرحية "المستقبل في البيض".

^(٢٩) فيكتور واستير طفلان عملاقان عمرهما تسع سنوات وست سنوات، يكتشفان في محيطهما سطحية وحجارة الباليين، العالم، بضموله وغيبانه، ليس مضحكاً فقط بل هو العار الذي يموت بسببه فيكتور إذ صمغته إسهالات حادة.

طرائق التفكير، لم يطرح على بساط البحث مسألة بنية العقل ولا مسألة الأشكال الدرامية.

منظّر

في الحقيقة يرى يونسكو في جاري، أبو لينير، فيترك شخصيات يلتقي بها. نتعرف في هذه المسرحي على تأثير انتونات ارتو بشكل خاص. ارتو المطبوع بأفكار جاري، المعروف بمشاركته في السريالية الأولى، بتجربته كممثل، كمدبر، كمدبر مسرح، كمؤلف، ارتو هو، قبل كل شيء، منظر جري^(١٧). في عام ١٩٣١، كشفت له فرقة مسرحية من بالي باندونسيا، قدمت عروضها في باريس، عن جوهر المسرح ومهمته الحقيقية. تحدّد مجموعة من المقالات والمنشورات كتبت ما بين (١٩٣٠-١٩٣٦)، وجمعت في كتاب "المسرح وبديله"^(١٨)، تصوّره عن "مسرح القسوة"، وكلمة القسوة مأخوذة هنا "بالمعنى الغنوصي"^(١٩)، لزوجة الحياة التي تلتهم الظلمات.

وجد ارتو القيمة الميتافيزيقية للمسرح في ذلك النموذج البالي (نسبة إلى جزيرة بالي). التمثيلية احتفال سرّي يفرض على المشاركين فيه الاشتراك في وجود فوق إنساني أو لا إنساني: "تحدث لعبة خطيرة في كل عرض [....] إننا نمثّل حياتنا في العرض الذي تجري أحداثه على المنصة [....] الديناميكية الداخلية تهزّ المتفرج وتبدّله؛ كما أن هذه الديناميكية ستكون على علاقة مباشرة مع مخاوف واهتمام حياته كلها".

لإيجاد هذه القوة السحرية لابدّ من الابتعاد عن التقاليد الغربية لمسرح التسلية واستلهم أشكال مستمدة من المسرح الشرقي؛ لابدّ من رفض العقدة

^(١٧) أسس ارتو، بمساعدة فيترك، مسرح الفرد جاري عام ١٩٢٦، وحاول أن يفرض مؤلفين لم يتدوّنهم الجمهور مثل كلوديل وسترنبرغ. كما كتب عام ١٩٣٥، مسرحية "آل سمنسي"، انطلاقاً من تراجيديا شيللي وقصص ستندال.

^(١٨) عناوين المقالات المجموعة في كتاب "المسرح وبديله" تعطي فكرة عن اهتمامات ارتو والطرق التي شكّلها أمام مسرح جديد: المسرح والثقافة- المسرح والطاعون- الإخراج والميتافيزيقيا- المسرح الكيميائي- عن مسرح بالي- مسرح شرقي ومسرح غربي- ولي زمن الروائع- مسرح القسوة- البيان الأول لمسرح القسوة- رسائل حول القسوة- رسائل حول اللغة- البيان الثاني لمسرح القسوة- رياضة عاطفية. (المسرح وبديله، الجزء الرابع من مؤلفات ارتو الكاملة، طبع مستقلاً في سلسلة "أفكار"، المجلة الفرنسية الجديدة.

^(١٩) الغنوصية: Gnosticism: نزعة فلسفية دينية تهدف إلى إدراك كنه الأسرار الربانية (المنهل).

واستبدالها بحركة يتم الصعود والهبوط فيها على إيقاع نبض الحياة؛ لابد من رفض الأفكار الواضحة التي هي "أفكار ميتة". المسرح هو مكان الأساطير. يجب أن تنتهي من علم النفس "الذي يحاول جاهداً إرجاع المعلوم إلى مجهول"، "بتعابير أخرى، يجب على المسرح أن يتابع بشتى الوسائل إعادة طرح، ليس فقط كل مظاهر العالم الموضوعي والوصفي الخارجي، بل مظاهر العالم الداخلي أيضاً، أي الإنسان من منطلق ميتافيزيكي"^(٤٩).

يجب أن لا تبقى اللغة وسيلة اتصالية بل أداة لاستكشاف ما فوق الواقع. يجب على الحوار إذن أن يفسح المكان لكلام مسرحي يؤثر على المشاهدين بماديته. بتطابقه مع الأشياء، بقيمته السحرية: "إن تحقيق ميتافيزيكية اللغة الواضحة يعني تسخير اللغة للتعبير عما تعجز عن التعبير عنه عادة؛ هذا يعني استخدامها بطريقة جديدة استثنائية غير مألوفة؛ هذا يعني أن تُعاد لها إمكاناتها في الزلزلة المادية، ذلك يعني تقسيمها وإطلاقها بنشاط في المكان، هذا يعني أن نأخذ النبرات بطريقة واضحة مطلقة وأن نرد لها قدرتها السابقة على التمزيق وإظهار شيء ما بشكل حقيقي؛ هذا يعني أن نواجه اللغة وينابيعها النفعية الرخيصة، الغذائية، إذا صح القول، أن نواجه جذورها كحيوان مُطارِد، هذا يعني أخيراً أن تأخذ اللغة شكلها التعويذي السحري"^(٥٠).

لكن الكلام ليس المسرح كله. تنضوي المسرحية تحت عناوين الكلمات، وأداء الممثلين والديكور والإضاءة والموسيقى. هنا أيضاً يرفض آرتو التقاليد الغربية ويعتقد أن الإخراج ليس مجرد صدق للنص؛ إنه لغة لها شاعريتها ومغزاها الخاصان: "المنصة مكان مادي محدد يطالب أن يُملأ وأن يتحدث لغته الواضحة"^(٥١).

الجسد البشري والأشياء، وقد صارت دلائل وسمات أو كتابة هيروغليفية، تؤلف رموزاً يمكن قراءتها مباشرة، والتمثيلية تخاطب الحواس مثلما تخاطب العقل والخيال: "عملياً، نريد أن نبعث فكرة من المشهد الكلي حيث يعرف المسرح كيف يقبّس من السينما والمюзيك هول والسيرك ومن الحياة أيضاً، ما كان يخصه في جميع الأزمان، فهذا الفصل بين المسرح التحليلي والعالم التشكيلي، يبدو لنا بمثابة حماقة. لا يتم الفصل بين الروح والجسد، ولا بين

^(٤٩) مسرح القسوة.

^(٥٠) الإخراج والميتافيزيكا.

^(٥١) الإخراج والميتافيزيكا.

الحواس والذكاء خصوصاً في المجال الذي تحتاج فيه الأعضاء التي تتعرض لتعب متجدد باستمرار إلى هزات مفاجئة لإعاش إدراكنا^(٥١).

يطرح أرتو أيضاً مسألة هندسة المسرح: "إننا نلغي المنصة والصالة ونضع بدلاً عنهما مكاناً وحيداً، بلا حاجز من أي نوع كان. سنحصل على مسرح الحدث؛ وستنشأ علاقة مباشرة بين المشاهد والمسرحية، بين الممثل والمشاهد، لأن المشاهد، وقد استقرّ وسط الحدث، يصبح محاطاً ومتأثراً به"^(٥٢).

هكذا يشعر المشاهد أن الأمر يخصّه "فيشارك" فيه. للعرض قيمة التعويذة. أمّا التمثيل التعبيري - "الممثل رياضي يعبر عن المشاعر" - فإنّه يقود الانفعال إلى ذروته. لكي يؤثر المسرح يجب أن يكون عنيفاً "إذا لم يكن هناك بعض القسوة في أساس كل مسرحية لا يكون المسرح ممكناً، ففي حالة الانحطاط التي نحن فيها، يتم إدخال الميتافيزياء إلى العقل عن طريق الجلد"^(٥٣).

لهذا السبب يقارن أرتو بين "مسرح العنف" والطاعون. المسرح مدمر مثل الطاعون؛ ومثل الطاعون أيضاً يوقظ قوى اللاوعي: "إذا كان المسرح كالطاعون فليس ذلك فقط لأنه يؤثر على جماعات كبيرة ويحولها إلى اتجاه حقيقي. هناك في المسرح، كما في الطاعون، شيء ما منتصر ومنتقم. هذا الحريق العفوي الذي يشعله الطاعون حيثما مرّ، يشعر المرء جيداً أنه ليس إلا دماراً هائلاً [....] يأخذ الطاعون الصور الغائمة والفضى الكامنة ثم يدفعها فجأة إلى أكثر التصرفات تطرفاً: المسرح أيضاً يأخذ تصرفات ويدفعها حتى النهاية. إنه مثل الطاعون يعيد خلق الصلة بين ما هو موجود وبين ما لا وجود له، بين قوة الممكن وبين ما هو كائن فعلاً في الطبيعة بشكلها المادي [....] المسرحية الحقيقية تخلق راحة الحواس، تحرر اللاوعي المكبوت، وتحرّض على ثورة افتراضية، لا يمكن أن تكتسب كامل قيمتها إلا ببقائها إمكاناً، وتفرض على الجماعات المحتشدة موقفاً بطولياً صعباً"^(٥٤).

يستبعد أرتو المسرح المعتدل والتفريق بين الأنواع: "يمرّ المسرح المعاصر في مرحلة تراجع لأنه فقد الإحساس بالجديّة من ناحية والإحساس بالهزل من ناحية أخرى؛ ولأنه قطع علاقاته مع الخطورة، مع الفاعلية المباشرة المؤذية، مع

^(٥١) مسرح القسوة.

^(٥٢) مسرح القسوة.

^(٥٣) مسرح القسوة.

^(٥٤) المسرح والطاعون.

"الخطر" بشكل عام.

"لأنه أضاع حس النكتة الصحيحة والقدرة على تفكيك الضحك المادي والفوضوي.

"لأنه قطع صلاته مع روح الفوضى العميقة التي هي أساس كل شعر" (٥٦).

قوة المسرح وأهميته تجعلانه "تعوذة تطرد شياطيننا". يفجر المسرح بنية الكون وي طرح مسألة الوجود من جديد: "الشعر (في المسرح) فوضوي بمقدار مايطرح مسألة علاقات الأشياء مع بعضها، وعلاقات الأشكال مع مدلولاتها.. إنه فوضوي أيضاً بمقدار ما يكون ظهوره نتيجة اضطراب يقرّبنا من العشوائية" (٥٧).

"الفكاهة والشعر والخيال لا تقول شيئاً إذا كانت من خلال عملية تدمير فوضوية، منتجة لمجموعة ضخمة من الأشكال ستكون المشهد المسرحي بتمامه، لم تتوصل إلى طرح موضوع الإنسان حيث عضويته، أفكاره عن الواقع، ومكانته الشعرية في الواقع" (٥٨).

بالنسبة لصاحب نظرية "مسرح العنف"، يتعلق الأمر، إجمالاً بتغيير الحياة.

خاتمة:

ما بين نظريات ارتو وتجربة المسرح الجديد هناك فاصل من عشرين عاماً. لاشك أن صعود الدكتاتوريات في أوروبا، ثم الحرب، قد أدّى إلى توقف بل ركود في تطوّر الأشكال الأدبية والفنية. لقد أحجم الكتاب والفنانون عن أي استكشاف جديد وعادوا إلى القوالب القديمة لترويج الأيديولوجيات الجديدة وخدمة النشاط السياسي والمعرفة العسكرية. لكن منذ العشرينات أوجد الشعر أشكالاً جديدة في التعبير نجدها عند إيلوار، أراغون، بيرييه، سوبو، دينو، بروتون، تزارا.... أما بروسست، جيد، مالرو، سيلين، ليريس..... فقد غيروا في بناء القصة، وفي مجال الرسم، من براك إلى بيكاسو ومن كلي إلى موندريان، ومن التكعيبية إلى الفن التجريدي، أبدع الرسامون بجرأة وبذلوا صورة العالم، أمّا "المسرح الجديد"، فعلى العكس؛ لم يبدأ حتى الخمسينات.

(٥٦) الإخراج والميتافيزيقا.

(٥٧) المصدر السابق.

(٥٨) مسرح القسوة.

يرجع هذا التأخير إلى طريقة استقبال الأعمال الأدبية. الشعر يمكن تذوقه في جو العزلة والوحدة. إنه تجربة فردية وتكفي غرفة ضيقة لإجراء أبحاث جديدة. كما أن الروائي يتوجه بكتابات إلى قراء منفردين. إضافة إلى ذلك فإن طبع ديوان شعر صغير أو رواية يتطلب نفقات محدودة. على عكس ذلك لا يعيش المسرح دون جمهور والكاتب المسرحي بحاجة للحوار مع المشاهدين. من ناحية أخرى فإن تقديم المسرحية -الصالة؛ الديكورات، الممثلين- يقتضي توظيف رأسمال يحكم على المسرحيات بالنجاح أو الفشل.

لهذا السبب يتطلب المسرح، في الحقيقة، تبديلاً في العقلية وثورة كاملة. الطليعة نفسها مضطرة للجوء إلى حافز يؤدي إلى انتشار وعي جماعي. يسمح بظهور تحولات تحث في عز النهار.

التحولات الجذرية في أشكال التفكير وفي كيفية رؤية العالم التي حدثت في مطلع هذا القرن تمّ التعبير عنها بواسطة فكر علمي في الرياضيات والفيزياء وعلم النفس وترجمت تلك التحولات بدراسات جديدة في الفن والأدب. لقد تابع المسرح هذه الثورة وأكملها في العمق.

حوالي عام ١٩٥٠، اتسعت البحوث الشكلية عن الرواية الجديدة مع صمويل بيكيت (مولي ١٩٥١)، ناتالي ساروت (صورة رجل مجهول ١٩٤٨، مرتور ١٩٥٣، القبة الفلكية الاصطناعية ١٩٥٩)، آلان روب-غرييه (المماحي ١٩٥٣، المتلصص ١٩٥٥، في المتاهة ١٩٥٩)، ميشيل بوتور (ممر ميلان ١٩٥٤، استخدام الزمن ١٩٥٦، التعديل ١٩٥٧).

في خط مواز للروائيين حاول بعض الكتاب المسرحيين الجدد أو الذين يجهلهم الجمهور إثبات وجودهم. جاك أوديبيرتي (الشرينتشر ١٩٤٧)، جان جينييه (الخادمت ١٩٤٧، رقابة مشددة ١٩٤٩) ارتور ادموف (الحركة الكبرى والحركة الصغرى ١٩٥٠)، جورج شحادا (السيد بوبل ١٩٥١)، جان فونتييه (الكابتن بادا ١٩٥٢)، صمويل بيكيت (في انتظار جودو ١٩٥٣) وأخيراً عُرِضت مسرحية برتولد بريخت (الاستثناء والقاعدة ١٩٥٠)، في فرنسا.

المسافة بعيدة حقاً بين الخيال الشعري عند شحادا وأوديبيرتي والعنف عند فونتييه، المسافة كبيرة بين المسرح الاحتفالي عند جينييه وتبني المواقف السياسية عند بريخت وأداموف. رغم ذلك، بحث هؤلاء الكتاب كلهم عن تجديد عميق للمسرح وغيروا العادات الفكرية عند الجمهور.

تنتهي محاولات يونسكو الفاشلة إلى هذه الفترة من الصراع بين كتاب "المسرح الجديد" والجمهور؛ كما أن نجاحاته تتزامن مع تكريس الأشكال المسرحية الجديدة: عام ١٩٥٧، عُرضت مسرحية ادموف (باولو باولي) و"نهاية المباراة" لبيكيت، وفي عام ١٩٥٩، عُرضت مسرحية جينيه (الزواج) وفي عام ١٩٦٠، في الفترة التي عُرضت فيها مسرحية الكركدن كانت تعرض (العصابة الأخيرة)، لبيكيت، (الشرقة)، لجينيه، (ارتورو اوي) لبريخت.

لم يكن مسرح يونسكو منعزلاً إذن؛ إنه يشارك في ثورة الأشكال الأدبية وفي العقليات.

الحوار والحركة على المسرح. هما طريقتاه الخاصة في اكتشاف الواقع، واكتشاف الذات، وفي الفهم وفهم الذات [....]، عالم كامل يُبنى، أو يُكتشف بمقدار.

بمقدار ما يكتب عنه المؤلف ويفكر فيه. "يوميات في فتات".

٤ - التقنية والتطبيق في المسرح:

أرست "الخطوط العريضة للعمل المسرحي" التي اكتشفها يونسكو الأساس لفن مسرحي يزداد وعياً ووضوحاً شيئاً فشيئاً، ولكي يحقق "مسرح العنف" ويحظى بمشاركة المشاهدين، ويعترض من جديد على سحر الفن استخدم يونسكو جميع إمكانات لغتي المسرح: النص والإخراج.

الحركة الدرامية:

الدراما حدث، لكن يونسكو أراد أن يخلق حركة دون اللجوء إلى العقدة. لقد رفض التغيرات المفاجئة المألوفة في المسرحية الهزلية الخفيفة، أو الميلودراما، كما رفض الأحداث المبالغ فيها، العودة غير المتوقعة للزوج المخدوع، والخيانات والانفصالات والاعترافات و"صليب أمي". المسرحيات المعقدة ماهي سوى تراكيب، لمواقف جامدة على درجات متفاوتة من الحذف والبراعة. إنها مسرحيات مبتذلة تتحدث عن الجائز والممكن، لكن ليس لها أية ضرورة وجودية.

لكي يعبر يونسكو عن رفضه، أحال العقدة إلى سخرية: في المغنية الصلحاء، تكلم السيد والسيدة مارتان كبة "عن علامات عرفان الجميل"، وإن حكاية جاك وروبرتاً هي مسرحية هزلية، أو هي الوجه الآخر لقصة "عشاق فيرونا" وغالباً ما تصادف التهامك اللاذع من العقدة البوليسية: الخادمة في مسرحية المغنية الصلحاء هي في الحقيقة شرلوك هولمز، كما أن مسرحيات ضحايا الواجب واميديه، وقائل بلا أجر تبدأ بلغز أو تحقيقي بوليسي؛ ويعتقد شوبير أن "كل المسرحيات منذ الإغريق حتى أيامنا لم تكن أبداً سوى مسرحيات بوليسية". لكي ينقذ يونسكو المتفرج من مصيدة العقدة فإنه يحطم وهم التخيل: تقاطع جاكليين كلام والدتها المؤثر ودموعها المنسكبة: "لا تفقدي وعيك في الحال! انتظري نهاية المشهد"، ونقول مرغريت للملك: "ستموت في نهاية المشهد"، كما أن بيرانجييه في مسرحية الماشي في الهواء يخبرنا أن المحاسبة الشاملة في تعدد مجالاتها هي مسألة تخص مسؤول الأكسسوار أو مدير الآلات. لكي يؤكد يونسكو هذه المسافات الفاصلة بين التمثيل والحقيقة فإنه يطبق مبدأ "المسرح داخل المسرح": مادلين والشرطي يجلسان في مقعدين مريحين ليراقبا شوبير؛ كما أن تريب وريختول مهرجان يؤديان مشهداً أمام جان وينقسم الرهبان إلى جمهورين متنافسين. تدمر هذه الأساليب فكرة مشابهة الواقع وتفرض على المتفرجين مشاركة من نوع آخر. أهمية المسرحية ليست أبداً في رسوخ شكل الحكاية.

تحت ستار التطورات الساخرة الطارئة على عقدة رخوة مصطنعة تطور الحركة الدرامية صراعاً انطولوجياً حدّد يونسكو ملامحه العامة: "فكرة بسيطة وتطور بسيط أيضاً ثم السقوط"^(٥٩). في البدء هناك "صورة" تجسّد موقفاً كراسي تتكدّس في غرفة، جثة تكبر، قاتل مجهول، ملك يموت... هذا الموقف الذي يصعب الدفاع عنه ولا مفرّ منه مع ذلك، يترجم قلق الحياة والإنزعاج البدني. إنه يعبر عن مخاوف وأوهام بصرية ويعطي للمسرحية مغزاًها. "فيما يخص مسرحية الكراسي، كنت أرى بكل بساطة صورة غرفة فارغة تملأ بالكراسي التي لا يجلس عليها أحد... والغاية الوحيدة من القصة هي أن تدعم الصورة الأولية". في مسرحية اميديه، الأمر الأساسي بالنسبة لي، الأمر الذي يشرح المسرحية، هو الجثة وكل ما تبقى حكاية تدور حولها....^(٦٠).

^(٥٩) حوار مع كلود ساروت. لوموند ١٩ كانون الثاني ١٩٦٠.

^(٦٠) محاورات مع كلود بونفوا.

هذه "الصورة" المستمدة من الحلم في أغلب الأحيان تحمل في ذاتها مبدأ تطورها، والصراع الذي تنطوي عليه يخلق الدراما. الحركة هي انتشار قوى تتجابه، التطور حركة آلية حتمية تتصاعد باستمرار: تصل الكراسي إلى المنصة بسرعة متزايدة، شوبير يغوص في ذاته، والجثة لا تتوقف عن التضخم، بيرانجي يرفض الاستسلام وجان يحمل الأباريق وطانجر الحساء"....

ليس هناك من حلّ للعقدة. الموقف لا مخرج له لأنّ الصراعات الوجودية لا حلّ لها؛ والغرائز المتعارضة المتصادمة هي نسيج الحياة: الرغبة والموت، غريزة التجمع وغريزة التوحّد، الحب والموت، البراءة والذنب... "سقوط"، الحركة الدرامية هو في الحقيقة إسقاط "خارج الزمان"، هو نقل موقف فريد إلى صورة نموذجية. الديمومة تتجمّد، والتمثيل يتحوّل إلى تكرار في ضحايا الواجب، المستقبل في البيض، الكركدن، العطش والجوع... لكي يبين يونسكو مدلول عودة مواقف حقيقية في عالم عبثي يتبنّى التركيب الدائري: في نهاية المغنية الصلعاء يستعيد آل مارتان دور آل سميث، وتقرع طالبة جديدة جرس باب بيت المدرّس...

هذه البنية الديناميكية تطرح من جديد مسألة الزمانية والسببية^(١١). في المسرح الواقعي والبوليسي الذي يرجع إليه شوبير التراث كله. تتبع الحركة المسرحية من تتالي الأحداث حسب ترتيبها الزمني، وفي هذا التتالي تنصبّ التغيرات المفاجئة على العقدة وينحصر التفسير في الاستدلال الاستنتاجي. على عكس ذلك، فإن مدلول "الصورة المسرحية"، عند يونسكو يفترض تنظيماً مكانياً للواقع. لم يعد هناك من "قبل"، أو "بعد" بل حاضر يتضخم بلا حدود. كل شيء يُعرض على أنّه واقع راهن، اميديه ومادلين هما في ذات الوقت زوجان عجوزان وزوجان شابان، شوبير طفل وبالغ... إضافة إلى ذلك فالمنطق، العقلاني أو الانفعالي، لم يعد وسيلة للتفسير: الضرورة تختلط مع عدم التحديد المطلق. وهكذا يصبح البناء الدرامي سؤالا عن بنية الواقع.

(١١) غالباً ما تكون ساعات الجدار مغلفة في مسرح يونسكو.

الشخصيات:

أضاف يونسكو إلى السخرية من العقدة رفضه لسيكولوجية "الطباع" لأنّ ليس من مهمة المسرح إعداد الدراسات التصنيفية^(١٦) ولأنّ النظريات تبسيطية أكثر مما ينبغي دائما وسرعان ما تصبح بالية، ولأنّ كل إيضاح يميل إلى الاختصار.. لقد انطلق نيكولا دو لمحاربة مقولات العقل والدراسة النفسية العقلانية: "إذا ما استوحيت منطقاً آخر وعلم نفس آخر، فإنني سأستخرج التناقض من اللا تناقض، واللا تناقض مما يحكم عليه الحسن العام أنه تناقض... سوف نتخلّى عن مبدأ الهوية ووحدة الطباع لصالح الحركة والسيكولوجية الدينامية... نحن لسنا ذواتنا.... الشخصية لا وجود لها. لا يوجد فينا، إلا قوى متناقضة أو غير متناقضة...."^(١٧).

هكذا لم تعد الشخصية جامدة في هويتها "تفقد الطباع شكلها وتذوب في اللاشكل الذي ستصير إليه". كل شخصية هي ذاتها ونقيضها: الشاب يصبح فحلاً، والشرطي أباً، والزوجة أمّاً... بيرانجيه هو الإنسانية جماعاً إذ أن يونسكو يكتشف، فيما وراء المظاهر والأقنعة، النفس العميقة والصراعات الكامنة والغرائز الجنسية وحركات لا يمكن تحديدها والقوى الغامضة الموجهة للسلوك. ضمن هذه الشروط لا يعود الترابط والمنطق مفتاحين للتفسير والتأويل. التحليل "الواقعي" للدوافع خادع، وهمي؛ وقد أشار يونسكو إليه ساخراً منه. المغنية الصلحاء، ضحايا الواجب، أميديه، الكركدن مسرحيات تبدأ مثلما تبدأ المسرحيات الواقعية. وتصوير الشخصيات لا يلتقط سوى فكرها الواضح وردود أفعالها الواعية، وحركاتها الإرادية، وهذه الطريقة تبرز سطحيّتها وتفاهتها؛ ثم تسيّر بحوث يونسكو على طرق أخرى: فمن خلال قصة الحلم، ومن خلال اللغة والتمثيل الحر، ومن خلال هذيان الصور وتقنية حلم اليقظة والتمثيل النفساني يتوصّل إلى شخصية أشد ثراءً وأكثر واقعية، وبدلاً من البحث عن الدوافع يقدّم عرضاً واضحاً جلياً، ويكشف عن بنى نفسية لا واعية.

كان المسرح السيكولوجي يهتم بتصوير الأهواء أو الرذائل، وسير الأحداث

^(١٦) typologic : تصنيفية؛ علم دراسة الأصناف الذي يسهّل تحليل واقع معقّد ويؤدي إلى التصنيف (المنهل ٩).

^(١٧) يمكن القول مع ذلك، إن علم النفس الذي بهاجمه نيكولا دو قد مات منذ زمن بعيد. إن تحليلات كافكا وجويس وبروست لا تعتمد على نظريات ثين أو بول بورجيه.

فيه لم يكن سوى ذريعة لتقديم "أبطال" أو رجال تافهين. على عكس ذلك فـشخصيات يونسكو لا وجود لها إلا من أجل خدمة المسرحية وليس لها أي معنى فردي. دورها مزدوج وظيفي وموضوعي، تعبيري ومعيارى، وفي إطار التطور الدرامى يكون هذا الدور المزدوج محركاً للعمل، ومن ناحية أخرى يظهر "في الشرط الإنساني ويردد أوصافه.

الشخصيات هي القوى المتناقضة التي تؤلف "الصور المسرحية" وحضورها وتصادمها يخلقان مواقف الصراع. اميديه ومادلين، جان وبيرانجييه، دودار وبوتار، ماري ومرغريت، ماري-مادلين وجان، هذه الشخصيات كلها، ومن خلال تعارضها تتبادل التهم وتفجر التوترات الكامنة.

بعيداً عن الحدث المسرحي، تعبّر تلك الشخصيات عن البشري. إذا ما أخذت بطريقة سطحية فهي نماذج اجتماعية: المثقفون، موظفو المكاتب، متسكعو يوم الأحد، النقاد الأدبيون، سكان الأحياء الشعبية، وكل واحد منهم يمثل فئة معينة: بوتار، بابيون، حارسه البنائية، البقال، مستأجر الطابق السادس، رئيس العمال، سائق التاكسي... وبما أنهم متغيرون، متقلبون.. لا يكونون غالباً سوى قناع اجتماعي: لا يشعر المدرس بالثقة إلا في دوره كمعلم، والشرطي في بداية مسرحية ضحايا الواجب خجول متواضع. إنهم يمتلكون قليلاً من "الشخصية" بحيث يصبحون قابلين للتبادل أو أنهم نكرات: المدرس، التلميذة، الرجل العجوز، المرأة العجوز، حارسه البنائية، المستأجر، هي، هو؛ أو أنهم الاسم نفسه -بوبي واطسن، جاك، اميديه، جان- ويزداد عددهم، كل واحد طبق الأصل عن الآخر - بيض، وزّات، - كابوس متجدد للعالم الجديد الشجاع "Brave new world" لهكسلي.

مع ذلك، ففي استكشافات التحليل النفسي، اكتشف يونسكو الحقيقة الأخرى تحت القناع الاجتماعي. لم تعد الشخصيات نماذج عادية بل نماذج مثالية. الشخصيات هي تدوين لوساوس وهلوسات، رموز للوعي؛ الصورة الموازية لما لا يقال. بعضهم؛ كما في مسرحية الملك يموت، ليسوا سوى إسقاطات لرغبات وحسرات الشخصية المركزية؛ وآخرون يرسمون صوراً أسطورية - الأم - الزوجة، الأب، الحبيبة - تترجم رغبات النفس المتنوعة وتعبّر عن الانفعال اللا واعي وعن الأنا الأعلى^(١٤).

(١٤) هل يجب أن نطرح من جديد مسألة العلاقات بين الشخصية وخالقها؟ بعد كثير من الكتاب المسرحيين - الروائيين - أجاب يونسكو سائله أن شخصياته هي هو وليست هو وأنها تعبّر عن

لقد خصص يونسكو مكاناً متميزاً للزوجين. آل سميث، وآل مارتان، جاك وروبرت، شوبير ومادلين، العجوزان، اميديه ومادلين، بيرانجيه وداني أوديزي أو جوزفين، الملك والملكتين، جان وماري-مادلين، كلهم يطرحون بحدة مسألة العلاقات بين إنسانين. إنهم يعبرون عن استنزاف المشاعر واستحالة معرفة كل طرف للطرف الآخر. إنهم يمثلون الوحدة، وترك الملذات الحسية، وترك النظام، واحبولة الأطفال لكنهم يعبرون أيضاً عن الميل العميقة التي تشد الواحد إلى الآخر ممن يتناولون الحب وتحثهم لكي يبدؤوا فجر العالم من جديد.

اللغة:

يتراقق تمزق الشخصية مع تفتت اللغة. لم يعد الكلام نظاماً للاتصال بين الناس. عندما تخضع الحياة للمادة، وعندما يفرغ الفكر من جوهره لا يبقى هناك حوار ولا تبادل بل هذيان. يتحدث المرء ولا يقول شيئاً لأنه لم يبق شيء يقال، لأنه لم يبق هناك فكر مبتكر أصيل ولا انفعال ولا وجود حقيقي: "إنني أتأكد من تدمير وتشويه اللغة الإراديين وأعلن ذلك" كما كتب يونسكو في مقدمة ملاحظات وملاحظات مضادة.

الكتابة تعني بكل وضوح استنزاف اللغة، وكل كاتب يطرح مسألة الكلام من جديد، لكنه يعيد طرح المشكلة ليضعها في مكانها الصحيح وليعطيها قيمتها الأولى كوسيلة للسحر والتعبير وإلا فإن الكتابة لن تعني شيئاً. كان يونسكو مقتنعاً بذلك وبقي على قناعاته دائماً.

منذ قرن تقريباً، منذ رامبو وماراميه وفلوبير أصبح الجدل حول اللغة ساخناً بشكل خاص. وفي الحقيقة فإن الكلام اللوغوس^(٦٥) سجين داخل المنطق ولا يستطيع اكتشاف اللامعقول بطريقة صحيحة. إضافة إلى ذلك فإنه عتيق بالأسقمه سوء الاستخدام الذي تقوم به الايديولوجيات: سوء الاستخدام نلمحه في خطاب الأم بيبا الذي كاد أن يكون كاريكاتورياً. تبين الدعايات وتقنيات الاتصال بين الجماعات كم في التعبير من اضطهاد وطغيان.

ينتهي الأمر بالكلام إلى أن يفصل عن الحياة؛ وكان يونسكو قادراً أكثر من غيره، بسبب لغته المزوجة، على الإحساس أن في التعبير عن تجربة ما خيانة

إمكانات العقل، لم تكتمل وعن رغبات واحتمالات وأحلام وفرضيات. (انظر محاوراته مع كلود بونفوا ص ٧٦-٧٧ وما بعد، ص ٢٧٧).

^(٦٥) اللوغوس Logos: عقل أول كان يفصل بين الخالق والكون في الأفلاطونية الحديثة (المنهل) ٧.

دائمة لها. لقد قام مسرحه بتدمير اللغة ثم أعاد بناءها بشكل صحيح.

ولا تملك شخصيات يونسكو، عموماً، كلاماً خاصاً بها. إنها تستخدم مفردات كل الناس في صيغ يستخدمها كل الناس أيضاً. إنها لا تملك ناصية اللغة، التي تعمل في نهاية الأمر لوحدها، حسب ميكانيكية خاصة بها. قد تصرّ الآلة أحياناً، تتعطل، تصنع نماذج مشوهة، لكن اللغة "تتابع طريقها"، فمن خارج الشخصيات، أو بالأحرى من خلالها، "يتم" الكلام فيتشكل شيء ما ثم يتلاشى.

ينشأ الخلل في اللغة من تفتيت الدلالة اللغوية والفصل بين اللفظة ومدلولها، ففي الطريقة الطبيعية للتفاهم يحتلّ المدلول المرتبة الأولى ويفتش المستمع عن التعبير الملائم لمضمون أفكاره. قلبَ يونسكو هذه الطريقة إذ انطلق من الكلمة أو من التركيب التعبيري الذي يعطيه مضموناً غير ملائم أو يتركه دون أي مضمون، وهكذا يصل المرء إلى اللامعقول. تتطوّر الحركة الدرامية في "الامتثال" انطلاقاً من كلمات فارغة من المعنى: يلجأ جاك الذي ترك "على هواه" إلى التمرد والثورة، لكنه يستسلم عندما تعلمه أخته، بكلمة واحدة، أو بسبع وعشرين كلمة أنه "قابل للتوقيت Chronométrable".

على عكس ذلك فإن قيمة الكلمات ودلالاتها الدقيقة يمكن أن تصبح مدلولاً غير ملائم: "أنت تمام واقفاً" - أنا جالس... - جالس أم واقف فالأمر سيّان".

التأثير هنا مضحك، وفي مكان آخر يكون سبباً في عدم التفاهم: "أنت عنيدا - أنت تعامليني الآن كحمار"، ولقد تأخرت من طول تأمّلك فيها - أنت تعدّين لي الدقائق!، "أنا عبدة - لقد ألغيت نظام العبودية يا صغيرتي...." (١٦).

لا ينسجم معنى الكلمات مع شكلها، فهي غير صالحة للتبادل فتحدث بعض التغيرات خاصة بواسطة التشابه في اللفظ فيستخرج يونسكو من ذلك مادة مسرحية "كنت بجانب صديقي جان وكان هناك أناس آخرون. - أقسم أنك لا تدري ما تقول".

هذا التناظر بين الكلمة والمدلول يسلب الكلام قوته الإعلامية، ويبقى مجرد ببغائية، ولا تعود الأجوبة والردود مرتبطة بتسلسل الأفكار، والكلمات تتوالى ومجموعات على أساس الجذور اللفظية والدلالات والتصريفات والمقاطع الصوتية، كما أن الارتبطات المجازية والكنائيات تمنح الكلام ملامح الحماسة والجنون: "لقد كنّا مبلّلين منذ ساعات وأيام وإيالي وأسابيع وشهور...." كانوا

يصفون بأنهم وأقدامهم وركبهم وأنوفهم وأسنانهم...^(٦٧). بعض الأجوبة كانت إعراباً وتصاريح أفعال لكن يونسكو يتلاعب غالباً بالجناس والأخطاء الإملائية: "ضحك الناس آنذاك من ذلك الغبي الذي وصل عارياً تماماً، ضحكوا من الكيس، كيس الرز...."^(٦٨). بوجود ما عندنا من رؤساء عمال (كونترمتر)، ونواب معلمين (فيسمتر) وحماة المعلمين (بارامتر) وملاحول المعلمين (بيريمتر)....^(٦٩)، لجأ يونسكو، وهو الحساس المرفه، لمثل هذه الألعاب من أجل المتعة فقط في "يومياته" واستخدم منها عناصر مضحكة في مسرحه لكنه يقصد من وراء ذلك إلى تدمير سلطان اللغة.

عندما نقف الكلمات معناها فإن قوقعتها الفارغة تتحطم. تتبعض الكلمات وتكثر: "لقد وضعت في هذا العالم ممسحاً"، "أنت بشعوع"، لقد تربي دون أية مأخذ عليه مثل أرسطو^(٧٠). تتفجر الكلمات أخيراً ولا يبقى سوى مقاطع لفظية، أحرف صوتية أو أحرف رنانة، تتقاذفها الشخصيات عند نهاية مسرحيات: "المغنية للصلاء، جاك، الكراسي.

ضوضاء، مواء، خوار هي اللغة الوحيدة. الكلمات لا تعبر عن شيء وتعبر عن كل شيء في الوقت ذاته. في مسرحية اميديه تعبر كلمة "اليدوليا....". التجببية عن كل أفكار الحوار المستحيل بين مادلين واميديه. ادوليا اميديه اسيدوليا، مادلين، الخ.... وفي مسرحية الامثال يغدو كل شيء بالنسبة لجاك وروبرتاً هرّاً: "لتمييز الأشياء هناك كلمة وحيدة: هرّ، الهررة، تسمى هرّاً، الأطعمة تسمى هرّاً، الحشرات تسمى هرّاً، الكراسي تسمى هرّاً، أنت هرّ، أنا هرّ، السطح هرّ....".

يصبح الكلام سهلاً أو لم يعد هناك داعٍ للكلام... التفاهم لم يعد موجوداً، والكلمة تغدو حشواً، واللغة دون هدف، تتكاثر دون رقابة. في حكاية رجل الإطفاء ودرس المدرس، وتصريحات بيرانجييه، الكلمات تسيل، تنسكب على المسرح، في الصالة، تغزو المكان، كلام لا عضوي، مرضي. لقد أصيب الكلام بمرض السرطان.

- للكر كدن

(٦٧) الكراسي.

(٦٨) الكراسي.

(٦٩) قاتل بلا أجر.

(٧٠) جاك.

شكل خاص من أشكال السرطان في العالم الحديث، هو تضخم المصطلحات التقنية. يسخر يونسكو من هذا التشويه اللغوي. جاك، ضحايا الواجب، الكركدنمسرحيات تزدحم بالمصطلحات التحليل النفسي: العقدة، النكوص، السقطة، التحويل، الإعلاء. يتحدث بيرانجييه عن مسخ السيد بابيون فيقول: "لا شك أنه حدث فاشل". وفي مسرحية ألما يستغل يونسكو مفردات الفلاسفة الوجوديين والنقاد البنيويين، بل إنه يخترع مفردات جديدة، موجود - داخل الشيء - وهو خارج الشيء. وجود عدم الوجود، علم الديكور (ديكور ولوجي) فن الملابس (كوستوموديه) التاريخية، المشاركة الديالكتيكية، علم النفس الاجتماعي للمشاهدين (سبكتا توسيكو سوسويولوجي) spectatapsychosociologic.... وفي مسرحية قاتل بلا أجر تزهدهر مفردات التكنوقراط: "هناك المبدأ التنظيمي الأساسي وجهة النظر التنظيمية للبيئة الفوقية...".

أخيراً.. يحب يونسكو التلاعب بأسماء الشخصيات، في ضحايا الواجب هناك شوبير ونيكولا دو، والرجال الذين يمسحون، كركدنات يحملون أسماء بقرة، فراشة، كما نجد السيد لولار والسيد بوليسون والأسقف مورفان، وتريب وبيريختول.

نجد ضعف المعنى، والاستهزاء باللغة على مستوى المفردات أولاً، لكن المفردات تنضوي تحت أشكال الأقوال المأثورة، والحكم... يفرغ يونسكو هذه الأشكال من مضامينها، وهذه وسيلة تدمير أكثر براعة...

يمكن أن نستخرج من مسرحيات يونسكو معجماً للأفكار المقتبسة. إننا نفكر بفلوبير، وقد فكر يونسكو فيه أيضاً. الحقائق التي غدت عامة، مبتذلة، تنبثق لدى كل كلام وبالأحرى خارج كل حديث: "آه... بالتهذيب الفرنسي، وليس كما نرى عند شباب هذه الأيام"، "العنصرية من أفدح الأخطاء في هذا القرن" "لا بد أنها الصحون الطائفة"، "ليس هناك مهنة غيبة". أما مسرحية "صبيّة للزواج" فتتألف من كليشيات متتالية.

طريقة أخرى مختلفة قليلاً هي: "التلصيق" (الكولاج). يظهر أثناء الحوار استشهدات تاريخي أو أدبي لا تتركه الشخصيات. إنها غمزة عين يوجهها المؤلف للجمهور: "لا تلمسها، إنها محطمة"، كما قالت السيدة سميث، أما جاك فيقول: كوني أختاً جذيرة بأخ مثلي، أما الدكائرة في مسرحية ألما فإنهم يتبادلون الشتائم بسبب مفردات إحدى حكايات لافونتين: "عجل... بقرة... خلزير...."، ويذكر

السيد الضخم في مسرحية اللوحة الشاعر بودلير دون أن يعرفه..

ليست هذه التجمعات غير المألوفة للمفردات لعية بل هي أداة لكشف الأفكار المكبوتة. يتذكر القارئ تلك "الحوارات القصيرة"، التي استخدمتها ناتالي ساروت^(٧١). المدرّس يفضّح رغباته اللاواعية "أنت شهية....".

"إياك والوقاحة أيتها الفتاة اللعوب، وإلا فحذار....".

تحتفظ الأجوبة غالباً بصيغة الكلام المألوف، لكن دارات قصيرة تدخل إليه مضموناً غريباً شاذاً مما يؤدي إلى بديهيات كاذبة، "يجب على الطبيب المخلص أن يموت مع المريض إذا لم يكن في الإمكان أن يشفى معاً: مثلاً يهلك قبطان السفينة مع سفينته في الأمواج"، "زوجتي هي الذكاء عينه. إنها أكثر ذكاءً مني على كل حال. وثقوقي في الأثوثة إلى حد بعيد"، داعب حلقه ما، تغدو دائرة فاسدة (Lecercle vicieux): الدائرة الفاسدة في علم المنطق هي الاستدلال الخاطئ^(٧٢)، ليس لأنني لا أبالى بالاديان، يمكن أن يقال إنني لا أحترمها.. عندي فطيرة من لحم الأرنب الغضّ، محشوة بلحم الخنزير الصافي^(٧٣).

يكثر يونسكو من استخدام الأقوال المأثورة المشوّهة لينهم تردد الشخصيات وليؤكد فقر الفكر السائد. هناك مشاهد كاملة في "المغنية الصلحاء"، و"معرض السيارات" و"جاك" و"اميديه" ومسرحية الماء، وقاتل بلا أجر، مبنية على لغو لا معنى له، مرصوف، متلاصق الأطراف، "من يبيع اليوم عاجلاً سينال بيضة غداً"^(٧٤)، "هل أتيت إلى معرض السيارات لتأخذوا دروساً في اللغة الفرنسية؟ هذه ستة فرنكات معدنية ونصف كيلو من الكربن المخلل! من ناحية أخرى يمكن أن نزودك بمجلس إدارة مؤلف من تسع أعضاء يمكن إعادة انتخابهم، وبيضة".

على مستوى آخر، أكثر تطوراً ودقة يتعرض الكلام القادر على الكشف للتشويه. يتم الحفاظ على تراكيب الاستدلال لكنها تكون مزيفة. تقوم السيدة سميت بعملية استقراء: "لقد علمتنا التجربة أنه عندما يُقرع الباب فمعنى ذلك أن لا أحد هناك". أما رجل المنطق في مسرحية "الكركدن" فيشرح عملية القياس لكنه

^(٧١) انظر ناتالي ساروت "عصر الشك".

^(٧٢) المغنية الصلحاء.

- الكركدن.

^(٧٣) قاتل بلا أجر.

^(٧٤) لاحظ التشابه باللفظ بين كلمة عجل (Lioeuf) وكلمة بيضة (الببيض).

في الحقيقة يؤدي إلى استنتاج زائف.

كيف نلاحظ، على امتداد الحوار، إنه يعكس المقيمتين (الكبرى والصغرى) أو أنه يستبدل الممسند إليه بالفاعل؟ من الآن فصاعداً، سيسمى هذا المنطق الأعوج- الذي -تمتد مظاهره المتعددة"، من الحساب الذهني إلى الأخلاق- بتبرير أي شيء: من فظاظلة السيد العجوز إلى شعارات الأم بيبا. إنه يبرئ الحماسة والاستبداد. إنه مضحك جداً، لكنه مرعب أيضاً فلا تعود اللغة مدعاة للضحك بل تصبح خطيرة. أحاديث المدرس، والأم بيبا، وبوتار وجان والأخ تاراباس، كلها كلام قاتل. يكشف يونسكو في اللغة، إضافة إلى التلف؛ "منهجاً للحرب الحديثة"^(٧٥).

أزمة اللغة من جانب منهاجي أزمة مصطنعة ومقصودة.. يمكن للكلام أن يكون أداة اتصال حقيقية. يونسكو، الكاتب، يعتقد ذلك. الكتابة تعني الإيمان بالقيمة الخلاقة للغة. الكتابة، حسب كلمات رامبو، هي "إيجاد لغة"، تعطي شكلاً لما لا يُقال. لهذا السبب ينشأ حوار حقيقي بين بيرانجييه وديزي، بين الملك وجولييت، بين جان وماري-مادلين. كثيراً ما يناجي المرء نفسه ويعبر عن ذاته اللاواعية، جاك، شوبير، أميديه، بيرانجييه، جوزفين، جان، ماري-مادلين.... للتعبير عن الهلوسات، وللإفصاح عن الدهشة أو القلق، عن الحب المجنون أو الخوف من الموت. جميع صور العالم، جميع المشاهد اليومية، الألوان، والأناشيد، العطور تؤلف كلها مونولوجاً غنائياً. تعبر الاستعارات عن الشيء الذي لا يمكن التعبير عنه في حالة الاندهاش أو الرعب. آنذاك تصبح اللغة شعرية.

هذه اللحظات نادرة. هاهو شوبير يتحدث عن نزوله إلى المثانة، وأميديه يتحدث عن الحب المجنون، ويتحدث بيرانجييه عن المدينة المشعة، ويتحدث الماشي في الهواء عن ما وراء العالم؛ ويتحدث الملك عن الأمور اليومية الرائعة، ويتحدث جان عن المرأة التي يحلم بها. إضافة إلى ذلك كله، هناك دائماً شخصية تحيل الموقف إلى سخرية عندما تتعاضد هذه النزعة الغنائية: مادلين تسخر من شوبير، ويسخر الإنكليز من بيرانجييه، وحارسا المتحف يسخران من جان....

ممارسة الكتابة عند يونسكو، إذا لم تكن يائسة، فهي متشائمة، مع ذلك فإن

^(٧٥) ملاحظات، وملاحظات مضادة.. (المقدمة).

تدمير اللغة ثم إعادة بنائها تجعل من مسرحه عملية تأمل وتفكير حول الكلمة باعتبارها صيغة من صيغ المعرفة والعمل.

التمثيل:

لا يعتمد مسرح يونسكو على الحوار فقط^(٧٦). يُضاف إلى التعبير بالكلمات التعبير بالتمثيل: "أنا لا أصنع أدباً، إنني أصنع شيئاً مختلفاً تماماً. إنني أحقق مسرحاً.

أريد أن أقول إن النص الذي أكتبه ليس مجرد حوار لكنه إرشادات مسرحية أيضاً"^(٧٧). يندمج أداء الممثلين مع الحركة الدرامية وله دلالاته الخاصة به.

"المسرح بصري مثلما هو سمعي"^(٧٨)، لهذا السبب يجسد يونسكو لإحياء الحوار بواسطة التمثيل. جاك بعد أن أصبح فحلاً يصهل حول روبرتا التي تتحدث عن الصحراء. شوبير، "يغوص في الظلمات" وهو ممسك بذراع مادلين، يمرّ تحت الطاولة، ويتسلّق نحو القمم فيصعد على الكراسي والطاولة.

يمكن للتمثيل أن يخالف الحوار أيضاً. يقترح يونسكو على الممثلين أن "يمثلوا عكس النص"، وبهذه الطريقة يتم تحاشي الحشو والإسهاب وإظهار دلالات جديدة، "على نص أخرق لا معقول هزلي يمكن أن نضيف إخراجاً وأداء رصيناً متميزاً احتفالياً وعلى نقض ذلك، لتحاشي سخرية الدموع السهلة، والحساسية الزائفة، يمكن اللجوء إلى التمثيل البهلواني وتبيان المعنى التراجيدي للمسرحية بواسطة التهريج"^(٧٩). هذا التناقض يجعل الكلمات تعبر عما لم تعبر عنه من قبل أبداً. في مسرحية اللوحة يمكن للحوار فقط أن يجعلنا نعتقد أن المسرحية نقد لاذع "للرأسمالية المستغلة". رغب يونسكو أن يكون التمثيل تقليداً ساخراً، "على أقصى درجة من الغباء" مما يؤدي إلى تغيير المعنى والمداول.

لكن التمثيل يكمل النص في أغلب الأحيان. عندما يتفكك الكلام أو يفرغ من

^(٧٦) على عكس ذلك، ففي المسرح الكلاسيكي تتضمن الإرشادات المسرحية ضمن الحوار، فلنتذكر على سبيل المثال بداية "بيدرا" أو "طرطوفا"، عند موليير أو الحوار بين روبريك وشيمين عند كورناي.

^(٧٧) مجلة الفنون ١٩٦١.

^(٧٨) تجربة المسرح.

^(٧٩) تجربة المسرح.

معناه، تعتمد الاستمرارية الدرامية على الإيماء، في بداية ونهاية المغنية الصلعاء، وخلال حصة فقه اللغة في "الدرس"، لا يبقى من الكلام سوى الضجيج، وسير الأحداث مستمر عبر التمثيل. كذلك لا يبقى ثمة كلام في الرقصة الخليفة التي تختتم مسرحية الامتثال، أو في زوبعة الكراسي، أو في نهاية العطش والجوع.

الأشكال المألوفة جداً في التلحين الإيقاعي الذي تؤديه الشخصيات ثلاث وهي: التكرار والطباق وقلب عناصر الجملة.

من مشهد إلى آخر، وعلى امتداد التطور الدرامي، تتكرر الحركات: آل مارتان يستعيدون دور آل سميث، وتحلّ إحدى وأربعون طالبة محلّ الطالبة السابقة، وفي الفصل الثالث من مسرحية الكركدن يقلّد بيرانجييه جان في المشهد السابق.

الطباق بديل عن التكرار. مجموعتان من الممثلين يؤديان المشهد نفسه على مستويات مختلفة؛ والمشهد المعبر تماماً عن ذلك هو المشهد الرباعي في مسرحية: جان، بيرانجييه، رجل المنطق، السيد العجوز. لكننا نجد أيضاً الأسلوب نفسه في قاتل بلا أجر والمائشي في الهواء.

في مكان آخر يتبادل ممثلان دوريهما. في مسرحية الدرس يتطوّر سلوك كلّ من المدرّس والتلميذة بشكل متناظر. وفي الكركدن وفي أثناء المشهد الذي يجمع ديزي وبيرانجييه يتبادل الاثنان دوريهما أيضاً. في هذه الحالات، التشابه يؤكد الاختلاف؛ كما أنه يبيّن الموقف وانعكاسه.

يستغلّ يونسكو مختلف أشكال التمثيل مما يؤدي إلى توسيع حدود المسرح. إنه يرسم لوحات حيّة: "الزيارة" في المغنية الصلعاء، "العرس الضاحك" في الامتثال، "شرقة المقهى"، و"المكتب" في الكركدن. تسمح هذه اللوحات الحية، عند بداية الفصل أو نهايته، أن تترك في لحظة موقفاً ما، أن توضح مغزى مسرحية، مثلما يفعل الدرس الأخلاقي الذي نستخلصه من قصة ذات مغزى ألعاب خداعية^(٨٠). تزيّن الحركة الدرامية بالزخارف في مسرحية الكركدن يُخرج جان من جيوبه ربطة عنق ومشطاً ومرآة؛ وفي ضحايا الواجب تكّدس مادلين فنانجين القهوة؛ وفي المائشي في الهواء يظهر بيرانجييه ويخفي كثيراً من قطع الاكسسوار. تحقق هذه اللعبة، بمجانيّتها، التوتر الدرامي وتعطي للحركة ليقاعاً أسرع.

^(٨٠) خداعية: illusionisme: توليد أحداث تبدو مناقضة للنواميس الطبيعية. (المهل).

يستخدم يونسكو أيضاً أساليب السيرك ومسرح العرائس فالشخصيات في الامتثال غيّرت وجوهها، وأحلام جوزفين ملأى بالوجوه المضحكة، كما أن مسرحية اللوحة تحمل عنواناً ثانوياً هو "تهريج".

تتحول الحركة أيضاً إلى مسرح ظل، في الفصل الثاني من قائل بلا أجر نشهد مرور خيالات معبّرة خلف نافذة الغرفة: حارسة البناية مع مكتبها، ساعي البريد، مستأجرين، تجار الحارة...

أخيراً، يلغي يونسكو أحياناً التمييز بين المسرح والصالّة؛ ففي الروايتين الأوليتين لنهاية المغنية الصلحاء كان يخطط لوجود بعض الممثلين في الصالّة لمشاركة الجمهور في المسرحية؛ وفي مسرحية "التحيات" يجلس أربع من أصل سبع ممثلين في الصالّة. لم يستغلّ يونسكو أبداً هذا النهج لكنه يستعيد فكرة من أفكار ارتو وهي تطبيق جميع أشكال التمثيلات الشعبية، خصوصاً السيرك، تلك التمثيلات التي تحاول إشراك الجمهور في العرض.

"يمكن الإقدام على كل شيء في المسرح، إنه المكان الذي يحتاج أقل قدر من الجراءة [...] سيّتهمني الناس أنني أقدم الميوزيك - هول والسيرك. حسناً، للدمج السيرك! يمكن أن يُتهم المؤلف بالتعسف لكن الخيال لم يكن أبداً تعسفياً؛ إنه كاشف للأسرار ونبع للإيحاء"^(٨١)..

إن جراءة يونسكو في مجال التمثيل تعطي لرؤية الواقع إمكانيات جديدة. إنها تشقّ طرقاً جديدة للخيال المبدع والنتائج العجيب في الأدب والفن؛ إنها تسمح بتقديم موقف إلى الجمهور لا يمكن الدفاع عنه: العسر والعار في نهاية الامتثال أو اللوحة، القلق والخوف في مسرحية العطش والجوع، من خلال مشهد المهرجين - "أشعر أن ساقلي قد بترتا"، وكما يقول جان، ونحن أيضاً. أخيراً فإن التمثيل هو الذي يولد الحد الأقصى من الانفعال.

الإضاءة، الديكور، الأكسسوار:

الكاتب المسرحي ضابط الإيقاع. كما أنه رسّام ونحات ومهندس معماري. إن رسوخ الأشياء نابع من أنها تحدد حقل الرؤية وتفرض حضورها المادي الذي لا يمكن الاعتراض عليه.

أما الإضاءة فإنها تحقق تأثيرات مادية على المشاهدين وتعطي إحساساً

^(٨١) مقال عن الطليعة.

بالقسوة أو بالعذوبة. عن طريق ملء الألوان والكثافة والرقة والارتعاشات وتباين النور والمساحات الضوئية. إن الإضاءة مرتبطة مباشرة بشعور الغبطة أو الخوف. لقد استغلّ يونسكو تلك التأثيرات كلها في اميديه، الكركدن، الماشي في الهواء، العطش والجوع، الوباء. في الفصل الأول من مسرحية قاتل بلا أجر، الإضاءة هي الديكور الوحيد، وفي مسرحيتي الكراسي والملك يموت تسمح الإضاءة بتنفيذ تحولات الواقع.

استبعد يونسكو النمنمات الكلاسيكية في الديكور سواء كانت رومانتيكية تبهر النظر أو واقعية شديدة التدقيق في التفاصيل كما نجدها عند انطوان. كما رفض يونسكو المسرح الباطني (راسين، كامو) الذي تتطور الشخصيات فيه ما بين الطناق أو على "شرفة قصر ذي أعمدة"، إذ لا بُدَّ من مكان يناسب المشاهد المسرحية. كما رفض أخيراً الديكورات التي تعتمد على الخداع البصري إذ تعطي عن بعد وهم الحقيقة.

هذه مسألة تتعلّق باتجاه النظر وبرؤية العالم؛ فمن خلال منظور إنساني-كلاسيكي، رومانتيكي، واقعي، الخ....-الإنسان وحده هو المعني في الحدث الدرامي أمّا الديكور فليس أكثر من إطار. يرى يونسكو أن الديكور عنصر من عناصر الموقف فالأشياء تندمج بالحدث مثلها مثل الشخصيات، تشكل جزءاً من العرض.

يصوّر البرج وسط الجزيرة عزلة العجوزين في مسرحية الكراسي، ويوحى الباب المغلق دائماً والنوافذ المفتوحة قليلاً باحتجاز اميديه ومادلين، وتعبر غرفة جاك غير المرتبة عن السقوط الأخلاقي؛ والباب الثقيل والحاجز المشبك في مطعم الرهبان يمثلان المصيدة التي تحبس داخلها أحلام جان...

لكن تغيّرات الديكور لها مغزاها هي الأخرى. إنها تساهم في تطوّر الحدث الدرامي؛ التناقض بين الفصلين الأخيرين من مسرحية اميديه، واضح الدلالة إذ يتمّ الانتقال من كابوس المادة إلى رؤية مساحة صغيرة تنبع بالأنوار وضوء القمر، وإلى أشخاصها الذين يشكلون جزءاً من الديكور. إنها مكان حرّ ويحرر المشاهد، وفي هذا التناقض يكمن الحدث الدرامي. في مسرحية قاتل بلا أجر تدعم تغيّرات الديكور الانتقال من الغبطة إلى خيبة الأمل، من الهزل إلى القبح والقلق اللذين نراهما في الحلم. وفي مسرحية الكركدن، تصوّر الديكورات المتتالية الفخ الذي يضيق حول بيرانجيه. وفي مسرحية الملك يموت يعبر تلف الديكور عن تلف الوعي والإدراك. في العطش والجوع تعبر الديكورات الثلاث

عن حالات جان العاطفية.

نجد في بعض المسرحيات ديكوراً أولياً يقدِّد الواقع بطريقة ساخرة.. في المغنية الصلحاء، نرى بيتاً من الداخل (انكليزياً نموذجياً)، وفي اميديه بيتاً من بيوت "صغار البرجوازيين"، وفي الكركدن يُخيَّل لنا أن الساحة الصغيرة تُعلن عن مسرحية من مسرحيات "البولفار". ثم يهتز كل شيء فتصبح الواقعية هزلاً أو وهماً. تهدف هذه الطريقة الساخرة لتدمير رؤية إنسانية متخلفة من أجل إقامة عالم لا يعود الإنسان مركزاً له، عالماً لا إنسانياً.

تندمج الاكسسوارات مع التمثيل والحدث مثل الديكورولها أيضاً نفس الدلالات، ساعة الحائط في المغنية الصلحاء أو اميديه تجعل جريان الزمان ينحرف عن مساره. الأقنعة، رؤوس الحيوانات، السياط، المشائق صور من الأحلام. الجسر الفضائي أو سلم النور يرمزان إلى الأمل. رصف أثاث غرفة الطعام وجهاز الهاتف في اميديه يعني عزلة الزوجين. في مسرحية الكركدن، وفي المشهد الذي يعتقده فيه بيرانجيه أنه يتعرّف على نفسه في الصور الغريبة المعقّلة على الجدار ينبثق المعنى من التناقض ما بين الكلام والأشياء.

لكن تكديس الأشياء والأدوات هو الذي يدعو للقلق والخوف: باليه الكراسي، طناجر الحساء، الجرار أو الفناجين، تزايد عدد البيض، والقطور، والنمو المتسارع للجنة. في انفلات الحركة الآلية التي تصبح جنوناً، تنتج المادة مادة بلا نهاية. الإنسان مخنوق، غريق، جاك يختفي تحت البيض، اميديه ومادلين يعجزان عن الانتقال، المستأجر الجديد يضيع وسط الأثاث الذي يكتسح المدينة، بيرانجيه، جامد في مكانه وسط زحمة المرور.

تكديس الأدوات وحركتها يصبحان سريعاً من فعل الخيال^(٨٧). يخلق يونسكو عالماً تسوده قوانين وأنظمة ليست مألوفة لنا فعالم الهلوسة الناتج عن المادة المتكاثرة ينكر تفوق الإنسان بل يطرد ذلك الإنسان أو يسحقه. التمثيلية التي تحمل هذه الدلالة تأخذ مكانها على مستوى البديهيات، وليس على مستوى الاستدلال والبرهان ومن هنا تكسب قوتها: إنها لا تبرهن بل تعرض. المسرحية ليست هذا أو ذاك.

^(٨٧) يميّز يونسكو جيداً بين "التهريج" الذي يقدم مشاعر سطحية، وبين الغريبة التي تقدّم صورة لعالم آخر. انقلّب حول هذا الموضوع خلافة مع ج-م سيّور الذي أخرج مسرحية اميديه. (راجع سوبرا ص ١١٣).

إنها أشياء كثيرة في وقت واحد،
إنها هذا وذلك.. "محاورات مع كلود بونفوا".

٥ - دلالات

تشير دراسة التقنيات التي استخدمها يونسكو إلى قصده في تحويل الجدي إلى هزلي، السخرية من العقدة، وثقافة الشخصيات، وتفكيك اللغة، والتمثيل الذي يخلط بين الخصوصيات، هذه كلها عناصر تحدد "مسرحاً مضاداً".

لكن التطور الدرامي ينطوي على صراعات وجودية، وسيكولوجية قائمة على ديناميكية صراع الأضداد، وعلى منطق "غير أرسطي" للأحداث والأشخاص، وعلى لغة هي وسيلة لاستكشاف الواقع أكثر من كونها نظاماً للاتصال بين الناس؛ وعلى إخراج منفتح على جميع الأشكال المسرحية مما يسمح بالحديث عن "مسرح جديد".

أشكال قديمة أبدت وأشكال جديدة تأسست، وفن مسرحي يثبت مواقعه. يهدف هذا التجديد في التعبير إلى أن يقدم وصفاً عن اللاتواصل أو أن يعثر على الحقائق الضائعة: الوصول إلى المجهول، طرح البديهيات من جديد؛ ولا يتم ذلك إلا "بإيجاد لغة جديدة"، كما أن مسرح يونسكو يظهر أيضاً كبحث عن اللاواقعية، كتعبير عن الشرط اللا معقول للإنسان، كتأمل في الأشكال المسرحية.

بحث عن اللاواقعية:

مقاصد يونسكو سرالية، تاريخياً وفلسفياً. سار مسرحه على الخط الذي سارت عليه أبحاث جاري، أبو اللينير، فيتراك دينو. أما فنه المسرحي فيعتمد على نظريات ارتو. نحن نعرف رأي بروتون في المغنية الصلعاء^(٨٣). ومن المناسب أن نشير، من منظور عريض، إلى تأثيرات فلوبير ودستوفسكي، وكافكا على يونسكو.

أثناء بحثه عن "الأصالة" استهزأ يونسكو بالواقع السطحي الذي يراه، وسخر من الشخصية الاجتماعية، وهو القالب الجاهز الذي يدخل فيه كل فرد وينكمش. أدان التكفير والسلوك المقولبين اللذين يفصحان عن وجودهما من

^(٨٣) قال بروتون: "هذا ما كنا نريد أن نفعله قبل عشرين عاماً".

خلال الكليشيات اللغوية والتصرفات الآلية. لقد رفض قوانين المنطق العقلي- "أكثر السجون بغضاً ومقتاً"، كما يقول بروتون^(٨٤) - المنطق الكابح والمستبد عن طريق التربية والأسرة والمهنة والعلاقات ضمن المجموعة. لقد طرح من جديد مسألة منظومة القيم الذي يقوم مجتمعنا عليها.

يرى يونسكو أن الشخصية "الحقيقية"، توجد في العمق. ومسرحه كله محاولة لاكتشاف اللاوعي باعتباره نبعاً للتفكير والعمل؛ وفي نفس الوقت على اعتباره الحقيقة السيكولوجية المشتركة بين جميع الأفراد. الحب، ذلك البحث اليائس عن الوحدة الضائعة الموت، وسواس، وجاذب لا يقاوم". الاندهاش من الحياة، كلها هواجس إنسانية، أساسية. الإنسان تحركه الغرائز الجنسية والميول الفطرية التي تطفو على هوامش الوعي وتكشف عن نفسها من خلال حركات مرسومة أو أقوال غير منسجمة. كل فرد منا هو الحلبة التي يتصارع عليها الحب والموت (إيروس) كلمة يونانية تعني الحب، نائاتوس كلمة يونانية تعني الموت).

صوّر يونسكو التمزق والتناقض من حيث الظاهر إذ أن اللاوعي له قوانينه الخاصة به. هناك منطق للتناقضات، وحلٌ لها. من أجل "تغيير الحياة"، ومن أجل أن يصبح العالم "شاعرياً" حقاً، من الأهمية بمكان أن نبحث في ديناميكية اللاوعي عن تجديد الوجود. لم يقل بروتون شيئاً آخر في "البيانات السريالية" وقد كتب عنه يونسكو بمناسبة وفاته: "كان يعيش، ليس في التناقض بل في المفارقة. لقد كان هذا المنظر اللاعقلاني، يوسّع العقل ويعمّقه ويزيده. وكانت اللامعقولية تظهر كأنها الوجه الخفي للعقل الذي كان باستطاعة الوعي اكتشافه والاندماج معه"^(٨٥). هذا أيضاً ما فعله يونسكو في مسرحياته.

اكتشاف هذه "الأعماق"، هذه المناطق المظلمة من النفس مستوحى من التحليل النفسي، من طرائق فرويد وأويونغ التي طبقت على الأدب: وقد التقت، في هذا المجال، مع مناهج وتقنيات السرياليين. استخدم يونسكو الهفوات وزلات اللسان كمصدر للجانب الهزلي لكنه استخدمها أيضاً ككاشف عن الأفكار الكامنة المكبوتة. لجأ يونسكو إلى التناقض في الحوارات والتصرفات. لقد مارس "الكلام الآلي" والقصة الحلمية محطماً بذلك قوقعة النحو ليقدم منطقاً آخر وتربطاً مختلفاً للأفكار والصور، وليقدم بنية أخرى للزمان والمكان. لقد نقل إلى اللغة أساليب

^(٨٤) نادجا.

^(٨٥) حاضر حاضر ماضي حاضر ٣٠ أيلول ١٩٦٦.

التصديق "الكولاج" لبعض المشاهد -التي تكشف أحياناً مغزى المسرحية- تستعيد بشيء من الدقة، أسلوب التمثيل النفساني.

يظهر مسرح يونسكو، سواء من حيث تنفيذه أو من حيث مقاصده، كأنه إكمال للفكر السريالي.

صورة عالم لا معقول:

مسرح يونسكو استقصاء عن الفرد كما أنه ضمير عصر أيضاً. لا نجد أبداً، حتى في مسرحية الكركدن، أية إشارة مباشرة للأحداث الراهنة، لكن مخاوف الشخصيات هي المخاوف التي يشعر بها المرء في أيامنا أمام رعب القيامة، أمام عالم ينضح وحثية ولا إنسانية. تقدّم "الصور المسرحية" مواقف خارج الزمن لكنها ذات طابع تاريخي.

يعبّر يونسكو في مسرحه عن ذلك الضمير الممزق الذي نجده لدى الذين عاشوا ظلمات الديكتاتوريات. لقد رأوا القيم الإنسانية تنهار، وممارسة الحرية تختفي. يتوقعون أن يشهدوا في المستقبل تهديدات ومخاطر أكثر مما يشهدون من الآمال. إنهم يعانون بقسوة من لا معقولة عالم في منتهى الفوضى، ويتألمون من وضع إنساني ميؤوس منه^(٨١).

تعبّر المواقف التي أوردها يونسكو في مسرحياته عن انسحاق الفرد. السادية والعنف هما طابع العلاقات مع الآخرين. في الدرس وضحايا الواجب. سيطرة الجماعة العائلية أو الاجتماعية واضحة. في جاك، الكركدن، العطش والجوع. طغيان الأيديولوجيات موجود في كل مكان من مسرحياته. الإنسان وحيد لأنه غير جذير بالأخوة (الكركدن)، عاجز عن تحقيق الحب الدائم. العلاقة بين الرجل والمرأة سريعة الزوال (الكركدن)، أو تافهة (المغنية الصلحاء)، أو أن العلاقة بين الرجل والمرأة تقتصر على الجنس (جاك)، أو على ارتباط جهنمي، أو على "جلسة سرية"، تربط بين كائنين عاجزين عن الحب ومحكوم عليهما أن يعذب أحدهما الآخر (ضحايا الواجب، اميديه، العطش والجوع).

الوحدة الإنسانية هي أيضاً وحدة الموت. لقد جعلت الأفكار الإنسانية من الإنسان ملكاً، لكنه ملك مخلوع، إذ إنه يموت، وحيداً، يموت. يسلب الموت من

^(٨١) كان يونسكو في الخامسة والعشرين عندما سيطرت النازية على رومانيا وكان في الثالثة والثلاثين، عندما انتهت الحرب.

الوجود قيمته: المدينة المشعة لاجدوى منها فهناك القاتل يعث فيها؛ وبيرانجيه "الماشى في الهواء" عاجز عن الكتابة إذ لا شفاء من الموت-ويحلم جان ببلاذ، الموت فيها ممنوع.

الموت كابوس جماعي كما أنه وسواس فردي. "الحب والكرهية، الحب والدمار، إنه تعارض، يعطي بأهميته الكبرى الانطباع باللامعقول، فكيف نشيد منطقاً انطلاقاً من ذلك، ديالكتيكاً؟"^(٨٧).

يحكي مسرح يونسكو عن موت الإنسان كما يحكي أيضاً عن موت الله. ما وراء العالم ماهو إلا فوضى وعماء؛ ولا يفكر بييرانجيه الأول خلال احتضاره إلا بالماضي؛ والعبرة التي يعبرها لا توصله إلا إلى العدم، والسلم القضبي في مسرحية العطش والجوع هو تساؤل كبير حول معنى الحياة وليس أملاً في الآخرة. المصير مسدود لا مخرج له. ومسألة المطلق هي غياب، والرجاء الوحيد هو "العدم الكبير".

تتضاعف المادة وتتكاثر في كل مكان من مسرح يونسكو؛ تغرق الكائنات فيها أو تختلط معها حتى تصبح هي نفسها مادة ولا يعود العالم إنسانياً.

إدراك هذا الوضع المأساوي، وهذه الصراعات التي تمرق الفرد، التي تضع الفرد في مواجهة المجموع، وتضع الإنسان في مواجهة المادة التي تحيط به، ورفض الإنسان لهذا المصير، لهذا التحول دون هدف في عالم بلا حدود، هذان هما وجهها علم الأخلاق القائم على فلسفة "اللامعقول".

"إن شرطنا الوجودي لا معقول، لا أحد يريد أن يأتي إلى العالم. لا أحد يريد الخروج منه"^(٨٨).

تلقي اهتمامات يونسكو ورؤيته للواقع مع كتاب وفلاسفة قدموا، غداة الحرب، الفرد محاصراً من جميع الجهات بالوحشية واللا إنسانية، قدموه "غريباً" محكوماً عليه بالصحو، محكوماً عليه بـ "جلسة سرية" حيث نظرة الإنسان الآخر تشكل جحيماً له، قدموه مسؤولاً مسؤولية كاملة عن مصير لم يختره؛ ومعرضاً لكل أنواع الفشل.

بهذا المعنى فإن أعمال يونسكو "ملتزمة" تاريخياً. لم تدع أبداً علناً إلى مبدأ

^(٨٧) محاورات مع كلود بونفوا.

^(٨٨) عن كتاب "أزهار تارب" لمؤلفه جان بولان في الديوان الذي ظهر بعد وفاته "الحق في أن نعلم". المطبوعات الجامعية الفرنسية. ١٩٧٠.

أخلاقي أو نظام من القيم لأن يونسكو لا يقبل أن يضع إيديولوجية ما مقابل إيديولوجيات أخرى لكن رفضه وإدراكه للمسائل المطروحة يؤكدان التزامه. المسرح الملترزم لا يقتصر فقط على الأشكال التي قدمها إبسن أو بريخت أوسارتر. هناك "الترزام" وهناك "مسرح" في كل مرة تطرح مشكلة الإنسان ومصيره في تقاطعهما مع الزمان والأبدية.

لكن سارتر وكامو عبّرا عن اختيارهما دون أن يعدّلا في البنى الأدبية أما يونسكو فقد طرح من جديد مسألة الأشكال المسرحية، إن مسرحه تأمل فني جمالي.

تأملات حول الأشكال المسرحية:

"ما العمل حتى يصبح الأدب استكشافاً مثيراً للاهتمام؟ سأل بيرانجييه في مسرحية الماشي في الهواء. كذلك كان يونسكو يسأل نفسه عندما يجعل شخصياته تتكلم: شوبير، نيكولا دو، بيرانجييه، الصحفي، وهكذا تسأل أيضاً عندما قدم نفسه على المسرح في مسرحية الما. ولقد أجاب عن ذلك مسرحه كله عندما كان يخترع الأشكال التي عرض من خلالها بديهيته رؤيته للعالم.

"الكتابة هي التفكير في الكلمات"، كما قال باشولار^(٨٩) أما قضية الكتابة فيجب أن تعطي الأشياء مدلولات جديدة. لقد عالج سارتر وكامو، وهما الوفيان لعلم الجمال التقليدي، مسألة اللامعقول في مسرحياتهما أو قصصهما بواسطة كلام عقلاني وأساطير تاريخية. هناك إذن تفاوت بين الأشكال وبين رؤية العالم، بين الكلمة والمدلول، لكنهما كانا يعرفان مسبقاً ما يريدان أن يقولوا.

أما عند يونسكو فعلى العكس إذ أن الأشكال الجديدة هي التي تخترع الدلالة والمغزى. اللا واقعية موجودة في قصص الأحلام والتمثيل النفساني، وتنبثق أساطير جديدة (كركدنات وفطور)، من الهلوسات اللا واعية كما أن تفكك الصور المسرحية يرمز إلى تفكك العالم وكارثة الكلام تجمّد تصدع القيم في جثث من الكلمات؛ فالأم ببيا وثاراباس نبيان كاذبان لعالم مجنون. إن لا معقولية العالم هي بدهية حيّة.

هذه الأشكال الجديدة مقصودة ومدبّرة. إنها ترسخ عالماً مسرحياً ينقل الواقع

^(٨٩) عن كتاب "ازهار في تارب" لمؤلفه جان بولان في الديوان الذي ظهر بعد وفاته "الحق في أن نحلّم". المطبوعات الجامعية الفرنسية ١٩٧٠.

ويعطيه مدلولاً، فتحوّلات الشرطي إلى أب أو طبيب، ومسوخ الناس إلى كركندات أو أوز، الأشخاص التافهون الكبار أكثر من الحالة الطبيعية، والمملكة التي تتضامل حتى تصبح حفنة من رمال، والجثة التي تتضخم... هذه الصور كلها لا قيمة لها إلا لأنها ذات مغزى. إنها أمور متفق عليها. بين المؤلف والجمهور. لم تأت هذه الاتفاقات دفعة واحدة ومن هنا نشأت المقاومة والعداوة ليونسكو واستمرت حوالي عشر سنوات.

لكي نتال هذه الاتفاقات - وهي كل قوانين الفن المسرحي عند يونسكو - القبول اضطر المؤلف لإدخال بعض العلاقات الحقيقية، لكنها لا تحمل أي معنى، وهذه أيضاً اتفاقات بين المؤلف والجمهور^(٩٠). هكذا يقدّم يونسكو عناصر تعيد الجمهور إلى الاستخدامات والعادات والتصرفات المألوفة: قضاء سهرة عائلية، كيفية طلب الكونياك في كأس كبيرة، أحاديث المتفرجين في المسرح، وفي الوقت نفسه، يقطع القصة بتلميحات مباشرة إلى تمثيل الممثلين أو إلى زمن العرض أو إلى مسؤولي الآلات والاكسسوارات ليؤكد أن مغزى المسرحية ليس في هذه العناصر "الواقعية"، وليؤكد أنه لا يكتب مسرحيات "طبيعية".

تغيرات ذات مغزى وتأثيرات الواقع: هذا النظام المزوج من الاتفاقات يحدّد تقنية وبنية المسرح. هذا النظام المزوج يدعم ويكشف رؤية المؤلف للعالم، ولذا فإن الكاتب الأصول يفكر بالأشكال والصيغ ويطرحها من جديد على بساط البحث. لا يمكن أن يتم تأكيد القيم الجديدة إلا بواسطة فن يتم اختراعه من جديد، وتكمن عظمة يونسكو في إدراك ذلك وتطبيقه.

^(٩٠) هناك طرفة توضح هذه المسألة جيداً وقد رواها يونسكو لكلود بولفوا. في الولايات المتحدة، وافق مخرج مسرحية الكركند على موضوع المسرحية وقيل فكرة تحوّل شعب بأكمله إلى حيوانات سمكية الجلد، لكن شيئاً ما كان يقلقه: قال لي: "اسمعي، سوف أضيف، بعد إنك طبعاً، جملة في مسرحيتك وإليك السبب، عند بداية الفصل الثالث يذهب بيراجيه، وهو بطل المسرحية إلى غرفة صديقه جان [...] سسمح لي إذن أن أضيف جملة عند نهاية الفصل الثاني، إذ أن هذه البداية غير ممكنة [...] هناك جهاز الهاتف في المكتب الذي يعمل فيه بيراجيه، يرفع السماعة، يدق الرقم ويقول: سأطلب صديقي جان لأرى إن كان في غرفته". بالنسبة للمخرج وللجمهور الأمريكي المسخ مقبول لأن له دلالة، إنه رمزي أو قياسي وهذا من بين الأمور المتفق عليها في المسرح الغرائبي الخيالي، وبالمقابل، يبدو من غير المقبول أن يذهب المرء إلى عند صديقه دون أن يبتف له مسبقاً، هذا لا يجوز، وليس مألوفاً، فلا يجوز "عرضه" إذن. وهنا نرى جيداً تكاملية هذين النظامين من الاتفاقات.

خاتمة:

من السخرية أن نكتب خاتمة عن يونسكو في اللحظة التي ظهر فيها في المكتبات كتابه الجديد "اكتشافات" وهو تأملات حول "دروب الإبداع" في اللحظة التي تعرض فيها مسرحيته "لعبة القتل" في ألمانيا، هذه المسرحية التي ترسخ أسلوباً جديداً، على أحسن حال، يمكننا أن نلقي نظرة شاملة على الوضع في مجمله بعد عشرين سنة من الإبداع والصراعات الأدبية.

أهمية يونسكو ليست في سعيه للبرهنة والإثبات. نتاجه الأدبي يفرض نفسه من خلال المسرحيات، يفرض نفسه من خلال الحضور والنجاح. لقد قرئت أعماله ومُثلت وترجمت إلى جميع اللغات؛ يفرض نفسه لأصاليته بشكل خاص.

لقد نجح يونسكو فيما فشل فيه ألفريد جاري وانتونان ارتو. لقد سلب مسرح "البولفار" الثقة والسمعة، بل ربما دمر ذلك المسرح الذي يمثل تجسيدا متقهقرا للمدرسة الطبيعية. لقد خلق أشكالاً مسرحية جديدة واستخدم تقنيات جديدة في التعبير؛ صور عبثة العالم وكشف لا معقوليته. لقد غير حساسية الجمهور.

أنكر البعض أهمية أعماله. قدر المؤلف الطليعي أن يقدم أقنعة جديدة لاديدولوجيات عتيقة. كتب بارت منذ عام ١٩٥٦ في "المسرح الشعبي": "من المؤسف أن تتبع الطليعة تطور البرجوازية الطفيلية المالكة، يخيّل لنا اليوم أننا نشهد موتها البطيء [...] سواء أكانت البرجوازية تعيد توظيف استثماراتها في تلك الطليعة، سينتهي بها الأمر إلى حضور الأمسيات الجميلة التي تعرض فيها مسرحيات بيكيت واوديبيرتي (وغداً سنشهد مسرحيات يونسكو الذي تأقلم مسبقاً مع النقد ذي النزعة الإنسانية)^(٩١). فهل كان النجاح، والتكريس، والجوائز الأدبية، والدخول إلى الأكاديمية أحداثاً تؤكد صواب رأي بارت؟

الحديث عن "التعويض" يعني نسباً أن كل صراع - وهذه هي حالة يونسكو مع الجمهور والنقاد - يُحلّ دياكتيكياً. فإذا ما أصبح مسرح يونسكو أقلّ عنفاً بعد عام ١٩٥٦، وإذا ما حكم عليه أنه أكثر "كلاسيكية" فذلك لأنه رسّخ طريقة جديدة في الرؤية والإحساس؛ فلم يعد ممكناً الآن الكتابة للمسرح دون الأخذ بعين الاعتبار كل ما أوجده يونسكو.

في الطريق الذي شقّه يونسكو، ستسمح أبحاث في الكتابة والإخراج

^(٩١) صاحب النزعة الإنسانية: humanisto؛ معتنق المذهب الإنساني، وهي مذهب يحتي بتنمية مناقب الإنسان وفكره بما يمثله من ثقافة أدبية أو علمية.

بالذهاب بعيداً، ستسمح بتعميق رؤية مافوق الواقع وإعطاء التعبير مزيداً من العمق، وإدانة "القسوة" (بالمعنى الذي استعمل فيه ارتو هذه الكلمة)، في مسرحه. يونسكو واحد من أولئك الذين "يؤسسون مدرسة".

يمكننا أن نقول مع ذلك إن بحثه عن الأصالة في "العمق" وإحساسه باللامعقول المثير للقلق، يبقيان مرتبطين بفلسفة وبجماليات تعطي الامتيازات إلى القيم التي يؤمن بها الفرد ولا تهتم بالعلاقات الجدلية التي تنشأ بين الفرد والمجتمع. ليس هناك شرط إنساني فردي، ثابت، غير قابل للعلاج.

الاستلاب مرتبط بحالة اجتماعية. القلق يرجع حقاً إلى أسباب انطولوجية لكنه يعبر عن رفض تجربة تتصف بالتقهقر التدريجي للقيم الإنسانية.

العلاقات بين الفرد والمجتمع علاقات ديناميكية وليست تعسفية فقط. ربما كانت رسالة الفن الدرامي في بيان أن تلك العلاقات قابلة للتغيير..

"تأسيس مدرسة" يعني أن يكون هناك تلاميذ ومريدين، ويعني أيضاً إثارة المناقشات والخلافات. لقد صرح يونسكو بذلك إلى كلود بونفوا: "هذه هي فائدة المدرسة: خلق أسلوب لا بد من تدميره في المستقبل".

يونسكو والنقد

لن نستطيع أن نقف هنا جميع الآراء والأحكام المتعلقة بمسرح يونسكو...
تبيّن المراجع وفرة -و غالباً- النقد. لكن لن يكون جهداً ضائعاً إذا ما
تابعنا، عاماً بعد عام، ردود الفعل على هذا الكاتب الجديد: معارضة غير مبررة
لمسرح مخالف للمألوف، وتراجعات عن بعض الآراء. كان لابد من الانتظار
حوالي عشر سنوات لكي نجني ثمرة ذلك الجهد المستمر لتفسير وتوضيح تلك
المؤلفات.

١ - اكتشاف مؤلف مجهول:

كانت ردود الفعل على العروض الأولى في سنوات (١٩٥٠-١٩٥٣)،
سطحية على وجه الخصوص. تحدّث معظم النقاد عن الفضيحة والعار،
وبعضهم، وهم نادرون طبعاً، عبّروا عن حماسهم وتأييدهم.

جان بابتيست جينييه (الفيجارو ١٣ آيار ١٩٥٠).

ما أروع الشجاعة الفائقة التي أبداهَا أولئك الذين، دون أي خلل، حفظوا
وأحسّوا تأويل وتجسيد النصّ الفريد الغريب من نوعه عند يونسكو، بعد أن
تساموا به. فما الذي يمنعهم من أن يسلّطوا أضواء النهار الجديد الذي تتكشف
فيه أبعاد موليير وفيتراك من خلال اكتشافهم للعالم الجديد بكل ما فيه من عبق
مذهل؟!...

بالانتظار، إنهم يسلبون المسرح بعض مشاهديه...

جابريل مارسيل (البوقين ليثيرير ٥ آذار ١٩٥٣).

خليط متنافر تلك هي الكلمة التي ترد على ذهن بعد مشاهدة مسرحية
يونسكو "ضحايًا الواجب". تبدأ بداية ساخرة، ناشرة طبعاً [...] لكن يفسد كل
شيء بسرعة...

روبير كمب (لوموند ٢٨ شباط ١٩٥٣).

أبدأ بالقول إنه فيما يتعلّق بمعرفة الإنسان والأخلاق والميتافيزيكيا فكل ما قدّمه المؤلف السيد أوجين يونسكو يساوي الصفر تماماً. كما أن مسرحيته سواء كانت رصينة أو ساخرة، تقليدية أم تهكمية، تعتمد على القرويديّة، على الوعي وماتحت الوعي، على الخير والشر، والغاز أخرى. إنها تصنع من هذه الموضوعات النبيلة السامية خليطاً مرعباً، مكرراً، "مرهقاً" من شدّة الاندفاع.

١ - ثور ادا موف (آر ١٧ أيار ١٩٥٢).

لماذا هذه اللهجة اللفظة التي تنمّ عن الاحتقار التي استخدمها النقاد في حديثهم عن "الكراسي"؟ بعد التفكير يظهر تفسير واحد وهو أن مسرحية يونسكو اكتشفت شيئاً ما لا يرغب المرء في الاعتراف به، وهذا يعني، بكلمتين، الشيخوخة الحقيقية التي لا علاقة لها بالعمر، والتي تمثّل، عند مستوى معين من الوعي، حالة من الحياة الإنسانية. ينلّه المرء بعلم الجمال، بينما يخشى في الحقيقة صورة عجز يجعل الوجود الإنساني يرتد إلى مرحلة الولادة دون أن يطرأ عليه أي تطوّر من المهد إلى اللحد. أمّا والحالة هذه، فإن يونسكو اكتشف هذه الصورة المرعبة في نفسه وجعلنا نكتشفها بدورنا بواسطة وسائل مسرحية ملائمة.

الآن روب - غرييه (كربنيك ١٩٥٣).

أن يتحقّق الإضحاك فذلك لا نقاش فيه، بل يمكن أن يقال إن أفضل ما في أية مسرحية هو ما يضحكنا أكثر. لكن من المستحيل مع ذلك أن نفسّر هذه الفقرات لتتصوّر تحت عناوين، رغم أهمية هذه العناوين، المضحك والهزلي والساخر. بل على العكس، ربما لم يكن الضحك هنا سوى وسيلة، وسيلة لإخراجنا من عاداتنا الثقافية الحكيمة.

المنهجية (الديكارتية)، (ترد هذه الصفة كثيراً في النص، في اللحظات غير المتوقّعة)، وسيلة تنقلنا إلى عالم أغنى حيث يحوي الأسبوع يومي ثلاثاء، حيث يجب عدم الخلط بين ينبوع وينبوع، حيث تضع سيدة المنزل، بكل جدية، خمسين فنجان شاي على الطاولة من أجل ثلاثة أشخاص فقط.

- قضية مسرح جديد:

بدءاً من عامي (١٩٥٣-١٩٥٤)، راح النقاد يبررون أحكامهم، عادوا إلى الوراء عدة سنوات وصار بمقدورهم أن يقارنوا بين عشرات المسرحيات والتمثيليات القصيرة. رغم ذلك بقيت أحكامهم عدائية أكثر من كونها متسامحة، شاملة، تحاول فهم هذا المسرح الجديد. درست قضية يونسكو وكانت مأخذ النقاد عليه جهله لعلم النفس، وعدم معرفته لقواعد المسرح واقتضاه للأسلوب. كما اتهموا مسرحه أيضاً بالترويج للأيديولوجية البرجوازية، على نقيض ذلك، أبرز المدافعون عنه الجودة والقوة الساخرة، الغرابة والجرأة والفكاهة وأصالة أشكال التعبير.

روبير كمب (لوموند ١٨ تشرين الأول ١٩٥٥).

السيد يونسكو شاب من صنف الفريد جاري، لم يخف أبداً أنه مكتوب عليه أن يقدم "مساهمته المتواضعة في هدم مسرح مجدّد" [.....]. يمثل يونسكو في نظر مجموعة صغيرة، صغيرة جداً، "محرراً". إنه بوليفار^(٩١) المسرح... فليحتفظ بوهمه الجميل. إنه فضولية تافهة في مسرح اليوم [.....].

لو كان طبقاً بجديّة مواهبه الأكيدة في الكتابة لأنتج أشياء لها قيمتها. لكن مسرحيتي "اللوحه" و"جاك" اللتين شاهدناهما منذ برهة ماهما سوى ذباب لأكل الذباب (إضاعة وقت). الحوار ثقيل، رديء، من صنف ثانٍ كما يقول اللحام.

رولان بارت (المسرح الشعبي، العدد ١٨، الأول من آذار، ١٩٥٦).

ليست الطليعة أبداً سوى طريقة لتمجيد الموت البرجوازي إذ أن موتها ينتمي إلى البرجوازية أيضاً. لكن الطليعة عاجزة عن الذهاب أبعد من ذلك وكأنها لا تستطيع أن تدرك النهاية المفاجئة التي تعبر عنها، مثل لحظة انتاش البذور، ومثل الانتقال من مجتمع مغلق إلى مجتمع مفتوح [.....].

بما أن الطليعة تعيش على البرجوازية وتعبّر عن ممتلكاتها، فمن المؤسف أن تسابير تطورها. يخيل لنا أننا نشهد موتها ببطء، وسواء أكانت البرجوازية تريد توظيف استثماراتها كاملة في تلك الطليعة، سينتهي بها الحال إلى حضور الأمسيات التي تعرض فيها مسرحيات بيكيت وأديبرتي (وغداً ستعرض مسرحيات يونسكو الذي تأقلم سريعاً مع نقد الإنسانيين) وسواء أكان الكاتب

^(٩١) بوليفار: سيمون بوليفار، الجنرال الذي حاول تحرير وتوحيد أمريكا اللاتينية.

الطليعي، وقد أقرَّ بوجود مضمون سياسي للمسرح، يتخلَّى بالتدرّج عن التأكيد الجمالي البحت (وهذه هي حالة اداموف بلا شك)، ليندفع على طريق الواقعية الجديدة.

برنارد دور (المسرح الشعبي. العدد ١٨. آذار ١٩٥٦).

أن يرفض المشاهد (إذ لا يمكن الحديث عن الجمهور) - هذا المشاهد الفردي، بديل المؤلف - أو يقبل مسرح الرعب هذا، ليس لاختياره، في الحقيقة، أية أهمية، إذ، في النهاية، لأشياء قد حدثت. لقد ألغى هذا المسرح العالم لكن بطريقة خيالية وهمية، ولهذا السبب فإن هذا المسرح هو الذي ألغى نفسه، أنكر نفسه بنفسه.

كينيث تايلان (الايسرقر ٢٢ حزيران ١٩٥٨).

لقد خلق السيد يونسكو عالماً من الرجال الآليين (الروبوت)، المتوحدين يتبادلون فيما بينهم حوارات شبيهة بحوارات "حكايات" الأطفال، حوارات مضحكة أحياناً ذات إحياء أحياناً أخرى، وغالباً لا تكون هذه ولا تلك فتسبب آنذاك سأمًا عظيمًا.. مسرحيات يونسكو تشبه حكايات الكلاب الناطقة، لا يستطيع المرء سماعها مرتين [...] يحقق السيد يونسكو حقاً "انطلاقاً للواقعية"، لكنه انطلق نحو أي شيء؟ نحو طريق مسدود، ربما كان مزيئاً بزخارف تنطيفية^(١٣) على الجدران: أو بجرس يدعونا المؤلف على قرعائه الحزينة أن نلاحظ انعدام الهواء أو، وهو الأفضل، يدعونا إلى نزهة طويلة في القطار الشبح، المملوء بالجمامج والأقنعة الشعبية التي تعوي وتصرخ... لكننا ندخل بعد ذلك إلى الواقع اليومي حيث الضوضاء بالرعب الأشد.

مسرح يونسكو لاذع، جارح، مهيج، لكنه يبقى تسلية هامشية ولم يأخذ مكانه في هذه المسيرة الكبيرة والاذعاء أنه كذلك لا يقدم خدمة لا ليونسكو ولا للمسرح عموماً.

كينيث تايلان (الايسرقر ٢ تموز ١٩٥٨).

لقد بقي (السيد يونسكو) أسير التكيبية. كان التكيبيون يلجأون إلى تشويه الأشكال ليحققوا اكتشافات في مجال طبيعة الواقع الموضوعي. يعتقد السيد يونسكو أن لتشويهاته قيمة أعظم وأهمية أكبر من العالم الخارجي الذي يحاول تقديمه [...].

^(١٣) تنطيفية: Tachisme، نزعة في الفن التجريدي للرسم باللطخات.

الخطر الذي يهدد يونسكو هو أن يسجن نفسه في قاعة المرايا هذه، المعروفة في الفلسفة باسم الأحادية^(٩٤). الفن يعيش على الحياة مثلاً. يعيش النقد على الفن. لقد حطّم السيد يونسكو ومؤيدوه هذه العلاقة وعزلوا أنفسهم وراحوا يطمحون إلى نوع من الجمودية الهادئة التي تقاوم كل تجديد.

جاك لومارشان (مقدمة مسرح يونسكو ١٩٥٤).

ليس هذا المسرح مسرحاً سيكولوجياً ولا رمزياً ولا اجتماعياً ولا شعرياً ولا سريالياً. إنه مسرح لم تتحدد وصفته بعد، مسرح لم يأخذ مكانه في أي قسم من أقسام المسرح الجاهزة (إنه مسرح) على القياس) لكنني أشعر تماماً أن أمري سينكشف إذا لم أجد تسمية لهذا المسرح.

إنه بالنسبة لي مسرح مغامرات إذا ما أخذنا كلمة مغامرات بالمعنى الذي نفهمه عندما نقول رواية مغامرات. إنه مسرح فروسية لا يخضع للمنطق مثل مغامرات "قاتوماس" غير حقيقي مثل رواية جزيرة الكنز، لا عقلاني مثل رواية الفرسان الثلاثة، لكن هذا المسرح، مثله مثل تلك الروايات، شاعري، ساخر، مثير. إنه ينتهك قواعد اللعبة، وأنا أعرف ذلك. إنه مع ذلك... نقيض المسرح الذي يتستر على العيوب/نقيض المسرح.

اندريه بروتون (دفاتر الفصول ١٩٥٥).

مرة أخرى تُعرض مسرحية جديدة ليونسكو على مسرح لاهو شيث المغروس في قلب باريس القديمة، وهودواتها الصاخبة التي تجتذب لها صخب المدينة كله، وكما كنا في عزّ طفولتنا رحنا نهيء أنفسنا إلى مشاهدتها، وهي تتمايل بانعطافاتها الواسعة، ونقفز فوق نفسها كما لو أنها تستسلم، بلا مقاومة، إلى نبضات قلوبنا.

جان انوي (الفيجارو ٢٣ نيسان ١٩٥٦).

(عن مسرحية الكراسي) أعتقد تماماً أن هذه المسرحية أفضل مسرحيات سترندبرغ لأنها مسرحية سوداء "على طريقة مولير" وأحياناً تكون مضحكة جداً، كما أنها مسرحية مخيفة، غريبة، موجعة، صحيحة دائماً، كلاسيكية - عدا تلك الحركة الطليعية البالية التي لم أحبها عند نهاية المسرحية...

^(٩٤) الأحادية Solipsisme: مذهب يقرر أن الأكأ وحده هو الموجود وأن الفكر لا يدرك سوى تصوراتَه (المنهل).

انهيار التحالفات.

تغيّر موقف النقاد بشكل ملموس منذ مسرحيتي قاتل بلا أجر والكركدن.. وافق بعض الأنصار الأوائل على تطوّر يونسكو لكن آخرين، رغم سرورهم لنجاح المؤلف، تحسّروا على المسرحيات الساخرة المدمّرة التي كتبها في بداية حياته الأدبية. اتهموا "الرجل العظيم" بالرمزية والنزعة الإنسانية وربما اتهموه بالانتهازية. على عكس ذلك فإن بعض الذين سخطوا عليه عام ١٩٥٠. مدحوا المسرحيات الجديدة وصفقوا لها. أخذ النقاد "الملتزمون على يونسكو عدم اهتمامه بالمشاكل الراهنة.

جان سيلز (الآداب الجديدة ٤ آذار ١٩٥٩).

لم يخلق يونسكو فقط شكلاً مسرحياً تختفي فيه الشخصيات واللغة والديكور والاكسسوار باكتسابها وظيفة جديدة، بل خلق مُشاهداً أيضاً.

إلزا تريولييه (الآداب الفرنسية شباط ١٩٦٠).

كم كانت دهشتي عظيمة أمام المقالات الأولى التي ظهرت! هل كان على بصري غشاً؟ هل أخطأت الحكم؟ هل أصيب نقاد اليسار بمرض خرتة حاد؟ [.....] هاهم يقومون قيامة كركدن واحد ضد المسرحية، يحكمون عليها من وجهة نظر الكركدنات. حتى لا يؤخذوا على حين غرة ولا يجدوا أنفسهم خارج جماعة الجهادة - الكركدنات.

روبير كمب (لوموند آذار ١٩٥٩).

أيتها الرمزية، هاهي ضرباتك! لقد سلبت من كاتب مسرحي أصيل، حاد الطبع جزءاً من قريحته وبريقه. "قاتل بلا أجر" مسرحية ذات وزن، وزن كبير، بالنسبة للحقائق التي تحملها وهي حقائق خفيفة (راجع آراء الناقد نفسه عامي ١٩٥٣-١٩٥٥).

برتران يوارو- ديلش (لوموند كانون الثاني ١٩٦٠).

"لن أستسلم أبداً" هكذا صرح بطل مسرحية الكركدن في وجه محاولات الامتنائية (الخصوع للأعراف المقررة)؟ أمّا فيما يتعلق بالمؤلف فالاستسلام حقيقة واقعة، للأسف... لننقق إذن. لقد كان موقفاً صحيحاً، مطلوباً، أن تكرّس باريس، ومعها أوروبا كلها، الشاعر الحقيقي الذي كتب المغنية الصلعاء. لكن إنساناً ورعاً من عصر الدياميس له الحق في أن يحزن لأن يونسكو بعد أن اكتشف

تفاهة الابتذال سقط، وهو يتابع طريقه، في ابتذال التفاهة وفي الرمزية الوعظية التي كان يلعبها.

غري لوكليرك (الاومانيتيه).

لقد أضاف يونسكو شيئاً إلى المسرح الفرنسي المعاصر: أضاف نقداً للغة والحياة المتعارف عليهما؟ وتصويراً لاستلاب الإنسان في المجتمع الحالي، وأسلوباً درامياً جديداً ومثيراً. كانت مسرحياته ذات الفصل الواحد ذات شحنة مملوءة نقد وتصدد، أما مسرحياته ذات الفصول الثلاثة - الكركدن، قاتل بلا أجر - فهي ذات شحنة مفرغة^(١٥).

اندرية سيمون (اليسبري، نيسان ١٩٦٠).

يمتاز يونسكو بكثير من الظرافة ويمثلها من الإرادة الطيبة. على عكس المظاهر، لم يحاول أبداً أن يزعج أو يكثر، ولكي يشكر هؤلاء السادة والسيدات الذين انتزعوه من مسارح الأقبية. تظاهر بالجدية مع نفسه ومعهم. إنه يعمل مع أصحاب النزعة الإنسانية الشاملة، ضمن المشاعر الطيبة والأفكار العظيمة...

كيف حدث أن أول المخلصين له استقبلوه ببرودة واتهموا الرجل العظيم بالانتهازية؟

جيل ساندبيه (آر ٢١ كانون الأول ١٩٦٦).

من المؤثر حتماً أن نرى يونسكو وهو ينظر إلى الموت على المسرح مثلما يفعل ذلك في الحياة. لكن هذا الملك الذي يرمز للتشيطان، منقل إلى حذر ما بالاستعارات والمجازات... إنه الإنسان، إنه الله، إنه الإنسان - الإله، إنه المسيح، إنه أوجين يونسكو، وهذا يعني الكثير. يتحسر المرء على يوسويه، يتحسر على شكسبير، يفكر المرء بما ترلنك، ويتحسر على "الكراسي".

جان فينيو رون (لاكروا شباط ١٩٦٠).

لا مجال للخطأ هذه المرة فيونسكو يكتب بلغة فرنسية كما أن مسرحية الخريت (الكركدن) عمل واضح تماماً، فيه رمزية شفافة، قوية جداً، بحيث يمكن النفاذ إليها كما أنها ذات مضمون عظيم جداً بحيث يستطيع الجميع إدراك مغزاها.

جورج ليزمبيه (غازيت دولوزان ١٢ كانون الثاني ١٩٦٣).

^(١٥) شحنة مفرغة: مقذوفة متفجرة توضع حشوتها بحيث توجه إلى الأمام وهي بلينة التأثير على المدرعات.

هذا الغنائي التهكمي، هذا التراجيدي الساخر، هذا المهرج الميتافيزيكي، يأخذ منا أكثر مافي اللغة من إنسانية. مواضيعه هي مواضيعنا، وأولئك الذين مازالوا يهتمون يونسكو بالانغلاق والعمى، إذا ما وجدوا، هم العميان حقاً.

جان - جاك غوتييه (الفيجارو ٧ كانون الأول ١٩٦٦).

نعم، ها أنذا أقول وأكرر: "الملك يموت"، مسرحية إنسانية، مركزة، جيدة التأليف، حسنة الكتابة، فيها شاعرية عظيمة، إنها عمل مؤثر موجه، إنها مضحكة أيضاً. إنها تراجيكوميديا شكسبيرية. اذهبوا لمشاهدتها، إنها تستحق العناء.

بيير نيريو دويوادر (لبنوفيل ليثيرير ٧ نيسان ١٩٦٦).

(عن مسرحية العطش والجوع). عمل حرّ، غني، جميل، متحرر من جميع الايديولوجيات، على اتصال مباشر مع القلق العميق الذي يعانيه هذا القرن وتحمل المسرحية سماته؛ لكنها تتجاوز للضرورة الفكرية التي لا جدال فيها والتي تظهر في المسرحية. إنها دراما غريبة عظيمة يمكن الانتقال فيها ببسر من الهزلي إلى التراجيدي ومن اليومي إلى الأبدية.

رونيه سوريل (الأزمة الحديثة نيسان ١٩٥٩).

عبثاً يفتش المرء في هذه المسرحيات عن علامة من علامات عصرنا.

هانز ماير (المسرح الشعبي العدد ٥٠، ١٩٦٣).

فرد وحيد ومعه ميزته الخاصة: تهديد القلق والموت. صاحب ايديولوجية يراوده وهم أنه يحارب كل الايديولوجيات. مؤلف مسرحي ذو رسالة موجهة إلى شخص واحد. لكن هذه الشخصيات المتفردة كلها، المتباهية بحريتها، التي تتحدث وتكتب ضد حضارة الجماعة هي في الحقيقة تعبير عن حضارة الجماعة تلك.

محاولات تفسيرية:

بعد عشر سنوات من النضال و"الفشل المتعاضم" فرض يونسكو نفسه على الجمهور حوالي عام ١٩٦٠. آنذاك بذل النقد جهداً مقبولاً لفهم مسرحياته وتفسيرها. حلل النقد الفن المسرحي، والتنفيذ، وبنية الحدث، والشخصيات

واستخدام الديكورات والاكسسوارات، كما وضّح النقد دلالات ذلك المسرح ومقاصده.

فيليب سوبو (دفاتر القصص ١٩٥٩).

لا يلجأ يونسكو إلى الحيلة أبداً على عكس معظم المؤلفين المسرحيين. لم تكن تلك المهنة الشهيرة، ولا إيرادات المسرح ولا المهارات العظيمة حصنه المنيع أبداً. كان كل شيء يبدو بسيطاً جداً، واضحاً جداً بحيث يتساءل المرء إن كان المؤلف قد أقدم على ذلك عن قصد. مع ذلك لا نلاحظ أبداً أي تراجع أو أية لحظة لا حركة فيها.

جورج دوولين (الويس، رقم تموز ١٩٥٩).

هل يكفي أن نقول أن على المسرح أن يهتم بالواقعية الاجتماعية لأن المشاكل الاجتماعية ذات أهمية عظمى؟ ليست المشاكل الاجتماعية هي المشاكل الوحيدة... ولماذا يجب على العقدة والغاية أن ترتديا الزي الإيسني؟ أسبب الشيء الزهيد يقال عن يونسكو إنه مُضِلٌّ خطير؟ بحق السماء ليتنا نستبعد أبداً أولئك الذين يبتعدون عن الطريق العريض. لأنّ افتقارهم يوحى بأمر مزعج... لا. يجب على المسرح الحي أن يدفعنا إلى معرفة أنفسنا معرفة أفضل، وأن نعرف الآخرين، وأن نطرح من جديد مسألة المدارس الجديدة كلها. "الالتزام"، يعني أن نضع أنفسنا في موقف الكلب الذي يركض خلف ذيله.

بيير إيميه توشار (أفانسين العدد ١٥٦، ١٩٥٩).

يجب علينا أن ندرك جيداً أن الشباب المثقف قد اكتشف (في عالم بيكيت ويونسكو) وجه الإنسان المعاصر؛ وكيفية النجاح العالمي لهذه الأعمال لدى جيل الشباب في شتى البلدان لينذر أولئك الذين يقهقهون ويرفضون هذا الحكم المبرم في قضية المغامرة الإنسانية.

جورج نوفو (أفانسين العدد ١٥٦، ١٩٥٩):

تبدأ الشخصيات عموماً ببعدين فتتميز آنذاك بسطحية مضحكة لكن كلما تطورت المسرحية نراها تكتسب أبعاداً إضافية، أبعاداً تصل إلى أربعة أو خمسة أو ستة أو أكثر، ويرمينا المؤلف في الطبقات المترابطة لحياة الشخصيات الداخلية (يجب أن نقول: مسرح عرائسها الداخلي) كما لو كنا في علية نتكشف أعماقها واحداً بعد آخر. في عالم يونسكو، يبدأ كل شيء طبيعياً وينتهي غرائبياً.

كلود روا (فرانس - أوبسرفاتور ١٩٥٩):

عذر يونسكو لرغبته في إيصال رسائل باعتزاز ومباهاة، كما يفعل موزعو البرقيات الصغار، هوان بعض العقول النيرة تعاملت معه في بداياته على أنه صبي وقح، وبما أن تلك العقول النيرة لم تفهم ماذا كان يريد أن يقول استتجت أنه لا يريد أن يقول أي شيء.

سيرج دوبروفسكي (الضحك عند يونسكو. مجلة المجلة الفرنسية الجديدة. شباط ١٩٦٠).

المسرح اللاعقلاني ليس مجرد مسرح يهاجم أصنام العقلانية، التطور -نحو السعادة- بواسطة العلم... إنه في الدرجة الأولى مسرح وجدّ ليعبّر بالفعل عن اللاعقلاني. كان المسرح التقليدي متماسكاً لأن الإنسان الذي قدّمه كان متماسكاً، ومن وجهة النظر هذه فإن كتاب اللا معقول، مثل كامو وسارتر، بقوا، في مسرحهم، كما في أسلوبهم، محافظين تماماً... التعبير الحقيقي عن اللا معقول يتطلب تفكيراً كلياً مزدوجاً، تفكير الشخصية وتفكير اللغة[....].

تقدم مسرحية المغنية الصلحاء، مثلها مثل جميع مسرحيات يونسكو، عينات كاملة لما أسماه هيدجر "الثرثرة اليومية"، حيث يترسب العناء الإنساني في عبارات وأقوال مأثورة وأمثال نتعرّف عليها حال ورودها لأنها زينة حديثنا اليومي. يوجد لدى يونسكو رقيب، وصاحب تصانيف لا يرحمان، يقذفان لنا مجموعة من الحماقات النموذجية [....].

مسرح يونسكو مسرح انطولوجي ويبدو أن المؤلف من أوائل المسرحيين الذين أخذوا على محمل الجدّ التأكيد القائل أن الفكر ليس منطقة للوجود بل على العكس إنه لا وجود له في وسط هذا العالم.

في دومور (آر. كاتون الثاني ١٩٦٠):

يجعلنا يونسكو نفكر بذلك الرجل الذي يبحث في عاصمة أجنبية عن غرض مفقود. أولئك الذين يعرفون مسرح يونسكو يعلمون جيداً أنه ماعاد يتذكر جيداً ذلك الغرض المفقود ولا إن كان قد فقده حقاً. لكنه يتابع بحثه حتى يضئ نفسه ثم يجدها من جديد. مسرحه هو قصة هذا البحث الذي ربما كان بلا جدوى. لكن من يدري؟

مارتان ايسلن (مسرح اللا معقول ١٩٦١).

مجرد عرض هذا الموقف اليائس وتقديم الفرصة للمشاهد لكي يواجهه، مفتوح العينين، يشكل حدّ ذاته عملاً تطهيرياً تحريراً. ألم يواجه أوديب ولير

البأس المطلق لا معقولية الشرط الإنساني؟ مع ذلك فإن مأساتيهما هما تجربتان محررتان منفذتان.

فيليب سنيار (يونسكو ١٩٦٤):

مسرح يونسكو مجموعة تساؤلات حول الشرط الإنساني لأن الوسواس التي يطرحها تعبّر عن شعور بالانتظار منذ آلاف السنين إن يجاب عليه إلا في نهاية الزمان. ربما كان هذا المسرح مسرحاً لاهوتياً لكنه مهّد إلى "العدم الكبير" كما أن العقائد التي يمجّدها هي الأساطير التي حاول قدر الإنسان دائماً أن يتعرّف على نفسه فيها.

سيمون بن موسى (يونسكو ١٩٦٦):

شخصيات محاصرة، تلك هي شخصيات يونسكو التي تحاصرنا ذكرياتها ويحاصرنا العالم. جميع الأشكال تصبح عوائق وعقبات، وجميع الأفكار تغدو متساوية، أي مربكة بالتالي. قتامة في اللغة: حصار داخل الأحاديث الدائرية، قتامة في المفردات التي صارت أشياء، قتامة في الأشياء التي تبني أمكنة محصورة، قتامة في البيوت، التي تتفتت وتغرق وتكتسي بالفطور وتتضاءل حتى تصبح في حجم القبر، بيوت "للخريف الأبدي". قتامة في الزمن الذي يدور مثل سلم كهربائي لا يمكن للإنسان إلا أن يفقد توازنه، وأخيراً قتامة في الايديولوجيات العدوانية، المتشابهة، الباطلة.

روبير أبي راشد (دفاثر رينو - بارو عدد ٥٣. ١٩٦٦):

بينما كل شيء يدفع الكتاب والفنانين للتمسك بصيغة نهائية محدّدة، بحجة الوفاء لأنفسهم، يتقدم أوجين يونسكو إلى الأمام دون الاكتراث بأن يقدّم عن أعماله صورة متماسكة مُعَدّة سلفاً. ما أطول الطريق الذي قطعه منذ المغنية الصلحاء، وما أكثر الموضوعات الجديدة التي اكتشفها! لا، ليس في الإمكان التحدث عن الإنكار والجحود في هذا المجال، بل عن قلق كامن خفي منذ بدايات هذا المسرح راح يعلن عن نفسه شيئاً فشيئاً بقوة، ويتحد قليلاً قليلاً مع السخرية حتى سيطر عليها في بعض المواقع وأثارها بنور غير متوقّع [...]..

هل تتكرّر يونسكو لوجهات نظره الأولى، واعتنق أفكار الفن الملتزم؟ ليس بالشكل الكافي، فمغزى هذه المسرحية (الكركدن) لا يرتبط بأية مواقف سياسية واضحة.

جان دولفينيو (المسرح والمجتمع ١٩٦٩):

استمرت تجربة "المسرح الجديد" عشر سنوات، طرأت تغيرات على هذه التجربة خلال تأكيدها لشرعيتها وصفتها الرسمية. فخسرت أحياناً مذاقها اللاذع وحيويتها [.....] لقد تجاوز يونسكو سريعاً الاعتراض العنيف على اللغة الدارجة والمواقف المبتذلة التي كان يعمل بها، بلا شك، في متابعة رواية "بوفاروبيكوشيه"^(٩٦)، لكن المسرحية الهزلية الفلسفية أخفت القلق في حالة الرضى العلني وتوغلت بطريقة مؤلمة إلى باطن الكاتب نفسه.

برتران بوارو - دلبش (لوموند ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٠):

(بمناسبة انتخاب يونسكو عضواً في الأكاديمية الفرنسية).

حتى لو كانت مساهمته في الفن العالمي قد فقدت شيئاً من قوتها، إذ تحولت إلى تأملات بسيطة عن الموت، وارتدت إلى شكل من الإنسانية الكئيبة، حتى لو أن ابتكارات أخرى بدأت تبين أن ابتكاراته أصبحت عتيقة، فإن يونسكو سيبقى الكاتب الأول، إضافة إلى بيكيت، الذي أعاد صياغة لغة المسرح للتعبير عن المخاوف الكبيرة الجديدة، وهذا وحده يستحق الخلود.

مؤلف "الكراسي" في ردام أخضر؟ والخطأ الطبيعي المرتبط بالمعجم؟ رغم كل شيء فالأمر ليس مستهجنأبداً....

^(٩٦) بوفاروبيكوشيه: Bouvard et pe'uch، رواية لم تكتمل كتبها جوستاف فلوبر ونشرت عام ١٨٨١ وهي قصة رجلين محدودَي الذكاء يجربان شتى أنواع المهين لكنهما يفشلان بطريقة مضحكة.

حوار مع أوجين يونسكو

حواء..

- كلود إستاندو: تمثّل دراسة الناقد للعمل الأدبي وجهة نظر موضوعية دائماً، هل تستطيع يا أوجين يونسكو، أن تقدّم وجهة نظر شخصية حول بعض المسائل، وأن تشير إلى مقاصد المؤلف...؟

من مسرحية إلى أخرى، وتحت وجوه متعددة، قدّمتُ وجسّدتُ المرأة والرجل، حواء وآدم، كيف تراهما؟

- أوجين يونسكو: عندما أتحدّث عن الزوجين، أخصّ المرأة بالمديح. أعتقد أن المرأة هي التي تمتلك الصفاء والحب.

لديّ انطباع أن هذا واضح جداً منذ منتصف الفصل الأول في مسرحية العطش والجوع. المرأة عاقلة، محبّة، تضمّ في أعماقها صفاء وفرحاً روحياً لا نجدهما لدى الرجل. وهي التي تجسّد روح الزوجين وهي المسؤولة عن الرجل، لكنها لا تتجح دائماً. في المشهد الأخير من الفصل الأول نجد عندها رؤية فردوسية، بينما الرجل لا يدرك شيئاً من ذلك الحب. يهجر البيت ويضيع. لم يلتقِ بأي شيء أساسي، ولم يجد شيئاً، وينتهي به المطاف إلى ذلك الدير-السجن الذي يمثل صورة عن الجحيم. على العموم مسرحية العطش والجوع تعالج إلى حدّ ما موضوع فاوست ومرغريت...

المرأة مسؤولة عن كل شيء وإذا ما ظهرت يائسة من وقت لآخر فذلك لأن الرجل يصب عليها همومه كلها. في اميديه يهرب الزوج، يفرّ لكنها تبقى وفية مخلصّة. وفي الكراسي. الرجل فاشل لكنها تتبّعه حتى في فشله، تراقبه، تتبّعه حتى في الموت. يهرب الرجل أحياناً أو يحاول الهرب لكن المرأة لا تفعل ذلك...

ك.أ. لكن في مسرحية الكركدن، ديزي هي التي تهرب.

ا.ي. صحيح، لكن ديزي، في الكركدن، ليست زوجة، إنها امرأة مخنّج.

ك.أ. في "الملك يموت" للمرأة وجهان لا ينسجمان. مرغريت وماري.

أ.ي. مثلت دور مرغريت بشيء من الخبث تلك الممثلة العظيمة التي قدمت معظم مسرحياتي، تسيلاً شيلتون. ربما كان يناسب تسيلاً شيلتون دور الضحية، أما بالنسبة لدور مثل دور الملكة مرغريت فقد وجدت مخرجاً إذ خلقت منه شيئاً آخر؛ خلقت منه امرأة مستبدة تسعى إلى الخصام إلى حد ما. لكن مرغريت تمثل القدر، تمثل القانون، والقانون رصين، قدمت عروض أخرى في إنجلترا والمانيا صورة مختلفة عن المرأة، المرأة التي لا تلتين لكنها صاقية مشرقة.

المرأة هي الواجب لكنها الحب أيضاً. الملكة ماري هي الوجه الآخر للملكة مرغريت. هناك وجهان للمرأة، هناك ازدواجية. أرادت ماري أن تهب الملك سعادة أرضية ربما كان من المستحيل أن ينالها بينما كانت مرغريت مجبرة على أن تقوده حتى إتمام ذاته في الموت.

في مسرحية لعبة القتل نرى رجلاً وامرأة عجوزين يمكن اعتبارهما تلخيصاً لمسرحية الكراسي. المرأة هي التي تمتلئ بالثقة، المرأة هي السعيدة، رغم الكارثة، رغم الطاعون، رغم الموت. هي سعيدة لأنها أحبت طوال الوقت. لقد أدرك الرجل متأخراً أن الحب والخلص كانا قربه.

في الماشي في الهواء، تدافع المرأة عن الرجل، تساعد، تخاف عليه. هي التي كان عليها أن تعمل لتؤمن طمأنينة زوجها المجنون. في مشهد الكوابيس من الجزء الثاني من المسرحية أردت أن أبين الوحدة المطلقة التي تعيش فيها المرأة لأن الرجل يستطيع الاعتماد على المرأة، يمكن أن تحبه المرأة، أما المرأة فلا سند لها، وهي التي تمسك كل الخيوط بيديها.

.... وآدم.

ك.أ. والرجل؟ الموزع دائماً بين صعوبة الحياة والاندهاش، أية تجربة في هذا العالم يمثلها الرجل؟ قيل أحياناً إنك قدمت نفسك على المسرح تحت اسم بيرانجيه أو جان...

أ.ي. ربما كانت شخصياتي صورة عني إلى حد ما. لكن لا يمكن أن تكون أنا. صعب أن أقول: إنها غالباً الشيء الذي لا أريد أن أكونه، مثلاً يريد الكاتب أن يكونه. إنها الصورة التي رآها في الحلم. يمكن أن يكون المقصود شخصاً

آخر، شخصاً نتحدث عنه، عرفناه، إذن نخاف منه... الرجل مثل الطفل ومن هنا يمكن أن نجد قيمته. إنه ذو قيمة روحية لأنه رغم كل شيء، طفل بحاجة إلى أم، إلى الأم - الزوجة التي تواسيه، ولأنه يملك رؤية مذهشة للعالم. بطريقة ما، الرجال الذين خلفتهم لا يشيخون إذ أنهم يتابعون حياتهم في الاندهاش، والذهول والاستغراب.

هذا الاندهاش أمام الكون هو الموقف الفلسفي الأساسي، كما اعتقد، ومن ثم يجب إقامة فلسفة طبعاً؛ لكن نقطة انطلاق كل معرفة هي هذه القدرة على الاندهاش.

نرى هذه القدرة أحياناً لدى المرأة لكنها تكون أضعف بكثير دون شك، لأن للمرأة هموماً كثيرة إذ يجب عليها أن تساعد وتسد طفلها الرجل العجوز.

الفرد والمجتمع:

- ك.ا. أنت تعرض الفرد في حالة تمرّد "غريزي" بمواجهة المجتمع.
- ا.ي. الجمهور وحش مخيف. هذا ما حاولت أن أقوله في الكركدن، يرفض بيرانجييه أن يكون مثل الآخرين، يرفض ارتداء الزي الدارج، يرفض الإيمان بالأيديولوجية المسيطرة، يرفض الانخراط مع الجمهور، يرفض الولوج إلى عالم "التتكير المجهول". يخاف أن يخسر روحه أو شخصيته. كان اينشتاين يكره التجمعات البشرية التي تضم عشرات الأشخاص. كان يحتقر من يحبون الشعارات، من يصرخون "صيحة القتال"، من يسبّرون أرتالاً على الإقاعات الموسيقية كما كان يفعل الهتلريون سابقاً وكما يفعل الصينيون حالياً؟ يغنون ويحملون شعارات أخرى، آلهة أخرى من الرجال.

في "الماشي في الهواء" قيل إنني كنتُ أتحدث عن خوفاي الخاص، لكن لهذه المسرحية طابع سياسي... اعتمدتُ حكاية الطفل المقتول على "حادثة حقيقية" كما أنّ البعض قال: المقصود حكاية شاب في السابعة عشرة حاول الهرب من برلين الشرقية، فأردي قتيلاً على "السور" عندما حاول اجتيازها... أما الشيء الذي رآه بيرانجييه أثناء هربه فهو الصورة البشعة المخيفة للعالم، العالم المستبد... إنها حقاً مسرحية سياسية. عُرِضت في برلين وفهمها البرلينيون على هذا الأساس مما خلق بعض الضيق والإزعاج.

- ك.أ. وماذا يمثل "ماوراء العالم"؟
أ.ي. صعب جداً أن أشرح ذلك. المهم، في تلك الفترة كنت قد قرأت مؤلفات بعض علماء الفيزياء.
ك.أ. "قاتل بلا أجر" هي أيضاً مسرحية سياسية، إذا ما تذكرنا مشهد الأم بيبا.
أ.ي. نعم. الأمر واضح.

مسرح "ملتزم".

- ك.أ. أخيراً. هل يمكن الحديث عن مسرح ملتزم فيما يتعلّق بمسرحياتك، على عكس رأي بعض النقاد؟
أ.ي. كنت اتهم عام ١٩٥٤، بأنني لا أكتب مسرحاً ملتزماً. في مجلة الاكسبريس مقالة طويلة بتوقيع برنار دور يقول فيها: حسناً، لقد أحسن اداموف، ويونسكو فيما صنعاه حتى الآن - أي نقد المجتمع البرجوازي ونقد لغة البرجوازية الصغيرة (هذا ليس صحيحاً إذ أن المقصود هو "البرجوازية الصغيرة في كل المجتمعات، اشتراكية أو رأسمالية أو سواها)، أما الآن فعليهما أن يقدّما شيئاً آخر، شيئاً إيجابياً.. كانوا يطالبوننا بالانضمام إلى مدرسة بريخت، وكان دور يريد أن يكون زعيم أيديولوجية تيار جديد؛ لكن لم تكن لديه القدرة على ذلك.
اعتباراً من قاتل بلا أجر والكركدن بدأت كتابة "مسرح ذي رسالة" لكنها لم تكن الرسالة المنتظرة.
ك.أ. لقد كتبت أن ليس على المسرح أن يمجّد أية أيديولوجية، وأن الأجدى من ذلك أن يقرأ المرء مقالة فلسفية أو جريدته اليومية.
أ.ي. أرى أنّه إذا كان على المسرح أن يبقى بعد وفاة مؤلفه لن يكون ذلك بسبب الرسالة التي ينفّذها.
أستشهد غالباً ببراندللو: جميع نظرياته النفسية التي كانت تثير اهتمام عصره تمّ تجاوزها، ومع ذلك فإن براندللو مازال حيّاً.
كذلك الذين أقاموا المعابد، كانوا يتخيلون أنهم يفعلون ذلك لجمع المؤمنين

وتقديم الأضاحي للآلهة؛ لقد خلق المهندسون المعماريون أثراً معمارياً بكل بساطة.

في مؤلفات الكاتب المسرحي، إما أن يتلف كل شيء ويتلاشى أو تتحوّل تلك المؤلفات إلى مسرح خالص.

ك.أ. ماذا تقصد بـ "مسرح خالص"؟

أ.ي. هناك الكثير مما يقال في هذا الموضوع.

في المسرح، ليست الأفكار هي التي تبقى إذ أن الايديولوجيات كلها تسقط في النهاية ويتمّ تجاوزها. ما يبقى هي العواطف والشخصيات، وربما بعض الأفكار، لكنها أفكار حيّة، من لحم ودم. لا يعنينا الآن الأفكار الفلسفية التي أتى بها شكسبير، إن ما يعنينا هو انفعالات هاملت أو ماكبث أو الملك لير... فلسفة شكسبير موجودة عند باسكال، عند الملك سليمان، عند النبي أيوب...

(هذا ما يُطلق عليه نقاد هذه الأيام "الترهات" الأمر يتعلق بكاتب جديد).

الإخراج:

ك.أ. مصير مسرح ما مرتبط أيضاً بتنوّع العروض التي يقدمها الممثلون والمخرجون.

أ.ي. نعم. اعتقد أن عملاً مسرحياً يمكن أن يُعرض بطرق متنوعة جداً: هناك عدد غير محدود من العروض المقبولة وعدد غير محدود من العروض غير المقبولة.

ك.أ. ينطوّر الإخراج مع الزمن. المسرحية التي كتبت عام ١٩٥٠، لا يجوز أن تُعرض عام ١٩٧٠ بالشكل الذي أُخرجت فيه سابقاً.

أ.ي. لا شيء يشيخ سريعاً مثل أسلوب الممثل أو طريقة الإخراج. المسألة هامة. تتغير الحساسية الإنسانية كل عشر سنوات أو خمس عشرة سنة. وعلى الإخراج أن يلبي أسلوب كل عصر.

ك.أ. من وجهة النظر هذه، هل يمكن اعتبار "لعبة القتل" بداية طريقة جديدة في مسرحك.

أ.ي. نعم. لديّ هذا الانطباع.

بدأت أولاً بالمسرحيات ذات الفصل الواحد ثم انتقلت إلى مسرحيات أطول

مثل قاتل بلا أجر، والكركن.. مسرحية الملك يموت، لحن طويل محزن.
أما في لعبة القتل، فيمكن تخيل عدة مشاهد تُعرض في وقت واحد على
المنصة.

شاهدنا هذا العام في باريس مسرحية "اورلاندو العنيف" قدمها المسرح الخمر
في روما من إخراج لوكار ونكوتي. كان هناك مقاطع جميلة هنا. ومشهد رائع
هناك وكان المشاهدون ينتقلون من مشهد إلى آخر. هذا يدعو للاهتمام لكنني لست
من المعجبين بهذه الطريقة.

منذ حوالي خمس عشرة سنة فكر جان -ماري سيرو وأغام أن يوزعا
منصات صغيرة حول الصالة تُقدم عليها مشاهد مختلفة، وكانت الكراسي الدوارة
تسمح للمشاهدين بمتابعة هذا العرض أو ذاك حسب رغباتهم.

لكن هذه اللعبة، لعبة لا تستطيع الذهاب بعيداً.. وليس لها أية نتائج خطيرة.
ك.ا. لكن هذه اللعبة تخلق ولا شك علاقات جديدة بين الجمهور
والممثلين...

ا.ي. هذا يعني أنه لم يعد هناك قيمة لأي شيء. هناك نوع من التمرد بين
صفوف المخرجين ضد المؤلفين، وقد عبّر بعضهم مثل بيتر بروك
عن ذلك بطريقة هذيانة تقريباً إذ قال إن على المؤلف أن يصمت
وكل شيء مرتبط بالمخرج، أي به!

هذا كله لأنه مخرج وليس مؤلفاً. لو كان ممثلاً، لقال إن الممثل هو
الشخص الوحيد الذي يحق له الكلام.

لقد أعجبت جداً، بما فعله غروتوفسكي؛ لكن خلفه كان هزياً، أبله أحياناً،
غروتوفسكي، إنه التفتيش والزه ولا أرى بين الممثلين والمخرجين الباريسيين
من يفعل ما فعله.

يتهاافت الناس على كل جديد، خصوصاً الكثيرون من رجال المسرح حتى
لا يُقال إنهم "متخلفون".

لقد ولّى زمن كان الممثل فيه يتمرد على المؤلف.

هذه مغالاة. يجب إعادة التوازن. الإخراج مهم لأن فكراً يكمن خلفه.

في بعض مسارح باريس الصغيرة حاولت بعض الفرق تقديم عروضها
دون مخرج ودون نص؛ لكن تلك المحاولات لم تعطِ أية نتيجة فرجع المخرجون

الشباب، أي أولئك الذين يلغوا سن الأربعين أو الخامسة والأربعين، إلى الكلاسيكيات. أدرك مع ذلك أن المؤلف شخصية لا تحتل أبداً.

ك.ا. هل تعتقد أن مشاركة الصالة مع المنصة ناعمة؟

ا.ي. أعتقد أن من الممكن تقديم كل شيء على المنصة ففي إحدى مسرحيات لونورمان عرض ج. باتي واجهة منزل مع نوافذ، كان هناك مشاهد مختلفة لكنها تندمج مع بعضها وتؤلف مجموعة منسجمة تقدم على المنصة ضمن تنظيم محدد. يجب المحافظة على الوحدة ضمن تنوع المشاهد.

أشكال التعبير:

ك.ا. لقد كتبت ياسيد يونسكو حوالي ثلاثين مسرحية، وقصصاً، ومقالات نقدية، كما نظمت من قبل عدة قصائد، وسجلت "يوميات"... هل ترى في المسرح وسيلة تعبير متميزة؟

ا.ي. يجمع المسرح احتمالات وسائل التعبير المتنوعة الأكثر فقراً...

ك.ا. بآية طريقة؟

ا.و. أنت تعلم! أنا لا أعرف أبداً ماهو المسرح. لقد حاولت تعريفه لكن ذلك كان مستحيلاً تماماً. قلت في نفسي أولاً، كما يفعل جميع الناس؛ المسرح صراع، لكن الصراع موجود في الرواية أيضاً. المسرح قصة فيها أشخاص لديهم قضايا فيما بينهم، وهموم، لكن يمكن أن نجد ذلك في السينما أو في الروايات. يقال إن المسرح حوار، لكن بعض المسرحيات مبنية على المونولوج... التعريف الوحيد الممكن إذن هو أن نقول: المسرح هو شيء ما يُعرض علينا... يمكن أن يجري التمثيل على منصة أو في الشارع أو في باحة.

لكن لماذا لا يتم التمثيل في صالات المسارح؟ ذلك مناسب أكثر.

بعد خمس عشرة سنة ستمنح الثورة الراقصة المقبلة التمثيل على أرضية نهر السين وستفرض إنشاء المسارح من جديد.

رويت في كتاب "اكتشافات" كيف التقيت مع المسرح. كنت في المدرسة الابتدائية وكان السيد لوازو، وهو المعلم، قد طلب منا أن نكتب موضوع إنشاء

فكتبْتُ ما أريد قوله بشكل حوار. كنتُ أكتبُ آنذاك إذن مشاهد صغيرة. ثم تخلّيت عن المسرح، بعد ذلك، وفضلتُ الأدب. كان المسرح يبدو لي مصْـلحاً نظراً لنتائجِه الهائلة، وقد فهمتُ متأخراً إنه يجب التركيز على تأثيراته الكبيرة لأنّ... لأن الأمر هكذا....

لماذا أصبحتُ كاتباً مسرحياً ولم أصبح قاضياً هذا ما لا أعرفه...

حقاً لا أعرف.. أسأل نفسي كثيراً هذا السؤال ولأدري بماذا أجيب.

لكن المسرح يشمل اليوميات والقصص والمقالات. إنه اعتراف، وحكاية، ونقد أيضاً.

ك.ا. هل ستتابع كتابة القصة؟

ا.ي. أحب جداً كتابة القصة، لقد شعرتُ بخيبة مريرة من الطريقة التي قوبل بها كتابي "صورة الكولونيل". لقد أُعيد طبع مسرحياتي باستمرار بينما طبعة أقاصيصي مركونة دائماً عند أصحاب المكتبات. يعتقد الناس أنني كاتب مسرحي وليس شيئاً آخر.. عندما قدّمتُ مجموعتي القصصية إلى النقاد الأدبيين أرسلوها بدورهم إلى النقاد المسرحيين.

ك.ا. كتبتُ عام ١٩٦١، سيناريو فيلم "الغضب" كما أنك أنجزت منذُ فترة فيلم "الطين"، وهو اقتباس لإحدى قصصك، ماهي الإمكانات التي قدمتها السينما إليك للتعبير عن أفكارك؟

ا.ي. لم أشاهد ذلك الفيلم... لقد كتبتُ السيناريو ومثلتُ الدور الرئيسي فيه (الحقيقة لم يكن فيه سوى دور واحد). لم تكن عملية المونتاج قد انتهت، سوف أرى إذا كان المخرج قد استطاع أن يضمّن هذا الفيلم ما أردتُ التعبير عنه.

مررتُ بتجربة غير سارة في التلفزيون. لقد عُرِضت مسرحية الكراسي في كل مكان تقريباً وكنتُ مسروراً من طريقة إخراجها؛ وقد تمّ تصوير أحد العروض. لاقت التمثيلية نجاحاً كبيراً لدى الجمهور أما أنا فكنتُ أشعر أن كارثة أصابتي.

تحوّلت الكراسي إلى مسرحية نفسكولوجية. الشخصيات واضحة، تتضح عرقاً، تتألم، تقوم بـ "إيماءات معبرة" لقد أصبح العمل أدبياً، وفهم الجمهور "نفسية" الشخصيات فهماً مبالغاً فيه.

الأمر الذي يدعو للاهتمام في المسرح هو أننا لا نرى الشخصيات عن قرب، نحن لا نرى سوى حركات الذمى، وشخصيتين كاريكاتوريتين ودوامة من الكراسي التي لا يجلس عليها، وهذا يحملنا بعيداً، إننا نتجاوز علم النفس، ونغتني بالوفرة، ونغتني بالحقيقة.

مشاريع:

ك.ا. هل لديك حالياً أية مشاريع؟
ا.ي. نعم، بالطبع، هناك مسرحية.. أعتقد أن من السابق لأوانه أن أتحدث عنها.

ك.ا. ألم يتحدد موضوعها بعد؟
ا.ي. بل، بلى، تأثرت كثيراً بجان كوت، الاختصاصي بمسرحيات شكسبير وأريد أن أكتب شيئاً عن غريزة السيطرة libido.....
dominandi

ك.ا. ماكيت إذن؟
ا.ي. طبعاً ستكون عن ماكيت، كيف يحدث أن جندياً فاضلاً مخلصاً يتحول إلى وحش؟... نتيجة طموحه السياسي.. أريد أن أبين أن السلطة خطر وشوم، وأولئك الذين يريدون السلطة السياسية، سواء حصلوا عليها أم لم يحصلوا- مصابون بالذهان الهذلياني
Paranoiaques.

يجب أن نسير بإرشادات العقول الإلكترونية...
ك.ا. هذه نظرة تدعو للقلق!

ا.ي. لا أعتقد ذلك. على كل حال، هذا أمر علينا أن نجربه! العقول الألكترونية توزع الثروات. ربما كان في الإمكان إيجاد مجتمع بلا سياسيين. سيكون في الإمكان إيجاد مجتمع، بل مجتمعات، دون قادة الأحزاب... سيجد الناس المعنى الحقيقي "للسياسة" أي علم -جديد وقديم في وقت واحد- العلاقات الإنسانية، لكن السلطة توظف "غريزة السيطرة".



الفهرس :

٥	مقدمة:
٧	حياة: "التجوال في الغابة"
٧	١- البحث عن الذات
٧	ثقافتيت
٩	الفردوس:
١٠	المراقة:
١٥	٢- الكاتب المسرحي
١٥	تجربة مسرحية مزدوجة:
١٨	من مسارح الأقبية إلى الصالات الذهبية والصالات الأرجوانية:
٢١	المؤلف ومشاكله
٢٣	تكريس:
٢٥	٣- ضمير مَمَزَق
٢٥	ثياب تنكريّة
٢٨	تعاقب
٣١	السقوط، الموت، المكان الآخر
٣٢	الزمن قبي فئات
٣٥	مُشيطان الأدب
٣٨	مغامرة مسرحية
٣٨	١- دراسة تحليلية للمسرح
٣٩	السخرية من المسرح:
٣٩	أعماق الوعي:
٤٠	بيراتجيه والناس
٤٠	عند أسفل "السلم الفضلي"

٤٠	"المغنية الصلعاء"
٤٥	الكلمات والأشياء
٤٧	تحريف المسرح:
٤٨	موضوعات وتقنية
٤٩	"الدرس"
٥٢	إيقاع الكلام:
٥٤	اعتداء اللغة
٥٤	وجود ملحة:
٥٥	"جاءك أو الامثال"
٥٨	مسرح الحلم
٥٩	أساليب السيرك
٦٠	مسخ اللغة
٦١	تمركز مزدوج
٦٣	"المستقبل في البيض"
٦٤	هجاه معنوي:
٦٥	مسرحيات قصيرة:
٦٦	"الكراسي"
٦٨	كوكبة موضوعات
٧٠	"الكلاسية"
٧١	الزوجة
٧٢	العدم والوحدة:
٧٢	"ضحايا الواجب"
٧٦	كاليدوسكوب (المشكال):
٧٧	دفاع عن مسرح متأثر بالسريرية
٧٨	منهج التحليل النفسي:
٧٩	طبقات الحور
٨٠	التشغيل تصوير المجرد
٨٠	الفرد والزوجان:

٨١	”اميديه أو كيف نتخلص منها“.....
٨٤	تطور وإيقاع الكابوس:
٨٥	أساليب ”واقعية“ وتقنية تعتمد على التحليل النفسي.....
٨٦	الحوار ”ثائرة“ وشعر
٨٦	الديكور والاكسسوار:
٨٨	موضوع الزوجين:
٨٩	الإلهام
٩٠	”المستأجر الجديد“
٩١	اللوحة
٩٣	”مشرحة ألما“ (١).....
٩٥	على طريقة
٩٧	كلام متحدث
٩٨	التفريج
٩٨	المؤلف ومشاكله:
١٠٠	قاتل بلا أجر
١٠٣	من الحلم الجميل إلى الكابوس
١٠٥	سقوط الشخصيات
١٠٦	تقهقر الكلام
١٠٧	السقوط
١٠٨	هجاء سياسي
١٠٩	”الكركن“
١١٤	المسح:
١١٤	تطوّر حتمي
١١٥	مجموعة موضوعات:
١١٦	دراسة أسباب المرض:
١١٧	ناقل الفيروس: اللغة
١١٨	”... عمل متكامل“
١١٩	مشرحة ملتزمة

- ١٢٢فكر نقدي وتجارب في الأسلوب
- ١٢٥ "الماشي في الهواء"
- ١٢٧ الحلم محرك درامي
- ١٢٨ شعر ومخرجة
- ١٢٩ العالم ما وراء العالم
- ١٣٠ أدب:
- ١٣١ "الملك يموت"
- ١٣٤ فكرة ملحة
- ١٣٥ شعائر الموت
- ١٣٦ الشخصيات: مملكة
- ١٣٧ كتابة منظمة
- ١٣٨ بحث انطولوجي
- ١٣٩ "العطش والجوع"
- ١٤٤ نسيج مركب
- ١٤٥ الحب وصعوبات الوجود
- ١٤٦ تقنية طيعة
- ١٤٧ البحث عن المطلق
- ١٤٨ لعبة القتل
- ١٥١ تقنية متجددة
- ١٥٢ تعبير عن "العيب"
- ١٥٤ ٢- العروض المسرحية
- ١٥٨ مسرح العنف
- ١٥٩ ١- من التجربة الحية إلى دنيا الوهم
- ١٥٩ عالم مخيف

١٥٩	مشاهد من الجحيم.....
١٦١	وجوه أسطورية.....
١٦٣	عالم رائع.....
١٦٣	صور خرافية.....
١٦٤	صورة حلم.....
١٦٥	وجدان ممزق.....
١٦٧	٢ - مسرح ضد المسرح:.....
١٦٧	مجادلات:.....
١٦٩	فن سحري:.....
١٧٢	٣ - نقاط التلاقي:.....
١٧٢	الروتاد الثلاثة.....
١٧٤	منظر.....
١٧٧	جمهور:.....
١٧٩	٤ - التقنية والتطبيق في المسرح:.....
١٧٩	الحركة الدرامية:.....
١٨٢	الشخصيات:.....
١٨٤	اللغة:.....
١٩٠	التمثيل:.....
١٩٢	الإضاءة، الديكور، الأكسسوار:.....
١٩٥	٥ - دلالات.....
١٩٥	بحث عن اللاواقعية:.....
١٩٧	صورة عالم لا معقول:.....
١٩٩	تأملات حول الأشكال المسرحية:.....
٢٠١	خاتمة:.....

٢٠٣ يونسكو والنقد
٢٠٣ ١ - اكتشاف مؤلف مجهول:
٢٠٤ ١ - ثور اداموف (آر ١٧ أيار ١٩٥٢).
٢٠٥ - قضية مسرح لجنيد:
٢٠٨ انهيار التحالفات.
٢١٠ محاولات تفسيرية:
٢١٥ حوار مع أوجين يونسكو
٢١٧ الفرد والمجتمع:
٢١٨ مسرح ملتزم:
٢١٩ الإخراج:
٢٢١ أشكال التعبير:
٢٢٣ مشاريع:



رقم الإيداع في مكتبة الأسد - الوطنية

يونسكو = Eugene Ionesco / كلود إيستادو؛ ترجمة قيس خضور؛
مراجعة حسيب كاسوحة-دمشق؛
اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩-
٢٣٠ ص؛ ٢٤ سم .

١- ٨٥٩ ا ب س ي	٢- ٩٢٨: يونسكو، أوجين
٣- العنوان	٤- العنوان الموازي
٥- إيستادو	٦- خضور
ع- ١٩٩٩/٧/١١٢٦	مكتبة الأسد

□





هذا الكتاب

دراسة قيمية تدور في رحاب حياة المسرحي العالمي المعروف (يوجين يونسكو) الروماني الأصل، الفرنسي الجنسية، والظروف الحياتية التي عاشها، والغنى المعرفي الذي حصده من تجربته الأدبية الطويلة، كما تقف على العديد من مسرحياته المعروفة محلله وشارحه وواصفة للتقنيات والطقوس المسرحية والأفكار والموضوعات التي عالجها يونسكو وفقاً للأزمات التي عاشها والتجارب التي خاضها كما ترصد الدراسة المقومات الجمالية التي تحكم البناء الغني لمسرح يونسكو على وجه العموم.

